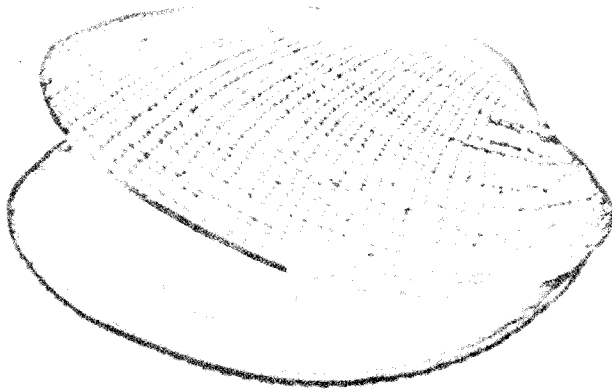


أزواج
الأنبياء

أزواج الأنبياء

إعداد
محمد راجي حسن كناس



دار المعرفة

بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright® All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-85-059-3

الطبعة الثانية
1430هـ - 2009م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٣٢-٨٣٤٣٠١
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي له في كل شيء آية تشهد أنه الواحد الخلاق، والذي فطر الخلائق والأرضين والسَّيْنِ الطَّباق، والذي أقر أهل النهي أنه المعبود وحده وكل ما عُبد من دونه اختلاق، والذي يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق، والذي سيفنى كل شيء بأمره ومشيئته وهو وحده الباقي، والذي بعث فينا رسوله «محمداً» ﷺ لِيَتِمَّ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ، والذي أظهره ونصره بقدرته على أهل الشرك والريب والنفاق، فأدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وكان رحمة لجميع العباد، ولم تقتصر رحمته على بني الإنسان، بل امتدَّت إلى صنوف الحيوان، حتى إنها كانت تقصده شاكية، وتقف بين يديه باكية، فيدفع عنها الظلم والعدوان، ويدخل إلى قلوبها الكينة والأمان، فجزاه الله عن أمته خير الجزاء، وجعل مُسْتَقَرَّهُ في الفردوس الأعلى من جنته الغرَّاء، وبلغه أقصى ما يبتغيه له ولأمته من الرضاء، كما وعده في تنزيله العزيز: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: الآية ٥] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢] .

وهذه جوانب من سير بعض النساء، اللواتي اقترنَّ ببعض الأنبياء، لما فيها من عظائم وعبر، ومنفعة لسائر البشر، ولا سيما من كان مستعداً للقبول، من أولي النهي وأصحاب العقول، ملتصقاً بحسن الثواب، من المفضل الوهاب، يوم الحشر والحساب، وصلى الله تعالى وسلم على من أوحى إليه بخير كتاب.

كتبها

محمد راجي حسن كناس

١ - حَوَّاءُ أُمُّ الْبَشَرِ ﷺ

كانت «حَوَّاءُ» ﷺ أول النساء خَلْقًا، وأولهن زوجًا، وأولهن أُمًّا، خلقها الله تعالى من ضِلَعٍ من أضلاع «آدم» ﷺ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، وقد ذكر «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، عن السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، عن مُرَّةَ الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فأخرج «إبليس» من الجنة حين لُعينَ، وأسكن «آدم» الجنة، فكان يمشي فيها وحشياً، ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومةً فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضِلَعِهِ، فسألها: ما أنت؟^(١). قالت: امرأة، قال: وَلَمْ تُخْلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إليّ.

قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حَوَّاءُ، قالوا: لِمَ سُميت حَوَّاءُ؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، فقال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتَيْنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا﴾ [البقرة، الآية: ٣٥]^(٢).

وذكر الطبري عن ابن إسحاق، قال: لما فرغ الله تعالى من معاتبة «إبليس» أقبل على «آدم» ﷺ وقد علّمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَتَّكِدُمْ أَتَيْنَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ إلى ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٣]. قال: ثم ألقى السَّنة على «آدم» - فيما بلغنا عن أهل الكتاب، من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم - عن عبد الله بن عباس وغيره، ثم أخذ ضِلَعًا من أضلاعه من شِقِّهِ الأيسر، ولَأَمَّ مكانها لحمًا، و«آدم» ﷺ نائم لم يَهْبُ من نومته، حتى خلق الله تعالى من ضِلَعِهِ تلك زوجته «حَوَّاءُ»، فسَوَّاهَا امرأةً يسكن إليها، فلما كشف عنه السَّنة وهَبَّ من نومته رآها إلى جنبه، فقال فيما يزعمون والله أعلم: لحمي ودمي وزوجتي،

(١) في التفسير: «من أنت؟».

(٢) تاريخ الطبري (١٠٣/١).

فسكن إليها، فلما زوجه الله ﷻ، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قُبلاً^(١): ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة، الآية: ٣٥]^(٢).

وذكر الطبري عن مجاهد في قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء، الآية: ١]، قال: «حَوَاء» من قُضِيرِي^(٣) «آدم»، وهو نائم، فاستيقظ فقال: «أنا» بالبطية، امرأة.

وتابع أبو جعفر الطبري القول: حدثنا المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد مثله، حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد بن زريع، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء، الآية: ١] يعني «حَوَاء»، خلقت من «آدم» من ضِلَع من أضلاعه^(٤).

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وفي الصحيحين من حديث زائدة عن ميسرة الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضِّلَع أعلاه، فإن ذهب ثُقيمه كَسَرْتَهُ، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً» لفظ البخاري^(٥).

وقال الطبري: فلما أسكن الله ﷻ «آدم» ﷺ وزوجه، أطلق لهما أن يأكلا كل ما شاء أكله من كل ما فيها من ثمارها، غير ثمر شجرة واحدة ابتلاء منه لهما بذلك، ولیمضي قضاء الله فيهما وفي ذريتهما، كما قال ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة، الآية: ٣٥]، فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما أكل ما نهاهما ربهما عن أكله من ثمر تلك الشجرة، وحسن لهما معصية الله في ذلك، حتى أكلا منها، فبدت لهما من سوءاتهما ما كان موارى عنهما منها.

(١) قُبلاً: عياناً.

(٢) تاريخ الطبري (١/١٠٤).

(٣) القُضِيرِي: أسفل الأضلاع.

(٤) تاريخ الطبري (١/١٠٤، ١٠٥).

(٥) البداية والنهاية (١/٨٤).

فكان وصول عدو الله «إبليس» إلى تزيين ذلك لهما، ما ذكر في الخبر الذي حدثني موسى بن هارون الهمداني، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره - عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّةَ الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ، قال: لما قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٢٥﴾ [البقرة، الآية: ٢٥]، أراد «إبليس» أن يدخل عليهما الجنة، فمنعه الخزنة، فأتى الحية، وهي دابة لها أربع قوائم، كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب، فكلمها أن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى «آدم»، فأدخلته في فمها، فمرت الحية على الخزنة، فدخلت وهم لا يعلمون، لما أراد الله ﷻ من الأمر، فكلمه من فمها، ولم يُبال كلامه، فخرج إليه، فقال: ﴿يَتَادُمُ هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لِي بَلَى﴾ [طه، الآية: ١٢٠]، يقول: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها كنت ملكاً مثل الله تبارك وتعالى، أو تكونا من الخالدين، فلا تموتان أبداً؟. وحلف لهما بالله إنني لكما لمن الناصحين، وإنما أراد بذلك أن يبدي لهما ما توارى عنهما من سوءاتهما بهتك لباسهما، وكان قد علم أن لهما سوءة لما كان يقرأ من كتب الملائكة، ولم يكن «آدم» يعلم ذلك، وكان لباسهما الطُّفَرُ، فأبى «آدم» أن يأكل منها، فتصرّفت «حَوَاءُ» فأكلت، ثم قالت: يا آدم! كل، فإني قد أكلت، فلم يُضِرْني، فلما أكل بدت لهما سوءاتهما، وطفقا يَخْصِفَان - يلزقان - عليهما من ورق الجنة^(١).

ثم استطرد ابن جرير يقول: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن ليث بن أبي سُليم، عن طاوس اليماني، عن ابن عباس، قال: إن عدو الله «إبليس» عرض نفسه على دواب الأرض: أيها تحمله حتى تدخل به الجنة حتى يكلم «آدم» وزوجه، فكل الدواب أبى ذلك عليه، حتى كَلَّم الحية، فقال لها: أمنعك من بني آدم، فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة، فجعلته بين نايتين من أنيابها ثم دخلت به، فكلمهما من فمها، وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله تعالى وجعلها تمشي على بطنها.

(١) تاريخ الطبري (١/١٠٦، ١٠٧).

قال: يقول ابن عباس: اقتتلوها حيث وجدتموها، وأخفروا ذمة عدو الله فيها^(١). ثم أردف ابن جرير يقول: حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مُهْرِب، قال: سمعت وهب بن مَنبّه يقول: لما أسكن الله تعالى «آدم» وزوجته الجنة، ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها «آدم» وزوجته، فلما أراد «إبليس» أن يستزلّهما دخل في جوف الحية، وكان للحية أربع قوائم، كأنها بُحَيَّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها «إبليس»، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها «آدم» وزوجته، فجاء بها إلى «حواء»، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأخذت «حواء» فأكلت منها، ثم ذهبت بها إلى «آدم» فقالت: انظر إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأكل منها «آدم»، فبدت لهما سوءاتهما، فدخل «آدم» في جوف الشجرة، فناداه ربه: يا آدم! أين أنت؟ فقال: أنا هنا يا رب! قال: ألا تخرج؟ قال: أستحي منك يا رب! قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة حتى يتحول ثمارها شوكة!

قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة كانت أفضل من الطلح والسدر، ثم قال: يا حواء! أنت التي غرّرت عبدي، فإنك لا تحملين حملاً إلا حملته كُرْهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً.

وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في بطنك حتى غرّ عبدي، ملعونة أنت لعنة حتى تتحوّل قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدّخ رأسك.

قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء^(٢).

(١) تاريخ الطبري (١/١٠٧).

(٢) تاريخ الطبري (١/١٠٨).

وعن القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: حدثني حجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن قيس، قال: نهى الله تعالى «آدم» و«حَوَاءَ» أن يأكلا من شجرة واحدة في الجنة، ويأكلا منها رغداً حيث شاءا، فجاء الشيطان فدخل في جوف الحية، فكلم «حَوَاءَ» ووسوس إلى «آدم» فقال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنْ نَصْصِيحَ ﴿٢١﴾ [الأعراف، الآية: ٢٠، ٢١]، قال: فقطعت «حَوَاءَ» الشجرة، فلدمت الشجرة، وسقط عنهما رياشهما الذي كان عليهما، ﴿وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّمَا الشَّجَرُ لَكُمَا عَذْوٌ مُّئِينٌ﴾ [الأعراف، الآية: ٢٢]، لِمَ أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا رب! أطمعني «حَوَاءَ»، قال لحَوَاءَ: لِمَ أطمعته؟ قالت: أمرتني الحية، قال: لِمَ أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس، قال: ملعون مدحور! أما أنت يا حَوَاءُ! فكما أدميت الشجرة تَدْمِينِ في كل هلال، وأما أنت يا حية! فأقطع قوائمك فتمشين جَزِيًّا على وجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك بالحَجَرِ، اهبطوا بعضكم لبعض عدو^(١).

وقال الطبري، عن ابن إسحاق: قال: حدثت أن أول ما ابتدأهما به من كيدِهِ إياهما، أنه ناح عليهما نياحةً أحزنتهما حين سمعاها، فقالا له: ما يبيك؟ قال: أبكي عليكما، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة، فوقع ذلك في أنفسهما، ثم اتاهما فوسوس إليهما، فقال: يا آدم! هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْكٍ لا يَبْلَى؟ وقال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنْ نَصْصِيحَ ﴿٢١﴾ [الأعراف، الآية: ٢٠، ٢١] أي تكونان ملكين أو تخلدان، أي: إن لم تكونا ملكين في نعمة الجنة فلا تموتان، يقول الله ﷻ: ﴿فَدَلَّهُمَا يَمُّؤُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ٢٢].

وعن يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله ﷻ: ﴿فَوَسَّوَسَ﴾ [الأعراف، الآية: ٢٠] وسوس الشيطان إلى «حَوَاءَ» في الشجرة حتى أتى بها إليها، ثم حَسَنَهَا في عين «آدم».

قال: فدعاها «آدم» إلى حاجته، قالت: لا، إلا أن تأتي ههنا، فلما أتى قالت: لا، إلا أن تأكل من هذه الشجرة، قال: فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما، قال: وذهب «آدم» هارباً في الجنة، فناداه ربه: يا آدم! أُمِنِّي تَفِرُّ؟ قال: لا، يا رب! ولكن حياء منك.

قال: يا آدم! أُنِّي أُتِيتَ؟ قال: من قبل «حواء» يا رب! فقال الله ﷻ: فإنَّ لها عليَّ أن أدميها في كل شهر مرة، كما أدمت هذه الشجرة، وأن أجعلها سفية، وقد كنت خلقتها حليلة، وأن أجعلها تحمل كُرْهاً وتضع كُرْهاً، وقد كنت جعلتها تحمل يَسراً وتضع يَسراً.

قال ابن زيد: ولولا البليَّة التي أصابت «حواء» لكان نساء أهل الدنيا لا يَحْضُن، وَلَكِنَّ حليمات، وَلَكِنَّ يحملن يَسراً، ويضعن يَسراً^(١).

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٥] ف قيل: هي الكرم، وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والشعبي، وجعدة بن هبيرة، ومحمد بن قيس، والسُّدِّي في رواية عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة، قال: وتزعم يهود أنها الحنطة، وهذا مروي عن ابن عباس، والحسن البصري، ووهب بن مُنْبَه، وعطية العوفي، وأبي مالك، ومُحَارِب بن دِثَار، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، قال وهب: والحبة منه ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي مالك: ولا تقربا هذه الشجرة، هي النخلة، وقال ابن جريج عن مجاهد: هي التينة، وبه قال قتادة، وابن جريج، وقال أبو العالية: كانت شجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي في الجنة حَدَث! وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لَعَيَّنْها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن، وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها «آدم»، هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه، والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى:

(١) تاريخ الطبري (١/ ١١٠، ١١١).

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة، الآية: ٣٥] ، والألف واللام ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى، وكقول «موسى» ﷺ لآدم ﷺ: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق، عن أبي حازم سلمة بن دينار، عن أبي هريرة، وأبو مالك، عن ربيعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون «آدم» فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟» وذكر الحديث بطوله، وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها «آدم» لم تكن جنة الخلد، لأنه كُلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه «إبليس» فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى^(١).

وقال القاضي «الماوردي» في تفسيره: واختلف في الجنة التي أسكنها يعني «آدم» و«حَوَاء» على قولين: أحدهما: أنها جنة الخلد، الثاني: جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء، ومن قال بهذا اختلفوا على قولين: أحدهما: أنها في السماء، لأنه أهبطهما منها، وهذا قول «الحسن»، والثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار، وهكذا قول ابن يحيى، والله أعلم بالصواب من ذلك.

هذا كلامه - أي: الماوردي -، فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة، وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة.

ولقد حكى «أبو عبد الله الرازي» في تفسيره، في هذه المسألة أربعة أقوال، وهذه الثلاثة التي أوردها «الماوردي»، ورابعها: الوقف، وحكى القول بأنها في السماء، وليست جنة المأوى، عن «أبي علي الجبائي». وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب، فقالوا: لا شك أن الله ﷻ طرد «إبليس»

حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية، وأمره بالخروج عنها، والهبوط منها، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته، وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع، ولهذا قال: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ [الأعراف، الآية: ١٨] ، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَتَنَافَعِ فِيهَا﴾ [الأعراف، الآية: ١٣] ، وقال: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ [الجعر، الآية: ٣٤] ، الضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة، وأيًا ما كان فمعلوم أنه ليس الكون قدرًا في المكان الذي طرد عنه، وأبعد منه، لا على سبيل الاستقرار، ولا على سبيل المرور والاجتياز.

قالوا: ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه، الآية: ١٢٠] ، ويقول: ﴿وَقَالَ مَا تَهْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [١٥] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنِ النَّاصِحِينَ ﴿١٦﴾ فَذَلَّلَهُمَا فَيُوقِدُونَ ﴿١٧﴾ [الأعراف، الآيات: ٢٠ - ٢٢] ، وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما، وقد أجبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها، لا على سبيل الاستقرار بها، أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء، وفي الثلاثة نظر، والله أعلم.

ومما احتجَّ به أصحاب هذه المقالة ما رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في «الزيادات»، عن هذبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري، عن يحيى بن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب، قال: إن «آدم» لما احتضر اشتهى قِطْفًا من عنب الجنة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة، فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قِطْفًا من عنب الجنة، فقالوا لهم: فقد كفيتموه، فانتهاوا إليه، فقبضوا روحه، وغسلوه، وحنطوه، وكفّنوه، وصلى عليه «جبريل»، ومن خلفه الملائكة، ودفنوه، وقالوا: هذه سُتُّكُمْ في موتاكم، قالوا: فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها «آدم» والتي اشتهى منها القِطْف ممكنًا لما ذهبوا يطلبون ذلك، فدل على أنها في الأرض لا في السماء، والله تعالى أعلم^(١).

وقد روى ابن جرير في تاريخه، عن السدي - في خبر ذكره - عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة الهمداني، عن ابن معبود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَذُوًّا﴾ [البقرة، الآية: ٣٦] ، فلعن الحية فقطع قوائمها، وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب، وأهبط إلى الأرض «آدم» و«حَوَاء» وإبليس والحية^(١).

وقد وردت الأخبار، في كتب السير أن الله ﷻ، خلق «آدم» ﷺ يوم الجمعة، وأخرج من الجنة يوم الجمعة، وأمره بالهبوط منها يوم الجمعة، وتاب عليه يوم الجمعة، وتوفاه يوم الجمعة، لذا كان يوم الجمعة أفضل الأيام، ومن التمس أن يصنع معروفًا، أو أراد أن يقوم بفعل خير فليبادر به يوم الجمعة، وقد أئِثرت عن النبي ﷺ أحاديث عدة في فضل اليوم المذكور، منها: عن سعد بن عباد، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن في الجمعة خمس خصال: فيه خُلِقَ «آدم»، وفيه أُهبط إلى الأرض، وفيه توفى الله «آدم»، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها ربّه شيئاً، إلّا أعطاه الله إياه، ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة، وفيه: تقوم الساعة، وما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا سماء ولا جبل ولا أرض ولا ریح، إلّا مُشْفِقٌ من يوم الجمعة».

وعن أبي لبابة بن عبد المنذر، أن النبي ﷺ قال: «سيد الأيام يوم الجمعة، وأعظمها وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم النحر؛ وفيه خمس خصال: خلق الله تعالى فيه «آدم»، وأهبطه فيه إلى الأرض، وفيه توفى الله تعالى «آدم»، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد شيئاً إلّا أعطاه إياه ما لم يكن حراماً، وفيه تقوم الساعة؛ ما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا ریح ولا بحر إلّا وهو مُشْفِقٌ من يوم الجمعة، أن تقوم فيه الساعة»^(٢).

وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِقَ «آدم»، وفيه أُسْكِنَ الجنة، وفيه أُهبط، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة - يُقَلَّلُها - وفي رواية ابن كثير: وقبض أصابعه

(١) تاريخ الطبري (١/١١٢).

(٢) تاريخ الطبري (١/١١٣).

يَقْلَلُهَا - لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً، إِلَّا آتَاهُ اللهُ لِيَاةً، فقال عبد الله بن سلام: قد علمتُ أيَّ ساعة هي، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، قال الله ﷻ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿١﴾ [الأنبياء، الآية: ٣٧].

وعن محمد بن سعد، قال: حدثنا هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي، أبي صالح، عن ابن عباس، قال: خرج «آدم» من الجنة بين الصلاتين: صلاة الظهر وصلاة العصر، فأنزل إلى الأرض، وكان مكثه في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة وهو خمسمائة سنة، من يوم كان مقداره اثنتي عشرة ساعة، واليوم ألف سنة مما يَعُدُّ أهل الدنيا، وهذا أيضاً خلاف ما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن السلف من علمائنا (٢).

وأخرج ابن كثير في البداية والنهاية: وروى الحافظ ابن عساكر، عن مجاهد، قال: أمر الله مَلَكَيْنِ أَنْ يَخْرُجَا «آدم» و«حَوَاءَ» من جواره، فنزع «جبريل» التاج عن رأسه، وحلَّ «ميكائيل» الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن، فظن «آدم» أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو العفو، فقال الله: فراراً مني؟ قال: بل حياة منك، يا سيدي!

وقال الأوزاعي، عن حسان - هو ابن عطية -: مكث «آدم» في الجنة مائة عام، وفي رواية: ستين عاماً، وبكى على الجنة سبعين عاماً، وعلى خطيئته سبعين عاماً، وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً. رواه ابن عساكر (٣).

وأمر الله بآدم وحواء ﷺ، فأهبطا من الجنة بعد الخطيئة، قبل غروب شمس يوم الجمعة الذي خلقه فيه، وقد وردت أحاديث عدة في مكان نزولهما، منها:

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أول ما أهبط الله تعالى «آدم» أهبطه بذهننا أرض الهند.

(١) تاريخ الطبري (١/١١٧).

(٢) تاريخ الطبري (١/١٢٠).

(٣) البداية والنهاية (١/٩٠).

وعن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام: أطيب أرض في الأرض ريحاً أرض الهند، أهبط بها «آدم»، فعلق شجرها من ريح الجنة ^(١).

وروى ابن جرير الطبري: حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: حدثنا هشام بن محمد، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: أهبط «آدم» بالهند، و«حَوَاءُ» بِجُدَّة، فجاء في طلبها حتى اجتمعا، فازدلفت إليه «حَوَاءُ»، فلذلك سميت «المزدلفة»، وتعارفا بِـ «عرفات»، فلذلك سميت «عرفات» واجتمعا بِـ «جَمْع»، فلذلك سميت «جمعاً»، قال: وأهبط «آدم» على جبل بالهند يقال له: «بَوَذ».

أما ابن إسحاق فقد قال: وأما أهل التوراة فإنهم قالوا: أُهبط «آدم» بالهند، على جبل يقال له: «واسم» عند وادٍ يقال له: «بهيل» بين الدَّهْنَجِ والمَنْدَلِ: بلدين بأرض الهند، قالوا: وأهبطت «حَوَاءُ» بِجُدَّة من أرض مكة.

وقال آخرون: بل أُهبط «آدم» بِسَرَنْدِيب على جبل يدعى «بَوَذ»، و«حَوَاءُ» بِجُدَّة من أرض مكة، و«إبليس» بِمَيْسَانَ، والحية بأصبهان، وقد قيل: أُهبطت الحية بالبرية، و«إبليس» بساحل بحر الأُبُلَّة.

وهذا مما لا يوصل إلى علم صحته إلا بخبر يجيء مجيء الحجة، ولا يعلم خَبَرٌ في ذلك ورد كذلك، غير ما ورد من خبر هبوط «آدم» بأرض الهند، فإن ذلك مما لا يدفع صحته علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل، والحجة قد ثبتت بأخبار بعض هؤلاء.

ولما ندم «آدم» عليه السلام على خطيئته، وبكى بحرقة مدة سبعين سنة، باء إلى ربه بالتوبة، وناشده المغفرة.

قال أبو جعفر الطبري: فذكر أن «آدم» عليه السلام بكى واشتد بكاءؤه على خطيئته، وندم عليها، وسأل الله تعالى قبول توبته، وغفران خطيئته، فقال في مسأله إياه: ما سأل من ذلك، كما حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن عطية، عن قيس، عن

(١) تاريخ الطبري (١/١٢١).

ابن ليلي، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَلَقَّيْنِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَّ عَلَيْهِ﴾ [البقرة، الآية: ٣٧] قال: أي رب! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب! ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب! ألم تُمَكِّنِي جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب! ألم تسبق رحمك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرايت إن تبئت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال: فهو قوله تعالى: ﴿فَلَقَّيْنِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ [البقرة، الآية: ٣٧] (١).

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية: عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: الكلمات: اللهم! لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم! لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الراحمين، اللهم! لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فنب عليّ إنك أنت التواب الرحيم (٢).

وذكر ابن كثير ما رواه الحاكم، والبيهقي، وابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب! أسألك بحق محمد» أن غفرت لي، فقال الله: فكيف عرفت «محمدًا» ولم أخلقه بعد؟ فقال: يا رب! لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تُضِفْ إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم! إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه، فقد غفرت لك، ولولا «محمد» ما خلقتك».

قال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه، وهو ضعيف والله أعلم (٣).

وقد حاجَّ «موسى» آدم ﷺ، فعَلَبَ «آدم» بحجته، وقد روى أبو سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: حاجَّ «موسى» آدم ﷺ، فقال له: أنت

(١) تاريخ الطبري (١/١٣٢).

(٢) البداية والنهاية (١/٩١).

(٣) البداية والنهاية (١/٩٢).

الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى! أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدّره عليّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله ﷺ: فَحَجَّ «آدم» موسى، رزاه مسلم والنسائي^(١).

وجاء في حديث أبي هريرة المتفق على صحته، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق «آدم» وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»، وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن^(٢).

وأخرج الطبري عن ابن وكيع، قال: حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السدي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف، الآية: ١٧٢]، قال: أخرج الله «آدم» من الجنة، ولم يهبطه من السماء، ثم إنه مسح من «آدم» صفحة ظهره اليمنى، فأخرج منه ذرية كهيئة الذر بيضاً، مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداً، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ثم أخذ الميثاق، فقال: ألسن بربكم؟ قالوا بلى، فأعطاه طائفة طائعين، وطائفة على وجه التقية^(٣).

وكان أهم حدث نكّد على «آدم» و«حَوَاء» حياتهما بعد أن أهبطا إلى الأرض، ذلك الخلاف الذي شَجَرَ بين ابنيهما «قابيل» و«هابيل» والنهاية المحزنة التي انتهى إليها، وقد ذكر العلامة «الآلوسي» في تفسيره الفخيم الموسوم بـ «روح المعاني» قصة ابني «آدم» ﷺ خلال تفسير الآيات المتعلقة بها، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ

(١) البداية والنهاية (٩٢/١).

(٢) البداية والنهاية (١٠٣/١).

(٣) تاريخ الطبري (١٣٦/١).

فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ بِأَعْجَرٍ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢٩﴾ [المائدة، الآيات: ٢٧-٣١] ، وكان من قصتهما ما أخرجه ابن جرير، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة رضي الله عنهم أنه كان لا يولد لآدم عليه السلام مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، جعل افتراق البطون بمنزلة افتراق الجنس للضرورة إذ ذاك حتى ولد له ابنان يقال لهما: «هابيل» و«قابيل». وكان «قابيل» صاحب زرع، و«هابيل» صاحب ضرع، وكان «قابيل» أكبرهما، وكانت له أخت اسمها «إقليميا» أحسن من أخت «هابيل»، وأن «هابيل» طلب أن ينكح أخت «قابيل» فأبى عليه، وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، فأمره أبوه أن يزوجه «هابيل» فأبى، فقال لهما: قَرِّبَا قَرِيبَانَا فَمِنْ أَيْكُمَا قُبِلَ تَزَوُّجُهَا، وإنما أمر بذلك لعلمه أنه لا يقبل من «قابيل» لأنه لو قبل جاز، ثم غاب عليه السلام عنهما آتياً مكة ينظر إليها، فقال «آدم» للسماء: احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال للأرض، فأبت، وقال للجبال، فأبت، فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك، فلما انطلق «آدم» عليه السلام قَرِيبَا قَرِيبَانَا؛ فَقَرَّبَ «هابيل» جَذْعَةً، وقيل: كبشاً، وقَرَّبَ «قابيل» حزمة سنبل، فوجد فيها سنبله عظيمة، ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان «هابيل»، وكان ذلك علامة القبول، وكان أكل القربان غير جائز في الشرع القديم، وتركت قربان «قابيل» فغضب، وقال: لأقتلك، فأجابه بما قص الله تعالى^(١).

يَبْدَأَنَّ «قابيل» خاسََ بعهد أبيه، «آدم» عليه السلام وخَفَرَ بوعده له، ولم يرقب في أخيه إلَّا ولا ذِمَّة. وعلى الرغم من أن «هابيل» كان أقوى بنية من أخيه «قابيل» وأشدَّ بأساً، إلَّا أنه تحرَّج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله تعالى، ولأن الدفاع عن النفس لم يكن جائزاً في الشريعة التي كانت تحكمهم في ذلك الزمان، وقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج، في رواية عن مجاهد، قال: كانت بنو إسرائيل

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي (١١١/٥).

قد كتب عليهم، إذا الرجل بسط يده إلى الرجل، لا يمتنع منه حتى يقتله أو يدعه، أو تحرّياً لما هو الأفضل الأكثر ثواباً، وهو كونه مقتولاً لا قاتلاً بالدفع عن نفسه بناءً على جوازه إذ ذاك.

وقال بعض المحققين: واختلف في هذا - الآن - على ما بسّطه الإمام «الجصاص»، فالصحيح من المذهب أنه يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره، وإن أدى إلى القتل. ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: إن المعنى في الآية: ﴿لَنْ يَنْفَعَكَ﴾ بسطت لك يدك ﴿على سبيل الظلم والابتداء﴾ ﴿لَنْفَعَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة، الآية: ٢٨] على وجه الظلم والابتداء، وتكون الآية على ما قاله مجاهد وابن جريج منسوخة، وهل نسخت قبل شريعتنا أم لا؟ فيه كلام، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَقِيلُوا أَلَمْ يَنْبَغِ حَقٌّ يُقَى﴾ [الحجرات، الآية: ٩] وغيره من الآيات والأحاديث.

وقيل: إنه لا يلزم ذلك بل يجوز، واستدل بما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» عن «حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ» عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر «فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك، فكن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»، وأولوه بترك القتال في الفتنة واجتنابها، وأول الحديث يدل عليه.

وأما من منع ذلك الآن مستدلاً بحديث «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، فقد ردّ بأن المراد به أن يكون كل منهما عَزَمَ على قتل أخيه، وإن لم يقاتله، وتقابلا بهذا القصد، انتهى بزيادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْوَالِدِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٢٨] تعليل عن الامتناع عن بسط يده ليقته، وفيه إرشاد «قابيل» إلى خشية الله تعالى على أتم وجه، وتعرّض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى، وقوله ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة، الآية: ٢٩] تعليل آخر لامتناعه عن البسط، ولما كان كل منهما علة مستقلة لم يعطف أحدهما على الآخر إيذاناً بالاستقلال، ودفعاً لتوهم أن يكون جزء علة لا علة تامّة. وأصل البؤء اللزوم، وفي «النهاية»^(١): أبوء بنعمتك عليّ

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

وأبوء بذنبي: أي: ألزمت وأرجع وأُقرُّ، والمعنى: إني أريد باستلامي وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع بإثمِي، أي: تتحمّله لو بسطتُ يدي إليك حيث كنت السبب له، وأنت الذي علمتني الضرب والقتل، وإثمك حيث بسطت إليّ يدك، وهذا نظير ما أخرجه مسلم، عن أبي هريرة مرفوعاً «المُسْتَبَّانِ ما قالَا فعلى البادىء ما لم يَعتدِ المظلوم» أي على البادىء إثم سبه، ومثل إثم سب صاحبه لأنه كان سبباً فيه، إلّا أنّ الإثم محطوطٌ عن صاحبه معفوٌ عنه لأنه مكافىء دافع عن عرضه، ألا ترى إلى قوله: «ما لم يَعتدِ المظلوم»، لأنه إذا خرج من حد المكافأة واعتدى لم يسلم، كذا في «الكشاف».

قيل: وفيه نظر، لأن حاصل ما قرّره أن على البادىء إثمهُ ومثل إثم صاحبه، إلّا أن يَعتدّى الصاحب فلا يكون هذا المجموع على البادىء، ولا دلالة فيه على أن المظلوم إذا لم يَعتدّ كان إثمهُ المخصوص بسببه ساقطاً عنه، اللهم إلّا بضميمة تنضم إليه، وليس في اللفظ ما يشعر بها. وردّه في الكشف بأنه كيف لا يدل على سقوطه عنه، وقوله عليه الصلاة والسلام «فعلى البادىء» مخصص ظاهر، وقول «الكشاف»: «إلّا أن الإثم محطوط» تفسير لقوله: «فعلى البادىء» وقوله: «فعليه إثم سبه، ومثل إثم سب صاحبه» تفسير لقوله: «ما قالَا» فكما يدل على أن عليه إثمًا مضاعفاً يدل على أن إثم صاحبه ساقط، هذا ثم قال: ولعل الأظهر في الحديث إلّا يضمّر المثل، والمعنى: إثم سبابهما على البادىء، وكان ذلك لثلاث يلتزم الجمع بين الحقيقة والمجاز^(١).

ولما استقر في خلد «قاييل» أن يقتل أخاه، لم يدر كيف ينفذ القتل، فتمثّل له «إبليس» اللعين في هيئة طير، فأخذ طيراً فوضع رأسه بين حجرين، فشدّخه، فعلمه القتل، فقتله كذلك وهو مستسلم، وأخرج عن ابن مسعود، وناس من الصحابة رضي الله عنهم أن «قاييل» طلب أخاه ليقّته فراغ منه في رءوس الجبال، فأثاه يوماً من الأيام، وهو يرعى غنماً له، وهو نائم، فرفع صخرة، فشدّخ بها رأسه، فمات، فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن، إلى أن بعث الله تعالى الغراب، وكان لهايل لما قتل عشرون سنة، واختلف في موضع قتله، فعن عمرو الشعباني، عن

(١) انظر روح المعاني (٥/١١٢، ١١٣).

كعب الأحبار: أنه قتل على جبل دير المران. وفي رواية عنه: أنه قتل على جبل قاسيون، وقيل: عند عقبة حراء، وقيل: بالبصرة في موضع المجد الأعظم.

وأخرج نعيم بن حماد، عن عبد الرحمن بن فضالة: أنه لما قُتِلَ «قَابِيلُ»، «هابيلُ»، مسخ الله تعالى عقله، وخلع فؤاده، فلم يزل تائهاً حتى مات، وروي أنه لما قتله اسودَّ جسده وكان أبيض، فسأله «آدم» عن أخيه، فقال: ما كنتُ عليه وكيلاً، قال: بل قتلتهُ ولذلك اسودَّ جسدُك.

وأخرج ابن عساكر، وابن جرير، عن سالم بن أبي الجعد، قال: إن «آدم» ﷺ لما قُتِلَ أحدُ ابنيه الآخر، مكث مائة عام لا يضحك حزناً عليه، فأتى على رأس المائة، فقيل له: حَيَّاكَ اللهُ تعالى وبيَّاكَ، ويُسَّرُ بغيَلام، فعند ذلك ضحك، وذكر «محيي السنة» أنه عليه السلام ولد له بعد قتل ولده بخمسين سنة «نُصَيْت» ﷺ، وتفسيره - هبة الله - يعني أنه خلف من «هابيل»، وعلمه الله تعالى ساعات الليل والنهار، وعبادة الخلق من كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وصار وصيَّ «آدم» ووليَّ عهده.

وأخرج ابن جرير عن عليّ - كرم الله وجهه - قال: لما قُتِلَ ابنُ «آدم» ﷺ أخاه بكى «آدم» ﷺ، ورثاه بشعر، وأخرج نحو ذلك الخطيب وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو مشهور^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: وذكر أهل التواريخ والسير، أن «آدم» حزن على ابنه «هابيل» حزناً شديداً، وأنه قال في ذلك شعراً، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد، ونظراً للخطأ الواقع في الأبيات التي رواها ابن كثير، فقد رجعت إلى تاريخ ابن جرير الذي نقل عنه الشعر، يقول ابن جرير الطبري: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمداني، قال: قال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: لما قُتِلَ ابنُ «آدم» بكاه «آدم» فقال:

تَغَيَّرَ الْبِلَادُ وَمِنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبَرَّ قَبِيحُ

(١) «روح المعاني» (٥/١١٤، ١١٥).

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَقُلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ^(١)
قال: فأجيب «آدم» ﷺ:

أبا هابيلَ قد قُتِلَ جميعاً وصار الحيُّ كالْمَيْتِ الذَّبِيحِ^(١)
وجاء بِشُرَّةٍ قد كان منها على خوفٍ فجاء بها يصبحُ^(٢)
وقال ابن كثير: وهذا الشعر فيه نظر، وقد يكون «آدم» ﷺ قال كلاماً
يَتَحَزَّنُ به بلغته، فالفه بعضهم إلى هذا، وفيه أقوال والله أعلم.

وقد ذكر مجاهد أن «قابيل» عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلفت ساقه إلى
فخذيه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به، وتعجيلاً لذنبه وبَغْيِهِ،
وحسده لأخيه لأبويه، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من
ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من
البنغي وقطيعة الرحم».

وأخرج «الآلوسي» في تفسيره، عن ميمون بن مهران، عن الحَبَرِ ﷺ أنه
قال: من قال: إن «آدم» ﷺ قال شعراً فقد كذب، «إنَّ «محمداً» ﷺ، والأنبياء
كلهم - عليهم الصلاة والسلام - في النهي عن الشعر سواء، ولكن لما قُتِلَ
«قابيل»، «هابيل» رثاه «آدم» بالسرياني، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى «يعرب بن
قحطان»، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، فنظر فيه فقدم وأخر، وجعله شعراً
عريباً، وذكر بعض علماء العربية أن في ذلك الشعر لحناً أو إقواء، أو ارتكاب
ضرورة، والأولى عدم نسبته إلى «يعرب» أيضاً لما فيه من الركافة الظاهرة^(٣).

وقضي الأمر الذي وُطِنَ «قابيل» نفسه عليه، من قتل أخيه، غير أنه وجد
نفسه تُجَاهَ ورطة لا يعرف كيف يتخلص منها، بعد أن أصبح من الخاسرين، دنيا
وآخرة، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ، قال رسول الله ﷺ:
«لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمه، لأنه أول من سنَّ
القتل».

(١) في هذين البيتين إقواء.

(٢) تاريخ الطبري (١/١٤٥).

(٣) روح المعاني (٥/١١٥).

وأخرج ابن جرير والبيهقي في «شعب الإيمان». وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة، العذاب عليه شطر عذابهم»، وورد أنه أحد الأشقياء الثلاثة، وهذا ونحوه صريح في أن الرجل مات كافراً.

وأصرح من ذلك ما روي أنه لما قتل أخاه، هرب إلى «عدن» من أرض اليمن، فأتاه «إبليس» عليه اللعنة، فقال: إنما أكلت النار قرباناً «هابيل» لأنه كان يخدمها ويعبدها، فإن عبدها أيضاً حصل مقصودك، فبنى بيت نار فعبدها، فهو أول من عبد النار، والظاهر أن عليه أيضاً وَزْرٌ من يعبد النار، بل لا يبعد أن يكون عليه وَزْرٌ من يعبد غير الله تعالى إلى يوم القيامة، واستدل بعضهم بقوله سبحانه: ﴿فَأَصْحَبْ﴾ [المائدة، الآية: ٣٠] على أن القتل وقع ليلاً - وليس بشيء - ، فإن من عادة العرب أن يقولوا: أصبح فلان خاسر الصفقة إذا فعل أمراً ثمرته الخسران، ويعنون بذلك الحصول مع قطع النظر عن وقت دون وقت، وإنما لم يقل سبحانه - فأصبح خاسراً - للمبالغة، وإن لم يكن حينئذ خاسر سواه.

وقضت إرادة الله أن يكرم الموتى بدفنهم وعدم تركهم في العراء، عرضة للتفسخ بفعل حرارة الشمس وغيرها من عوامل الطبيعة، أو العبث بها من قبل الوحوش والتفؤت بها، فأرسل جل شأنه إلى «قابيل» غراباً ليعلمه كيف يدفن أخاه.

أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن عطية، قال: لما قتله ندم، فضمه إليه حتى أَرْوَحَ^(١) وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله، وكره أن يأتي به «آدم» عليه السلام فيحزنه، وتحير في أمره، إذ كان أول ميت من بني «آدم» عليه السلام، فبعث الله تعالى غرابين قتل أحدهما الآخر، وهو ينظر إليه، ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة، ثم بحث عليه برجله حتى واره، وقيل: إن أحد الغرابين كان ميتاً.

وذهب أكثر العلماء إلى أن الباحث - أي: الذي حفر الحفرة في الأرض - وارى جثته، وتعلم «قابيل»، ففعل مثل ذلك بأخيه، وروي ذلك عن ابن

(١) أَرْوَحَ: انتن.

عباس عليه السلام، وابن مسعود، وغيرهما، وذهب الأصم إلى أن الله تعالى بعث من بعثه فبحث في الأرض، ووارى «هابيل».

فلما رأى «قابيل» ما أكرم الله تعالى به أخاه ﴿قَالَ يَوَيْلَیَّ﴾ [المائدة، الآية: ٣١] كلمة جزع وتحسر، والويلة كالويل: الهلكة كأن المتحسر ينادي هلاكه وموته ويطلب حضوره بعد تنزيله منزلة من ينادي، ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان في حال أشد منه، والألف بدلاً من ياء المتكلم، أي - يا ويلتي - ، وبذلك قرأ «الحسن»: احضري فهذا أوانك، ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى سَوَاءً أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّكِدِينَ﴾ [المائدة، الآية: ٣١] أي: صار معدوداً من عدادهم، وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره، وحمله على رقبته أربعين يوماً، أو سنة، أو أكثر على ما قيل، وتلمذة الغراب فإنها إهانة، ولذا لم يُلْهِم من أول الأمر ما أُلْهِم، واسوداد وجهه، وتبرئ أبويه منه^(١).

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة أن الله ﷻ أَجَلَهُ وَأَنْظَرَهُ، وأنه سكن في أرض «نود» في شرقي «عدن»، وهم يسمونه «قنين»، وأنه ولد له «خنوخ»، ولخنوخ «عندر»، ولعندر «محوایل»، ولمحوایل «متوشيل»، ولمتوشيل «لامك»، وتزوج هذا امرأتين: «عَدَا» و«صَلَا»، فولدت «عَدَا» ولداً اسمه «إبل»، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضاً «نوبل» وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج، وولدت «صَلَا» ولداً اسمه «توبلقين» وهو أول من صنَّع النحاس والحديد، وبتت اسمها «نعمى».

وفيها أيضاً أن «آدم» طاف على امرأته فولدت غلاماً ودعت اسمه «شيت» وقالت: من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من «هابيل» الذي قتله «قابيل»، وولد لشيت «أنوش»، قالوا: وكان عمر «آدم» يوم ولد له «شيت» مائة وثلاثين سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وكان عمر «شيت» يوم ولد له «أنوش» مائة وخمسة وستين، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين، وولد له بنون وبنات غير «أنوش» فولد لأنوش «قينان» وله من العمر تسعون سنة، وعاش بعد ذلك ثمانمائة

(١) روح المعاني (١/ ١١٥، ١١٧).

سنة وخمسة عشرة سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان عمر «قينان» سبعين سنة ولد له «مهلاييل» وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وأربعين سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له «يرد»، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان ليرد مائة سنة واثنان وستون سنة ولد له «خنوخ»، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له «مْتُوشلخ»، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان لمْتُوشلخ مائة وسبع وثمانون سنة ولد له «لامك»، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان للامك من العمر مائة واثنان وثمانون سنة ولد له «نوح»، وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة، وولد له بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة، ولد له بنون «سام» و«حام» و«يافت»، هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً.

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر، كما ذكره غير واحد من العلماء، طاعنين عليهم في ذلك، والظاهر أنها مقحمة فيها، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير، وفيها غلط كثير^(١).

وذكر ابن جرير في تاريخه: أن «حَوَاءَ» ولدت لأدم ﷺ عشرين ومائة بطن، أولهم «قابيل» وتوأمته «قليما»، وآخرهم «عبد المغيث» وتوأمته «أمة المغيث»، وأما ابن إسحاق فذكر عنه، أن جميع ما ولدته «حَوَاءَ» لصلبه أربعون من ذكر وأنثى، في عشرين بطناً، وقال: قد بلغنا أسماء بعضهم ولم يبلغنا بعض.

وتابع ابن جرير القول: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: فكان من بلغنا اسمه خمسة عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم «قين» وتوأمته، و«هابيل» و«ليوذا»، و«أشوت بنت آدم» وتوأمها، و«شيت» وتوأمته، و«خرورة» وتوأمها، على ثلاثين ومائة سنة من عمره، ثم «أياد بن آدم» وتوأمته، ثم «بالغ بن » وتوأمته، ثم «أثاني بن آدم» وتوأمته، ثم «توبة بن آدم» وتوأمته، ثم «بنان بن » وتوأمته، ثم «شبوابة بن » وتوأمته، ثم «حيان بن آدم»

(١) البداية والنهاية (١/١٠٧).

وتوأمته، ثم «ضرابيس بن آدم» وتوأمته، ثم «هذر بن آدم» وتوأمته، ثم «يحدود بن آدم» وتوأمته، ثم «سندل بن آدم» وتوأمته، ثم «بارق بن آدم» وتوأمته، كل رجل منهم تولد معه امرأة في بطنه الذي يُحْمَلُ به فيه.

وقد زعم أكثر علماء الفرس أن «جِيَوْمَرْت» هو «آدم»، وزعم بعضهم أنه ابن «آدم» لِصُلْبِهِ مِنْ «حَوَاء».

وقال فيه غيرهم أقوالاً كثيرة^(١).

وأخرج الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقد ذكر أهل التاريخ: أن «آدم» ﷺ لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٨﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف، الآيتان: ١٨٩، ١٩٠].

فهذا تنبيه أولاً بذكر «آدم»، ثم استطرد إلى الجنس، وليس المراد بهذا ذكر «آدم» و«حَوَاء» بل لما جرى ذكر الشخص استطرد إلى الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣١﴾﴾ [المؤمنون، الآيتان: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥٠﴾﴾ [الملك، الآية: ٥]، ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها^(٢).

ثم أردف ابن كثير: فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد، حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن، عن سُمُرَةَ، عن النبي ﷺ، قال: «لما ولدت «حَوَاء» طاف بها «إبليس» وكان لا يعيش لها ولد،

(١) تاريخ الطبري (١/١٤٥، ١٤٦).

(٢) البداية والنهاية (١/١٠٧، ١٠٨).

فقال: سميه «عبد الحارث» فإنه يعيش، فسمّته «عبد الحارث»، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره.

وهكذا رواه الترمذي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية، وأخرجه الحاكم في مستدركه، كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم، عن عبد الصمد، ولم يرفعه، فهذه علة قاذحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس، والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار ودوّنه، والله أعلم.

وقد فسّر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سُمُرَة مرفوعاً لما عدّل عنه إلى غيره، والله أعلم.

وأيضاً، فالله تعالى إنما خلق «وَحَوَاءَ» ليكونا أصل البشر، وليبُتَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكيف كانت «حَوَاءُ» لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً؟ والمظنون بل المقطوع به أن يرفعه إلى النبي ﷺ خطأ، والصواب وقفه، والله أعلم، وقد حرّرنا هذا في كتابنا التفسير، والله الحمد^(١).

وجاء في حديث القاسم بن محمد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده، فجلت إليه، فقال لي: «يا أبا ذر! إن للمسجد تحية وإن تحبته ركعتان، فقم فاركعهما»، فلما ركعتهما جلست إليه، فقلت: يا رسول الله! إنك أمرتني بالصلاة، فما الصلاة؟ قال: «خير موضوع، استكثِرْ أو استَقِلَّ»، ثم ذكر قصة طويلة، قال فيها: قلت: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قال: قلت: يا رسول الله! كم المرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جَمًّا غفيراً» يعني: كثيراً طيباً، قال: قلت: يا رسول الله! من كان أولهم؟ قال: «آدم» قال:

قلت: يا رسول الله! وآدم نبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سَوَّاهُ قُبْلًا» أي: عِيَانًا^(١).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بآدم وهو في السماء الدنيا، قال له: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»، قال: وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، فقلت: يا جبريل! من هذا؟ قال: هذا «آدم»، وهذا نَسَمُ بنيه، فإذا نظر قِبَلَ أهل اليمين، وهم أهل الجنة، ضحك، وإذا نظر قِبَلَ أهل الشمال، وهم أهل النار، بكى^(٢).

وأما عن عمر «آدم» ﷺ فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، في قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١٧٢]، قال: أخرج ذريته من ظهره في صورة كهية الذر، فعرضهم على «آدم» بأسمائهم وأسماء آبائهم وأجالهم، قال: فعرض عليه روح «داود» في نور ساطع فقال: من هذا؟ قال: هذا من ذريتك، نبي خلقته، قال: كم عمره؟ قال: ستون سنة، قال: زيدوه من عمري أربعين سنة، قال: والأقلام رطبة تجري، وأثبتت لداود ﷺ الأربعون، وكان عمر «آدم» ألف سنة، فلما استكملها إلّا الأربعون سنة بعث إليه ملك الموت، قال: يا آدم! أمرت أن أقبضك، قال: ألم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: فرجع ملك الموت إلى ربه ﷻ، فقال: إن «آدم» يدّعي من عمره أربعين سنة، قال: أَخْبِرْ «آدم» أنه جعلها لابنه «داود»، والأقلام رطبة، وأثبتت لداود الأربعين.

ويزعم أهل التوراة أن عمر «آدم» ﷺ كله كان تسعمائة سنة وثلاثين سنة^(٣).

وعن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن الحسن، عن النبي ﷺ، قال:

(١) تاريخ الطبري (١/١٥١).

(٢) البداية والنهاية (١/١٠٩).

(٣) تاريخ الطبري (١/١٥١).

لما توفي «آدم» غسلته الملائكة بالماء وترأ، وألحدوا له - أي: عملوا له لحداً، وهو القبر - وقالت: هذه سنة «آدم» في ولده.

وروى سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن ذكوان، عن الحسن بن أبي الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان طَوَّالاً كالنخلة السحوق، ستين ذراعاً، كثير الشعر، مُوَارَى العورة، وأنه لما أصاب الخطيئة بدت له سواته، فخرج هارباً في الجنة فتلفتة شجرة، فأخذت بناصيته، وناداه ربه: أفراراً مني؟ يا آدم! قال: لا والله، يا رب! ولكن حياء منك مما قد جنيت. فأهبطه الله إلى الأرض، فلما حضرته الوفاة بعث الله إليه بحنوطه - وهو كل طيب يخلط للميت - وكفنه من الجنة، فلما رأت «حَوَاءُ» الملائكة، ذهبت لتدخل دونهم إليه، فقال: خَلِّيْ عني وعن رسل ربي، فإنني ما لقيتُ ما لقيتُ إلا منك، ولا أصابني ما أصابني إلا منك.

فلما قُبِضَ غَسَّلُوهُ بالسُّدْر والماء وترأ، وكَفَّنُوهُ في وتر من الثياب، ثم لحدوا له فدفنوه، ثم قالوا: هذه سنة ولد «آدم» بعده^(١).

وعن الحارث بن محمد، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرني هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما مات «آدم» ﷺ قال «شيت» لجبرائيل - صلى الله عليهما -: صَلِّ عَلَى «آدم»، قال: تقدم أنت فصلِّ على أبيك، وكَبَّرَ عليه ثلاثين تكبيرة، فأما خمس فهي الصلاة، وأما خمس وعشرون فتفضيلاً لآدم ﷺ.

وقد اختلف في موضع قبر «آدم» ﷺ ف قيل: دفن بمكة في غار «أبي قُبَيْس»، وهو غار يقال له: غار الكنز، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما خرج «نوح» من السفينة، دَفَنَ «آدم» ﷺ ببيت المقدس.

وروي عن ابن عباس، ما حَدَّثَ به الحارث، قال: حدثنا ابن سعيد، قال: أخبرني هشام بن محمد، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: مات «آدم» ﷺ - على بَوْذ - قال أبو جعفر يعني الجبل الذي أهبط عليه

(١) تاريخ الطبري (١/١٦٠).

وذكر أن «حَوَّاء» عاشت بعده سنة، ثم ماتت رحمهما الله، فدفنت مع زوجها في الغار الذي ذكرت، وأنهما لم يزالا مدفونين في ذلك المكان، حتى كان الطوفان، فاستخرجهما «نوح» وجعلهما في تابوت، ثم حملهما معه في السفينة.

فلما غاضت الأرض الماء رَدَّهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطوفان، وكانت «حَوَّاء» قد غَزَلَتْ - فيما ذكر - ونسجت، وعجنت، وخبزت، وعملت أعمال النساء كلها^(١). رحم الله أم البشر «حَوَّاء»، ورحم الله «آدم» أول الأنبياء.

(١) تاريخ الطبري (١/١٦١).

٢ - وَالْعَةِ امْرَأَةُ نُوحَ ﷺ

كان «نوح» ﷺ ثمرة زواج «لامك بن مَتُوشَلَخَ بن أخنوخ» من امرأة تدعى «بتنوس ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم» ﷺ. ولما بلغ «نوح» من العمر خمسمائة سنة نكح «عمذرة ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم» فولدت له بنيه: «سام» و«حام» و«يافث»^(١).

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا الحارث قال: حدثنا ابن سعد، قال: حدثني هشام، قال: أخبرني أبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: وَلَدَ «مَتُوشَلَخَ» لامك ونفراً معه، وإليه الوصية، فَوَلَدَ «لامك» «نوحاً»، وكان للامك يوم ولد «نوح» اثنتان وثمانون سنة، ولم يكن أحد في ذلك الزمان ينهى عن منكر، فبعث الله إليهم «نوحاً»، وهو ابن أربعمائة سنة وثمانين سنة، ثم دعاهم في نبوته مائة وعشرين سنة، ثم أمره بصنع السفينة، فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، وغرق من غرق، ثم مكث بعد السفينة ثلاثمائة سنة وخمسين سنة^(٢).

ولما أجمع قوم «نوح» ﷺ على ركوب الفواحش، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله تعالى، أرسل الله إليهم نبيّه «نوحاً» ﷺ ليخرجهم من ظلمات الضلالة والغواية إلى أنوار التوحيد والهداية، ويحثهم على عبادة الله وحده، ولكن كان في آذان القوم وقراً عمّا دعاهم «نوح» ﷺ إليه، وعلى أعينهم غشاوة، وفي قلوبهم عمى، فَأَنَّى يهتدون؟ وكيف يجيبون داعي الله وهم في غفلتهم وغيهم سادرون؟ ولقد لقي «نوح» ﷺ من قومه العنت الشديد، والسخرية المريرة، والآلام الكثيرة، حتى أنهم لم يتورعوا عن ضربه وإلحاق أشد الأذى به، وإدخال الأسى إلى قلبه.

(١) يافث: بكسر الفاء كصاحب.

(٢) تاريخ الطبري (١/ ١٧٤).

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية قصة «نوح» ﷺ فقال: واختلفوا في مقدار سنه يوم بُعِثَ، ف قيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة، وقيل: ابن أربع مائة وثمانين سنة، حكاه ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز، ففي الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنين، والشعراء، والعنكبوت، والصفات، واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة^(١).

ولعل تكرار الإشارة في هذه السور كلها إلى قصة «نوح» ﷺ مع قومه إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على أهمية دعوة هذا النبي الكريم وشدة ما لقي من جحود قومه وبغيهم عليه، والإساءة إليه، ورفضهم للخير الذي جاءهم به، وغُلُوهم في الكفر والفسوق والعصيان، وإنكارهم لفاطر الأكوان، وآلائه التي يعجز عن حصرها أهل الحساب والبيان.

ولئن سبَّب رفض دعوة «نوح» ﷺ له الكثير من الآلام، من قبل قومه، فإن ألمه الأعظم، وحزنه الأكبر نجم عن معارضة امرأته وولده له، وتكذيبهما لدعوته، وانحيازهما للمكذبين، ووقوفهما في صف المعادين، متجاهلين أن أولى الناس بتصديق المرء هم أهله وذوو قرابته، ولا سيما حين يدعوهم إلى الحق، ويرجو لهم الخير العميم، ولكن ما يملك لهم «نوح» ﷺ إذا كان الله قد كتب لهما الشقاء، وجعلهما في عداد الأعداء؟

قال تعالى في تنزيله العزيز: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ۝ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ ۝ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَقُوا وَاطِيعُونَ ٣ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنِ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٦ ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِي مَآذِنِهِمْ وَاسْتَفْتَنُوا بَيْنَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا

(١) البداية والنهاية (١/١١٣، ١١٤).

اسْتَجَبَاكَ ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ
 اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ
 وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾
 أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾
 وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُنَاءًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
 الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي عَصَاكَ وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ
 يَزِدَّهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كِبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ
 وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾
 مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرِقُوا فَأَذِلُّوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا
 تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِبَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
 كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
 الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴿نوح، الآيات: ١-٢٨﴾ .

جاء في روح المعاني للعلامة الآلوسي عند تفسيره لهذه السورة ما رواه
 الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً، قال: إن الله تعالى يدعو «نوحاً» وقومه يوم القيامة
 أول الناس، فيقول: ماذا أجبتكم «نوحاً»؟ فيقولون: ما دعانا، وما بلغنا، ولا
 نصحنا، ولا أمرنا، ولا نهانا، فيقول: «نوح» ﷺ: دعوتهم يا رب دعاء فاشياً
 في الأولين والآخرين، أمة بعد أمة، حتى انتهى إلى خاتم النبيين «أحمد» ﷺ،
 فانتسخه، وقرأه، وآمن به، وصدقه، فيقول الله ﷻ للملائكة ﷻ: ادعوا «أحمد»
 وأمته، فيدعونهم، فيأتي رسول الله ﷺ وأمته، يسعى نورهم بين أيديهم، فيقول
 «نوح» ﷺ لمحمد ﷺ وأمته: هل تعلمون أنني بلغت قومي الرسالة، واجتهدت
 لهم بالنصيحة، وجهدت أن أستنقذهم من النار سراً وجهاراً، فلم يزدهم دعائي
 إلا فراراً؟ فيقول رسول الله ﷺ وأمته: فإننا نشهد بما أنشدتنا أنك في جميع ما
 قلت من الصادقين، فيقول «نوح» ﷺ: وأنى علمت هذا أنت وأمتك، ونحن
 أول الأمم، وأنت آخر الأمم؟ فيقول رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم،
 إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، حتى يختم السورة، فإذا ختمها قالت أمته: نشهد إن
 هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم،
 فيقول الله ﷻ عند ذلك: امتازوا اليوم أيها المجرمون.

ثم يبدأ «الآلوسي» رحمه الله بتفسير السورة فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [نوح، الآية: ١] هو اسم أعجمي، زاد «الجواليقي» معرب، و«الكرماني» معناه بالمريانية: الساكن، وصُرف لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه، وليس بعربي أصلاً، وقول الحاكم في المستدرک: إنما سمي «نوحاً» لكثرة نوحه وبكائه على نفسه، واسمه «عبد الغفار» لا أظنه يصح، وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قدراً فبصق عليه، فأنطقه الله تعالى، فقال: أتعينني أم تعيب خالقي؟ فندم وناح لذلك، والمشهور أنه عليه السلام ابن لَمَك بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ابن مَثُوسَلَخ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة ابن خَنُوخ بفتح الخاء المعجمة وضم النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع أخنوخ بهمزة أوله، وهو «إدريس» عليه السلام ابن يَزْد بمثناة من تحت مفتوحة، ثم راء ساكنة مهملة، ابن مهلايل بن قينان بن أنوش بالنون والشين المعجمة ابن شيت بن آدم عليه السلام وهذا يدل على أنه عليه السلام بعد «إدريس» عليه السلام.

وفي المستدرک أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم على أنه قبل «إدريس» وفيه عن ابن عباس: كان بين «آدم» و«نوح» عليه السلام عشرة قرون، وفيه أيضاً مرفوعاً: بعث الله تعالى «نوحاً» لأربعين سنة فلبث في قومه ألف سنة، إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا.

وذكر ابن جرير أن مولده كان بعد وفاة «آدم» عليه السلام بمائة وستة وعشرين عاماً، وفي التهذيب للنووي رحمه الله أنه أطول الأنبياء عليه السلام عمراً، وقيل: إنه أطول الناس مطلقاً عمراً، فقد عاش على ما قال «شداد»: ألفاً وأربعمائة وثمانين سنة، ولم يسمع عن أحد أنه عاش كذلك، يعني بالاتفاق، لثلا يرد «الخضر» عليه السلام، وقد يجاب بغير ذلك، وهو على ما قيل: أول من شرعت له الشرائع، وسُنَّت له السنن، وأول رسول أنذَرَ على الشرك وأهلكت أمته، والحق أن «آدم» عليه السلام كان رسولاً قبله، أرسل إلى زوجته «حواء»، ثم إلى بنيه، وكان في شريعته ما نسخ بشريعة «نوح» في قول، وفي آخر: لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان، ويقال لنوح عليه السلام: شيخ المرسلين، وآدم الثاني، وكان دقيق الوجه، في رأسه طول، عظيم العينين، غليظ العضدين، كثير لحم الفخذين، ضخمة الشرة، طويل اللحية والقامة، جسيماً.

واختلف في مكان قبره، فقيل: بمسجد الكوفة، وقيل: بالجبل الأحمر، وقيل: بذيل جبل لبنان بمدينة الكرك، وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يخفى من الاعتناء بأمر إرساله ﷺ ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح، الآية: ١] قيل: هم سكان جزيرة العرب ومن قَرَّبَ منهم، لا أهل الأرض كافة، لاختصاص نبينا ﷺ بعموم البعثة من بين المرسلين ﷺ، وما كان لنوح بعد قصة الغرق على القول بعمومه أمر اتفاقي، واشتهر أنه ﷺ كان يسكن أرض الكوفة، وهناك أُرْسِلَ، ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ [نوح، الآية: ١] أي: أنذر قومك على أن تفسيرية لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محل للجملة من الإعراب، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح، الآية: ١] عاجل، وهو ما حَلَّ بهم من الطوفان، كما قال الكلبي، أو آجل، وهو عذاب النار، كما قال ابن عباس، ﴿قَالَ يَتَوَارَى إِلَى الْكَوْكِ يُنْذِرُ مَثِيئًا﴾ [نوح، الآية: ٢] منذر موضح لحقيقة الأمر ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْفُسُهُمْ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح، الآية: ٣] يَنْفِرُ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح، الآية: ٣] على معنى أنه سبحانه يستدثمهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم إحساناً منه ﷻ وتفضلاً، ويجوز أن يكون من جانبهم على معنى أول ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرة ذنوبهم، وليس بذلك.

ولما يئس «نوح» ﷺ من إجابتهم دعوته إلى الإيمان والطاعة ليلاً ونهاراً من غير فتور ولا توان، ولم يلق لديهم أذنأ صاغية، ناجى ربه، وشكى له أن قومه كلما دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ليغفر لهم ذنوبهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وسدوا مسامعهم عن استماع الدعوة وبالغوا في التغطي بشياهم لئلا يروا «نوحاً» كراهة النظر إليه من فرط كراهة ما يدعوهم إليه، وأصروا على استكبارهم وإعراضهم. ثم إن «نوحاً» ﷺ دعا قومه إلى النظر في آيات الله التي تملأ الأفاق، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح، الآية: ١٥] ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح، الآية: ١٦] ﴿وَاللَّهُ أَنْتَبَهُ مِنَ الْأَرْضِ نَازِلًا﴾ [نوح، الآية: ١٧] أي: أنشأكم وأوجدكم ﴿ثُمَّ يُبْدِئُ فِيهَا﴾ [نوح، الآية: ١٨] أي: بالدفن عند قومكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح، الآية: ١٨] أي: يوم البعث والحشر، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح، الآية: ١٩] ﴿لَسْتُمْ لَهَا سَبِيلًا فَجَا بِهَا﴾ [نوح، الآية: ٢٠] لقد مد لكم الأرض كالسباط، وجعل لكم فيها طرقاً واسعة لتسلكوا فيها كما تشاؤون، لكن كل ما

قاله «نوح» ﷺ لم يُغْنِ شيئاً، فلجأ إلى ربه ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَجَّيْتُكَ وَآلِيَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [نوح، الآية: ٢١، ٢٢] واستمروا على اتباع رؤسائهم من الضلال ممن أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فزادهم ذلك خساراً في آخرتهم، وبلغوا في مكرهم أقصى غاية ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح، الآية: ٢٣] إنها الآلهة التي كان قوم «نوح» ﷺ يعبدونها من دون الله تعالى شأنه، التي أضلت الكثيرين واستحقوا بعبادتهم لها دخول النار، ولم يجدوا لهم من دون الله من ينصرهم ويشد أزهرهم، ولما بلغ اليأس من «نوح» مداه، لم يجد بداً من الدعاء على قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، الآية: ٢٤] إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَجْعَلْ لِي ظَلِيلًا﴾ [نوح، الآيات: ٢٦-٢٨]، ودعا «نوح» ﷺ ربه أن يهلك الكفرة والظالمين، وأن يغفر للمؤمنات والمؤمنين، إلى يوم الدين. وقد خصت تلك الأصنام الخمسة بالذكر لأنها كانت أكبر أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة، التي عبدوها من دون الله، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب^(١).

وقد أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم «نوح» ﷺ في العرب بعد، أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطفان عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، وكانت هذه الأسماء أسماء رجال صالحين من قوم «نوح»، فلما هلكوا أوحى الشيطان إليهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ودرس العلم عبت.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة، عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: كان لآدم ﷺ خمسة بنين «ود» و«سواع» إلخ... فكانوا عبّاداً، فمات رجل منهم، فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان فقال: حزنتم على صاحبكم هذا؟

(١) روح المعاني (٢٩/٦٧، ٨١) بتصرف بسيط.

قالوا: نعم، قال: هل لكم أن أصور لكم مثله في قبلكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئاً نصلي عليه، قال: فأجعله في مؤخر المسجد، قالوا: نعم، فصوره لهم، حتى مات خمستهم فصور صورهم في مؤخر المسجد، فنقصت الأشياء حتى تركوا عبادة الله تعالى، وعبدوا هؤلاء، فبعث الله تعالى «نوحاً» ﷺ، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك عبادتها، فقالوا ما قالوا.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عروة بن الزبير أن «وذا» كان أكثرهم وأبرهم، وكانوا كلهم أبناء «آدم» ﷺ وروي أن «وذا» أول معبود من دون الله ﷻ.

أخرج عبد بن حميد، عن أبي مطهر، قال: ذكروا عند أبي جعفر ﷺ «يزيد بن المهلب» فقال: أما إنه قُتِلَ في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى، ثم ذكر «وذا» وقال: كان رجلاً مسلماً، وكان محبباً في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى «إيليس» جزعهم تشبه في صورة إنسان، ثم قال: أرى جزعكم على هذا فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديتكم، فتذكرونه به؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، ووضعوه في ناديتهم فجعلوا يذكرونه به، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل لكم في منزل كل رجل منكم تمثالاً مثله، فيكون في بيته فيذكر به؟ فقالوا: نعم، ففعل، فأقبلوا يذكرونه به، وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى، فكان أول من عبد غير الله تعالى في الأرض وذاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره، عن أبي عثمان النهدي أنه قال رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جمل أجرد ويسرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل، فينزلون حوله، ويضربون عليه بناء^(١).

وأصرَّ قوم «نوح» ﷺ على كفرهم، ونبذهم لدعوته قال لهم «نوح» ﷺ

﴿يَقُولُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِنَّمَا بَعَثَ اللَّهُ مَعِيَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ لَكَ فِي الْغُلَاكِ وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس، الآيات: ٧١-٧٣] . واحتج قوم «نوح» ﷺ المعارضون لدعوته والكافرون بما جاءهم به، أنهم لم يستجيبوا له لأنه ليس إلا بشراً مثلهم ولا يمتاز عنهم بشيء، وأن من اتبعوه ليسوا من عليه قومه وأشرافهم وإنما هم بعض السفهاء والأراذل، وليس بوسع الأشراف أن يتبعوا ما اتبعه الأراذل، وأن يكونوا نظراء لهم في الملة التي ارتضوها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا زَرْنَاكَ أَبْعَدَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا زَرْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [هُود، الآيات: ٢٥-٢٧] .

لقد بين لهم «نوح» ﷺ أنه إنما جاء لينقذهم من وهدة الكفر التي سقطوا فيها ويجنبهم عذاب الله الأليم، وسخطه العظيم، والمصير الوخيم، الذي ينتظرهم إن لم يهجروا ما هم عليه من الكفر والضلال، فماذا كان جواب قومه على دعوته الخيرة؟.

إنه رد المتكبرين المعاندين المصيرين على ضلالهم المبين، قالوا له ﴿وَمَا زَرْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هُود، الآية: ٢٧] ليس فيك مزية تفضلك علينا وتخصك بالنبوة من دوننا، ولو كانت لك تلك المزية لما خفيت علينا، ثم إننا قد وجدنا أن الذين اتبعوك ليس فيهم أحد من الأشراف ﴿وَمَا زَرْنَاكَ أَبْعَدَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا زَرْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هُود، الآية: ٢٧] . وكانت تهمة الكذب سائدة في تلك العصور، فكلما جاء رسول يدعو قومه إلى عبادة الله وحده نسبوا إليه الكذب، واتهموه بالتنكر لدين آبائهم، وقاوموه بكل الوسائل المتاحة، وربما تخلصوا منه بإخراجه من بين أظهرهم، أو بقتله.

﴿قَالَ يَتَقَوُّوْا أَرْوَاحَكُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَوُّوْا مِنْ رَبِّي وَاللَّيْلِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَمُعِيتٌ عَلَيْكُمْ أَنْزِلَكُمْ كُفْرًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [هود، الآية: ٢٨] ، إن كانت لي حجة قوية تشهد بصحة ما دعوتكم إليه ، وقد خفيت عليكم ، ونبت عنها أفهامكم فكيف ألزمتكم بالاهتداء إليها ، وأنتم لها كارهون مبغضون أن تختاروها وتأملوها فيها ، ثم إنني لا أطلبكم بأجر لقاء ما أدعوكم إليه من الهداية لأن أجري محتسب عند الله تعالى ، كما أنني لا يسعني طرد من تبغني من المؤمنين الفقراء لأن حسابهم وأجرهم على الله لا عليّ ، فكيف تسألوني أن أطردهم ، وهم سيخاصمون طاردهم عنده وعندك أنال نصيبي من العقاب ، إذا طردتهم إرضاء لكم ﴿وَيَقَوُّوْا لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آخِرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبَّهُمْ وَلَكِنَّ آخِرَكُمْ قَوْمًا تَجَاهَلُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ [هود، الآية: ٢٩] ، إنكم تجهلون منزلتهم عند الله تعالى وتجهلون عاقبة طردي لهم ، وشهد على شدة جهلكم أن تفقوا إيمانكم على طردي لهم لأنكم لا تطيقون أن تتظموا معهم في سلك واحد ، وتجهلون ما سينزل بي من سخط الله وعقابه لو أعطيتكم ما تسألون ﴿وَيَقَوُّوْا مَنْ يَضُرِّي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [هود، الآية: ٣٠] ، فهل أنتم مانعون عني سخط الله ودافعون عني عقابه لو نفذت رغبتكم بطردهم؟ وهذا استفهام إنكاري لأن منع سخط الله ودفع عقابه ليس في مقدورهم ومستحيل عليهم ، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيِّنَ الظَّلِيلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [هود، الآية: ٣١] إنكم تقولون: ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وأنا لم أقل لكم إني ملك لأنني بشر حقاً ، وهؤلاء الذين استرذلتهم واستحضرتهم وأنفتم من النظر إليهم بسبب فقرهم لا أقول لهم لن يؤتيهم الله خيراً في الدنيا والآخرة ، لأن أمر ذلك إليه سبحانه وتعالى وبحسب ما يلقونه به يوم القيامة ، ولأن ذلك من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو جلّ في علاه .

﴿قَالُوا يَنْبُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأَيْنَا بِنَا قَدْ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْنَاهُ فَلَقَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [هود، الآيات: ٣٢-٣٥] ،

كان «نوح» ﷺ حَذَّرهم من سخط الله وعذابه، إذا لم يؤمنوا بما جاءهم به، فتجروا عليه وتحذوه لينزل بهم وعيده، فسارع إلى إخبارهم أن ذلك ليس إلي ولا يدخل تحت طاقتي، وإنما هو الله تعالى الذي كفرتم به وعصيتم أمره، وسيأتيكم عقابه عاجلاً أو آجلاً وفق مشيئة وحده، وهو ليس عاجزاً بدفع العذاب أو الهرب منه، وإذا كان صاحب المشيئة قد قضى بضلالكم وغوايتكم، فلا فائدة لكم عندي، ولن يغنيكم نصحي وإرشادي شيئاً.

قال «الآلوسي» رحمه الله: وفي الآية دليل على أن إرادة الله تعالى ممّا يصح تعلّقها بالإغواء، وأن خلاف مراده سبحانه محال، وإلا لم تصدق الشرطية الدالة على لزوم الجواب للشرط، والمعتزلة وقعوا في خِيَصَ بَيَّصَ منها واختلفوا في تأويلها، فقيل: إنّ (يغويكم) بمعنى يهلككم، من غَوِيَ الفصيل إذا بَشِمَ من كثرة شرب اللبن فهلك، وقد روى مجيء الغوي - بمعنى الهلاك - «الضراء» وغيره، وأنكره «مكي».

وقيل: إن الإغواء مجاز عن عقوبته، أي إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق، وإضلالكم إياهم.

وقيل: إن قوم «نوح» ﷺ كانوا يعتقدون أن الله تعالى أراد إغواءهم، فأخرج ﷺ ذلك مُخْرَجَ التعجب والإنكار، أي: إن نصحي لا ينفعكم إن كان الأمر كما تزعمون.

وقيل: سمي ترك إلجائهم وتخليتهم وشأنهم إغواء مجازاً.

وقيل: إن نافية، أي: ما كان الله يريد أن يغويكم، ونفي ذلك دليل على نفي الإغواء، ويكون ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ [هود، الآية: ٣٤] إلخ... إخباراً منه ﷺ لهم، وتعزية لنفسه عنهم، لما رأى من إصرارهم وتماديهم على الكفر، ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة الظاهر المعروف في الاستعمال، وارتكاب ما لا ينبغي ارتكاب مثله في ظلام المَلِكِ الْمُتَعَال. وبالجمله الآية ظاهرة جداً فيما ذهب إليه أهل السنة، والله سبحانه الموفق^(١). ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود، الآية: ٣٤]

(١) تفسير الآلوسي (١٢/٤٧).

إنه خالفكم ومالك أمركم ومجازيكم على أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ قَدْ إِنْ أَفْتَرْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُونَ﴾ [هُود، الآية: ٣٥] قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني «نوحاً» عليه السلام أي: بل أيقول قوم «نوح» عليه السلام: إن «نوحاً» افترى ما جاء به مسنداً إلى الله تعالى، قل يا «نوح»: إن افتريته بالغرض البحت، فعليّ إجرامي، أي: وبآله، فهو على تقدير مضاف، أو على التجوز بالسبب عن المسبب، وفسر الإجماع بكسب الذنب، وهو مصدر أجرم، وجاء على قلة جرم، ومن ذلك قوله:

طريد عشيبة ورهين ذنب بما جرمت يدي وجنى لساني

وقرى أجرامي بفتح الهمزة، على أنه كما قال: «النحاس»: جمع جرم، واستشكل «العز بن عبد السلام» الشرطية بأن الافتراء المفروض هنا ماضٍ، والشرط يخلص للاستشكال بإجماع أئمة العربية، وأجاب بأن المراد - كما قال ابن السراج - : إن ثبت أنني افتريته فعليّ إجرامي على ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ [المائدة، الآية: ١١٦] ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْتَرُونَ﴾ [هُود، الآية: ٣٥] أي: من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

قيل: والأصل إن افتريته فعليّ عقوبة افتراضي، ولكنه فرض محال، وأنا بريء من افتراءكم. أي: نسبتكم إليّ إلى الافتراء، وعدل عنه إدماجاً لكونهم مجرمين، وأن المسألة معكوسة.

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية تنمّة قصة «نوح» عليه السلام وفي شأنه، هو الظاهر، وعليه الجمهور.

وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ، مع مشركي مكة، أي: بل أيقول مشركو مكة: افترى رسول الله ﷺ خبر «نوح».

قيل: وكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقاً لحقيقتها، وتأيداً لوقوعها، وتشويقاً للسامعين إلى استماعها، لا سيّما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه ﷺ وبين قومه من المحاجة، وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم، ولا يخفى أن القول بذلك بعيد وإن وُجّه بما وُجّه.

وقال في الكشف: إن كونها في شأن النبي ﷺ أظهر وأنسب من كونها من تنمة قصة «نوح» ﷺ لأن ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ﴾ [هود، الآية: ٣٥] كالتكرير لقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ﴾ [يونس، الآية: ٣٨] دلالة على كمال العناد، وأن مثله بعد الإتيان بالقصة على هذا الأسلوب المعجز مما لا ينبغي أن ينسب إلى افتراء، فجاء زيادة إنكار على إنكار، كأنه قيل: بل أمع هذا البيان أيضاً يقولون: (افتراه)؟ وهو نظير اعتراض قوله سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت، الآية: ١٨] بين قصة «إبراهيم» ﷺ في أحد الوجهين، انتهى، ولا أراه معولاً عليه^(١). ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣٦-٣٧] وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَظِّبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٨﴾ [هود، الآية: ٣٦-٣٧] فقنط ﷺ من إيمانهم وأخبره الله تعالى أنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه.

أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس، قال: إن «نوحاً» ﷺ كان يضرب، ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم، واتفق أن جاءه رجل ومعه ابنه، وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بني! انظر هذا الشيخ لا يُعْرِثُكَ، قال: يا أبت! أمكني من العصا، فأخذ العصا، ثم قال: ضعني على الأرض، فوضعه فمشى إليه، فضربه فشقَّه مُوضِحَةً في رأسه، وسالت الدماء، فقال «نوح» ﷺ: رب! قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يك لك في عبادك حاجة فاهدهم، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين.

فأوحى الله تعالى إليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ﴾ إلخ.. والمراد بمن آمن، قيل: من استمر على الإيمان وللدوام حكم الحدوث، ولذا لو حلف لا يلبس هذا الثوب وهو لابس له فلم ينزعه في الحال حنث.

(١) تفسير الآلوسي (١٢/٤٧، ٤٨).

وقيل: المراد إلّا من قد استعد للإيمان، وتوقع منه، ولا يراد ظاهره، وإلا كان المعنى إلا من قد آمن فإنه يؤمن.

وأورد عليه أنه مع بعده يقتضي أن من القوم من آمن بعد ذلك، وهو ينافي تقنيته من إيمانهم.

وقد يقال: المراد ما هو الظاهر، والاستثناء على حد الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، الآية: ٢٣] على ما قاله غير واحد، فيفيد الكلام الإقناط على أنم وجه وأبلغه، أي: لن يحدث من قومك إيماناً وحصله بعد إلا من قد أحدثه وحصله قبل، وذلك مما لا يكن لما فيه من تحصيل الحاصل وإحداث المحدث، فإحداث الإيمان وتحصيله بعد مما لا يكون أصلاً.

وفي الحواشي الشهابية لو قيل: إن الاستثناء منقطع وأن المعنى لا يؤمن أحد بعد ذلك غير هؤلاء لكان معنى بليغاً، فتدبر.

ثم طيب الله تعالى خاطر نبيه «نوح» ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [مُود، الآية: ٣٦] أي: لا تلتزم البؤس ولا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد حان وقت الانتقام منهم.

قال تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَظِّبْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [مُود، الآية: ٣٧] المراد أن الله عزّ من قائل سيوحي إليه بعلم من لدنه كيف يصنع السفينة، وقد أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل رأسها كراس الديك، وجؤجؤها كجؤجؤ الطير، وذنبها كذنب الديك، واجعل لها أبواباً في جنبها، وشُدّها بدُسُرٍ - أي مسامير، مفردا دِسَار - ، وأمره أن يطلبيها بالقار، وهو الزفت، ولم يكن في الأرض قار، ففجّر الله تعالى له عين القار حيث ينحتها، يغلي غلياناً حتى طلاها الخبر، وفيه أن الله تعالى بعث «جبريل» ﷺ فعلمه صنعها، وقيل: كانت الملائكة ﷺ تعلمه. وأمره تعالى ألا يراجع في الذين ظلموا ولا يدعوه بدفع العذاب عنهم لأن الحكم الإلهي قد

صدر بإغراقهم وجرى به قلم القضاء وجفَّ القلم فلا سبيل إلى كفه. وقيل: إن المراد «واعلة» زوجته، و«كنعان» ابنه، وليس بشيء^(١).

وصدع «نوح» ﷺ بأمر الله تعالى، وأقبل يصنع الفلك - السفينة -، وكانت على ما روي عن قتادة، وعكرمة، والكلبي من خشب الساج، وقد غرسه بنفسه ولم يقطعه حتى صار طوله أربعمئة ذراع - والذراع إلى المنكب - في أربعين سنة على ما روي عن سليمان الفراسي، وقيل: أبقاه عشرين سنة، وقيل: مكث مائة سنة يغرس ويقطع ويبيس، وقال عمرو بن الحارث: لم يغرسه بل قطعه من جبل لبنان.

وعن ابن عباس أنها كانت من خشب الشمشاد، وقطعه من جبل لبنان، وقيل: إنه ورد في التوراة أنها كانت من الصنوبر، وروي أنه كان «سام» و«حام» و«يافث» ينحتون معه.

وفي رواية أنه - عليه السلام - كان معه أيضاً أناس استأجرهم ينحتون، وذكر أن طولها ثلاثمئة ذراع، وعرضها خمسون، وارتفاعها في السماء ثلاثون.

وأخرج ابن جرير، وغيره عن الحسن قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمئة ذراع، وصنع لها باباً في وسطها، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين.

وعن كعب الأحبار: في أربعين سنة، وقيل: في ستين، وقيل: في مائة سنة، وقيل: في أربعمئة سنة.

واختلف في أنه في أي موضع صنعها، فقيل: في الكوفة، وقيل: في الهند، وقيل: في أرض الجزيرة، وقيل: في أرض الشام.

وسفينة الأخبار في تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها، إذ هي غير سالمة عن عيب، فالحري بحال من لا يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه ﷺ صنع الفلك حسبما قص الله تعالى في كتابه، ولا يخوض في مقدار طولها

(١) انظر روح المعاني (١٢/٤٩، ٥٠).

وعرضها وارتفاعها، ومن أي خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها، إلى غير ذلك، مما لم يشرحه الكتاب، ولم تبينه السنة الصحيحة، هذا، وفي التعبير - يصنع - على ما قيل: ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالاً من ضميره، أعني قوله تعالى: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٣٩﴾﴾ [مُود، الآيتان: ٣٨، ٣٩]، أي استهزأوا به لعمله السفينة إما لأنهم ما كانوا يعرفونها، ولا كيفية استعمالها، فتعجبوا من ذلك وسخروا منه، ويشهد لعدم معرفتهم ما روي عن ابن عباس أنه ﷺ حين قال الله تعالى له: (اصنع الفلك) قال: يا رب! وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء، قال: يا رب! وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير.

وإما لأنه ﷺ كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء، وكانوا يتضحكون، ويقولون: يا نوح! صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً، وهذا مبني على أن السفينة كانت معروفة بينهم.

ويشهد له ما أخرجه ابن جرير، والحاكم وصححه - وضعفه الذهبي - عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كان «نوح» قد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه، غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعملها سفينة، فيرونها ويسألونه فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون»، الحديث.

والأكثر - كما قال ابن عطية - على أنهم لم يكونوا رأوا سفينة قط، ولا كانت إذ ذاك، وقد ذكر في كتب الأوليات أن «نوحاً» ﷺ أول من عمل السفينة، والحق أنه لا قطع بذلك.

ولما سخروا منه قال ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [مود، الآية: ٣٨]، قيل: إنها منه - عليه السلام - لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، وقال ابن جريج: المعنى: إن تسخروا منا في الدنيا فإننا نسخر منكم في الآخرة، وقيل: في الدنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق.

قال الطبرسي: إن المراد من نسخر منكم على هذا نجازيكم على سخرتكم أو نشمت بكم عند غرقكم وحرقتكم، وفيه خفاء.

وسوف تعلمون من الذي سينزل به الخزي، أي الفضيحة والذل والهلاك، ومن سيحل به العذاب الدائم أي عذاب النار.

وأزفت ساعة انتصار الله تعالى لنبيه «نوح» ﷺ، وجاءه الأمر من رب العزة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاكِ مِزْزَاتٍ وَأَكْرَبُوا بِهَا لَفْظًا ﴿٤٣﴾ [مُود، الآيتان: ٤٠، ٤١].

قال «الألوسي» رحمه الله: والأمر إما واحد الأوامر أي: الأمر بركوب السفينة، أو بالفوران، أو للسحاب بالإرسال، أو للملائكة ﷺ بالتصرف فيما يراد، أو نحو ذلك، ثم أضاف: (فار التنور) أي: نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفيه من الاستعارة ما لا يخفى، والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور، وكان على ما روي عن الحسن، ومجاهد، تنوراً لِحَوَاءٍ تخبز فيه، ثم صار لـ «نوح» ﷺ، وكان من حجارة، وقيل: هو تنور في الكوفة، في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وجاء ذلك في رواية عن «علي - كرم الله تعالى وجهه -»، وقيل: تنور بالهند، وقيل: بعين وردة من أرض الجزيرة العمرية، أو من أرض الشام، وقيل: ليس المراد به تنوراً معيناً بل الجنس، والمراد فار الماء من التناير، وفي ذلك من عجب القدرة، ما لا يخفى، ثم أضاف (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) أي: من كل نوع من الحيوانات ينتفع به الذين ينجون من الغرق وذريهم بعد، ولم تكن العادة جارية بخلقه من غير ذكر وأنثى.

وذكر أنه ﷺ جعل للسفينة ثلاثة بطون، وحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد «آدم» ﷺ وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وكان حمله بوصية منه ﷺ توارثها ولده حتى وصلت إلى «نوح» ﷺ.

ويعارض هذا التقسيم ما روي أن الطبقة السفلى للوحش، والوسطى للطعام، والعليا له ﷺ ولمن آمن.

وتوسّع بعضهم في العموم، فأدرج فيه ما ليس من جنس الحيوان، وأيد بما أخرجه إسحاق بن بشر، وغيره، عن «علي» - كرم الله تعالى وجهه - مرفوعاً أن «نوحاً» ﷺ حمل معه في السفينة من جميع الشجر.

وبما أخرجه أبو الشيخ، عن جعفر بن محمد رحمهما الله قال: أمر «نوح» ﷺ أن يحمل معه ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آثْنَيْنِ﴾ [هود، الآية: ٤٠] فحمل من التمر العجوة واللون.

وأخرج النسائي، عن أنس بن مالك: أن «نوحاً» ﷺ نازعه الشيطان في عود الكرم، فقال: هذا لي، وقال «نوح» ﷺ: هو لي، فاصطلحا على أن لنوح ثلثها، وللشيطان ثلثيها، ولا يكاد يعوّل على مثل هذه الأخبار عند التصير.

ومما يحمل معه في السفينة ما أخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس رحمهما الله، قال: تأذى أهل السفينة بالفأر، فعطس الأسد فخرج من منخريه سنّوران، ذكر وأنثى، فأكلا الفأر إلا ما أراد الله أن يبقى منه، وتأذّوا بأذى أهل السفينة فعطس الفيل فخرج من منخريه خنزيران، ذكر وأنثى، فأكلا أذى أهل السفينة.

وفي رواية الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، وابن جرير، وغيرهما عنه: أن «نوحاً» ﷺ شكّا إلى الله تعالى قرض الفأر حبال السفينة، فأوحى الله إليه فمّسح جبهة للأسد فخرج سنّوران، وشكّا عذيرة في السفينة فأوحى إليه سبحانه! فمّسح ذنب الفيل فخرج خنزيران فأكلا العذيرة.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه مرفوعاً: أن أهل السفينة شكوا الفأرة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله تعالى إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبّأت الفأرة منها، ولم يذكر فيه بحث الخنزير، ويفهم منها على ما فيها، أن الهرة لم تكن عند الحمل، ومن الأولين أنها والخنزير لم يكونا، وفي بعض الآثار ما يخالفه.

فقد أخرج أحمد في «الزهد» وأبو الشيخ، عن وهب بن منبه، قال: لما أمر

الله تعالى «نوحاً» ﷺ بالحمل، قال: كيف أصنع بالأسد، والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب؟ وكيف أصنع بالحمائم والهر؟ فقال الله تعالى: من ألقى بينهما العداوة؟ قال: أنت يا رب! قال: فإني أولف بينهم حتى لا يتضارون، ولا يخفى ما بين هذا وبين التقسيم الأول أيضاً.

وجاء في شأن الأسد روايات مختلفة، أظهرها أن الله تعالى سلط عليه الحمى، وكانت أول حمى نزلت الأرض.

ثم أضاف: والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً، - كما قال به البعض - وأنه ﷺ لم يؤمر بحمل ما جرت العادة بتكونه من عفونة الأرض كالقار والحشرات، بل أمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا ومن معه من الغرق لئلا يغموا لفقد^{٤٠} ويتكلفوا مشقة جلبه من الأصقاع النائية التي لم يصلها الغرق، فكأنه قيل: قلنا احمل فيها من كل ما تحتاجونه إذا نجوتم زوجين اثنين.

وإن قلنا بعموم الغرق نقول أيضاً: إنه ﷺ لم يكلف بحمل شيء من المتكونات من العفونة، بل كلف بالحمل مما يتناسل من الحيوانات لمصلحة بقاء النوع، وكانت السفينة تسع ذلك عادة أو معجزة، وقدرة الله تعالى أجل من أن تضيق عن ذلك، ثم قال:

«وأهلك» والمراد بأهله على ما في بعض الآثار امرأته المصلحة وبنوه منها، وهم «سام» ﷺ وهو أبو العرب، و«حام» وهو أبو السودان، قيل: إنه أصاب زوجته في السفينة. فدعا «نوح» ﷺ أن تُغَيَّرَ نطفته فُغِيِّرَتْ، و«يافث» كصاحب وهو أبو الترك، ويأجوج ومأجوج، وزوجة كل منهم. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [مُود، الآية: ٤٠] بأنه من المغرقين لظلمهم، وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلَا تَحْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [مُود، الآية: ٣٧] الآية، والمراد زوجة له أخرى تسمى «واعلة»، بالعين المهملة، وفي رواية «والعة» وابنه منها «كنعان»، وكان اسمه فيما قيل: «يام»، وهذا لقبه عند أهل الكتاب، وكانا كافرين.

وفي هذا دلالة على أن الأنبياء ﷺ يحلُّ لهم نكاح الكافرة بخلاف نبينا ﷺ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ [الاحزاب، الآية: ٥٠]، ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [مُود، الآية: ٤٠]، قيل: كانوا سبعة: زوجته، وأبناؤه

الثلاثة، وكنائنه الثلاث، وروي هذا عن قتادة، والحكم بن عقبة، وابن جريج، ومحمد بن كعب، ويرده عطف ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هُود، الآية: ٤٠] على الأهل إلا أن يكون الأهل بمعنى الزوجة، فإنه قد ثبت بهذا المعنى، لكن قيل: إنه خلاف الظاهر، والاستثناء عليه منقطع أيضاً، وعن ابن إسحاق أنهم كانوا عشرة، خمسة رجال وخمس نسوة، وعنه أنهم كانوا مع «نوح» ﷺ عشرين، نصفهم رجال، ونصفهم الآخر نساؤهم، وقيل: كانوا ثمانية وسبعين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث، وقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين، زوجته، وبنوه الثلاثة، ونساؤهم، واثنا وسبعون رجلاً، وامرأة من غيرهم من بني «شيت»، واعتبار المعية في الإيمان للإيماء إلى المعية في قصر الإيمان والنجاة^(١).

وقال «نوح» ﷺ لمن معه من المؤمنين ﴿اٰزْكُوْا فِيْهَا بِسْمِ اللّٰهِ يَجْرِيْهَا وَمُرْسَتْهَا اِنَّ رَّبِّيْ لَغَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [هُود، الآية: ٤١]، أي وقت إجرائها وإرسائها. ويروى عن الضحاك، أنه أي: «نوح» ﷺ كان إذا أراد أن يجريها، يقول: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن يرسيها قال: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ فترسو.

وانطلقت السفينة ﴿وَهِيَ تَجْرِيْ بِهَمٍّ فِيْ مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ اَرْكَبٌ مَّعَنَا وَلَا تَكُنْ مَّعَ الْكَافِرِيْنَ ﴿١١﴾﴾ [هُود، الآية: ٤٢]، كان النداء قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر، إذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين «نوح» ﷺ وبين ابنه من المفاوضة والاستدعاء إلى السفينة، والجواب بالاعتصام بالجبل.

وقال بعض المحققين: إن هذا النداء إنما كان قبل الركوب في السفينة، والواو لا تدل على الترتيب، وعن «علي» - كرم الله تعالى وجهه - أنه قرأ (ابنها) على أن ضمير التأنيث لامراته، وفي إضافته إليها إشعار بأنه ربيبه، لأن الإضافة إلى اللام مع ذكر الأب خلاف الظاهر، وإن جوّزوه، ووجه بأنه نسب إليها لكونه كافراً مثلها، وكان في مكانٍ عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه،

(١) انظر روح المعاني (١٢/ ٥٠ - ٥٥) مع بعض التصرف.

والمراد بعده عنهم إما جساً أو معنى، وحاصله المخالفة لهم في الدين.

وقيل: المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، وظن «نوح» ﷺ أنه يريد مفارقتهم، ولذلك دعاه إلى السفينة.

وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين كالماتريدي، وغيره.

وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت، لكنه ﷺ ظن أنه عند مشاهدة تلك الأحوال، وبلوغ السيل الربى يتزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل، فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه: ﴿يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود، الآية: ٤٢] وهو نهى عن مشايعة الكفرة، والدخول في غمارهم.

﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَفْعَسُنِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود، الآية: ٤٣]، لقد ظن أن الماء كسائر المياه المعتادة في أزمنة السيول، وأن بمستطاعه أن يتقيها فلا تصل إليه إذا ما ارتقى أحد المرتفعات، جهلاً منه بأن ذلك إنما كان لإهلاك الكفرة، فلا بد أن يدركهم ولو كانوا في قُلُلِ الجبال - رؤوسها - ، لكن «نوحاً» بين له أنه لا عاصم اليوم من أمر الله الذي لا بد من نفاذه، وليس اليوم كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتُلم فيها المِلَمَات المعتادة التي ربما يُتَخَلَّص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية، وقوله ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ﴾ [هود، الآية: ٤٣] تفخيم لشأنه الجليل جل شأنه، وإشعار بعلية رحمته بموجب سبقها غضبه، كل ذلك لكمال عنايته ﷺ بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه. ولكن (حال بينهما الموج) فقطع ما بين «نوح» ﷺ وابنه من المجاورة، وقيل: كانا يتراجعان الكلام، فما استتمت المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة، وكان راكباً على فرس قد بَطَرَ وأعجب بنفسه، فالتقته وفرسه، فكان من المغرقين.

وانقطع أمل «نوح» ﷺ بنجاة ولده بعد أن غيبته الأمواج العاتية عن عينيه وابتلعت في أجوافها.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِصَّ الْمَاءُ وَفُئِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود، الآية: ٤٤] .

لقد أمر الله تعالى الأرض، ولا أمر في هذا الكون إلا هو، أن تبتلع ما على وجهها من ماء الطوفان، وأمر السماء أن تمسك ماءها وتحبس مطرها، فانحسر الماء، وأنجز الله وعده بإهلاك الكافرين، ورسست السفينة على «الجودي»، وهو جبل بالموصل، أو بالشام، أو بآمل.

وأخرج ابن جرير، عن عبد العزيز بن عبد الغفور، عن أبيه مرفوعاً: أنه ﷺ ركب في أول يوم من رجب، فصام هو ومن معه، وجرت بهم السفينة ستة أشهر فأنتهى ذلك إلى المحرم، فأرست السفينة على «الجودي» يوم عاشوراء، فصام «نوح» ﷺ وأمر جميع من معه من الوحش والدواب، فصاموا شكراً لله.

وفي بعض الآثار أنها طافت بهم الأرض كلها، ولم تدخل الحرم لكنها طافت به أسبوعاً، وأن الحجر الأسود خُبيء في جبل «أبي قبيس»، وأن البيت رفع إلى السماء.

وفي رواية ابن عساكر، عن مجاهد أنه لم يدخل الحرم من الماء شيء، والظاهر على هذا أنه لا خَبء كما أنه لا رفع، وعندي أن رواية ثبوتها جميعاً مما لا تكاد تصح، وبفرض صحتها لا يظهر لي سر رفع البيت بلا حجر، وخبء الحجر بلا بيت، بل عندي في رفع البيت مطلقاً تردد، وإن كنت ممن لا يتردد في أن الله تعالى على كل شيء قدير^(١).

وأضاف «الآلوسي» رحمه الله يقول: واعلم أن هذه الآية الكريمة (٤٤) قد بلغت من مراتب الإعجاز أفاصيها، واستدلت مصانع العرب - أي بلغاءهم ومُفَوِّههم - فسعفت بنواصيها، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهري البلاغة مكان السنان.

يروى أن كفار قريش، قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البُر، ولحوم الضأن، وسُلاف الخمر، أربعين يوماً، لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما

(١) انظر روح المعاني (١٢/٦١، ٦٢).

قصوده، وسمعوا هذه الآية، قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا.

ويروى أيضاً أن «ابن المقفع» - وكان كما في القاموس فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته - رام أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفضلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأها - أي الآية (٤٤) في مكتب، فرجع ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعَارَضُ أبداً، وما هو من كلام البشر، ولا يخفى أن هذا لا يستدعي ألا يكون سائر آيات القرآن العظيم معجزاً، لما أن حد الإعجاز هو المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، ولا تدخل على قدرته قطعاً، وهي تشتمل على شيئين: الأول: الطرف الأعلى من البلاغة، أعني ما تنتهي إليه البلاغة، ولا يتصور تجاوزها إياه، والثاني: ما يضرب من ذلك الطرف، أعني المراتب العلية التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضاً، ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الإتيان بمثلها سواء كانت من القسم الأول أو الثاني، فلا يضر تفاوتها في البلاغة، وهو الذي قاله علماء هذا الشأن.

وقد ذكر ابن أبي الإصبع أن فيها - أي الآية (٤٤) عشرين ضرباً من البديع، مع أنها سبع عشرة لفظة، وذلك المناسبة التامة في (ابلعي) و(أقلعي) والاستعارة فيهما والطباق بين «الأرض» و«السماء»، والمجاز في (يا سماء) فإن الحقيقة يا مطر السماء! والإشارة في (وغيض الماء) فإنه عبر به عن معاني كثيرة لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلغ الأرض ما يخرج منها، فينقص ما على وجه الأرض، والإرداف في (واستوت)، والتمثيل في (وقضي الأمر) والتعليل فإن غيض الماء علة للاستواء وصحة التقسيم، فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه، والاحتباس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك، فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى والإيجاز، فإنه سبحانه قص القصة متنوعة بأخصر عبارة، والتسليم لأن أول الآية يدل على آخرها، والتهذيب لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين لأن الفاصلة مستقرة في محلها

مطمئنة في مكانها، والانسجام.

وزاد الجلال السيوطي بعد أن نقل هذا عن ابن أبي الإصبع، الاعتراض.
وزاد آخرون أشياء كثيرة إلا أنها ككلام ابن أبي الإصبع قد أشير إليها بإصبع الاعتراض^(١). ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَكِيمِينَ﴾ [مُود، الآية: ٤٥] إن حنان الأبوة كان الباعث على هذا النداء والدافع إليه، إنه نداء يقطر منه الاستعطاف، وجميل التوسل إلى من عهده منعماً مفضلاً في شأنه أولاً وآخرأ.

ولكن العليم العَلَام يرشد نبيه «نوحاً» ﷺ إلى حقيقة لا مرية فيها ولا ارتياب، كانت قد غابت عن ذهنه، ﴿قَالَ يَنْتُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَنَلَّيْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [مُود، الآية: ٤٦]، لقد بين الله تعالى أن الولد الغريق ليس من أهل «نوح» ﷺ أصلاً، ذلك لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية، وهي الأساس وعليها المَعْوَل، وقد انقطعت تلك القرابة بالكفر، فلا علاقة بين مسلم وكافر، ولذا لم يتوارثا، وقد ذكروا أن قرابة الدين أقرب من قرابة النسب، كما أشار إلى ذلك «أبو فراس» بقوله:

كانت مودة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم
أو ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [مُود، الآية: ٤٦] الذين أمرتك بحملهم في الفلك
لخروجه عنهم بالاستثناء، وحكي هذا عن ابن جرير، وعكرمة، والأول عن
ابن عباس ؓ، وعلى القولين ليس هو من الذين وعد بإنجائهم، وكأنه لما كان
دعاؤه ﷺ بتذكير وعده جَلَّ ذكره مبنياً على كون «كنعان» من أهله، نفى أولاً
كونه منهم، ثم علَّل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله
سبحانه: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [مُود، الآية: ٤٦]، وأصله ذو عمل فاسد. وقال
«الآلوسي» في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [مُود، الآية: ٤٧]، جاء
عن «الفضيل بن عياض» أنه قال: بلغني أن «نوحاً» ﷺ بكى عن قول الله تعالى
له ما قال أربعين يوماً.

(١) انظر روح المعاني (١٢/٦٧، ٦٨).

وأخرج «أحمد» في «الزهد» عن وهيب بن الورد الحضرمي، قال: لما عاتب الله تعالى «نوحاً» في ابنه، وأنزل عليه ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ﴾ [هُود، الآية: ٤٦] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء.

وزعم الواحدي أن السؤال قبل الغرق، ومع العلم بكفره، وذلك أن «نوحاً» ﷺ لم يعلم أن سؤاله ربه نجاة ولده محظور عليه مع إصراره على الكفر حتى أعلمه الله تعالى ذلك، واعترض بأنه إذا كان عالماً بكفره مع التصريح بأن في أهله من يستحق العذاب كان طلب النجاة منكراً من المناكير، فتدبر، والظاهر على ما قررنا أن قوله: ﴿رَبِّ﴾ [هُود، الآية: ٤٧] إلخ.. توبة مما وقع فيه ﷺ وما هنا أيضاً عبارة إما عن المسؤول أو عن السؤال، أي: أعوذ بك أن أطلب منك من بعد مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة، أو طلباً لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشبه الحال، أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب، ولم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة، وإظهاراً للرغبة والنشاط فيها، وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراً هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى، وأن قدرته ﷻ قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك كما في إرشاد العقل السليم، واحتمال أن يكون فيه رد وإنكار نظير ما في «البقرة» من قول «موسى» ﷺ ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة، الآية: ٦٧]، مما لا يكاد يمر بفكر أحد من الجاهلين.

وقيل الله تعالى توبة نبيه «نوح» ﷺ بقوله جل شأنه: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَقِطْ يَسْلَمِ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) يَلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ (١٩) [هُود، الآيتان: ٤٨، ٤٩] ونزل «نوح» ﷺ بأرض الموصل وبنى قرب الجبل قرية يقال لها: قرية الثمانين عدد من في السفينة، وفي رواية عن ابن عباس: أنه بنى كل منهم بيتاً، فسميت سوق الثمانين^(١).

أما عن خيانة امرأة «نوح» ﷺ فقد ذكرها الله عزَّ من قائل في سورة

(١) انظر روح المعاني (١٢/٦٨ - ٧٣).

التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التَّحْرِيمُ، الآية: ١٠] ، كان اسم امرأة «نوح» ﷺ «والعة» وقيل: «والهة» وقد فسر العلامة «الآلوسي» خيانتها لنوح زوجها بقولها للناس عنه: إنه مجنون، كما روي عن الضحاك، أنه قال: النميمة، وإذا أوحى الله تعالى إليه بشيء أفشته للمشركين، وعن ابن جريج: الكفر والمخالفة، وقال الراغب: الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة، وحمل ما في الآية على هذا، ولا تفسر هنا بالفجور، لما أخرج غير واحد عن ابن عباس: «ما زنت امرأة نبي قط» ورفع أشرس إلى النبي ﷺ، وفي «الكشاف» لا يجوز أن يراد بها الفجور لأنه سمح في الطبع نقبصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفر لا يستسمجونه ويسمونهم حقاً^(١)، ولم يفد امرأة «نوح» ﷺ صلاح زوجها وعظيم مكانته، فذهبت إلى الجحيم، وأما زوجها فذهب إلى دار النعيم.

(١) انظر روح المعاني (١٦٢/٢٨).

٣ - سارة امرأة إبراهيم ﷺ

كان خليل الرحمن «إبراهيم» ﷺ ابناً لرجل ينجر الأصنام، ويبيعها للناس ليعبدوها من دون الله، وقد اختلف في نسبه بين كتاب السير.

فقد ذكر ابن جرير الطبري أنه: إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح ﷺ^(١)، وفي القرآن الكريم ورد أن اسم أبيه هو «آزر».

أما الحافظ ابن كثير فقد ذكر في البداية والنهاية أنه: إبراهيم بن تارخ بن ناحور، بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ﷺ^(٢).

وتابع ابن كثير القول: وروى ابن عساكر من غير وجه، عن عكرمة أنه قال: كان «إبراهيم» ﷺ يكنى «أبا الضيفان»، قالوا: ولما كان عمر «تارخ» خمساً وسبعين سنة، ولد له «إبراهيم» ﷺ، وناحور، و«هاران»، وولد لهاران «لوط»، وعندهم أن «إبراهيم» ﷺ هو الأوسط، وأن «هاران» مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس، قال: ولد «إبراهيم» ﷺ بغوطة دمشق في قرية يقال لها «برزة» في جبل يقال له: «قاسيون»، ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معيناً للوط ﷺ، قالوا: فتزوج «إبراهيم»، «سارة»، و«ناحور»، «مَلَكًا ابْنَةً هَارَانَ»

(١) تاريخ الطبري (١/٢٣٣).

(٢) البداية والنهاية (١/١٥٦).

- يعنون بابنة أخيه - .

قالوا: وكانت «سارة» عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق «تارخ» بابنه «إبراهيم» وامراته «سارة» وابن أخيه «لوط بن هاران»، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا «حَرَآن» فمات فيها «تارخ» وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدل على أنه لم يولد بَحَرَآن وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل، وما والاها، ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة، بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرايين.

وهكذا كان أهل «حَرَآن» يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى «إبراهيم الخليل» وامراته، وابن أخيه «لوط» ﷺ.

وكان الخليل ﷺ هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله ﷻ آتاه رشدَه في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذَه خليلاً في كبره، قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) [الأنبياء، الآية: ٥١] ، أي: كان أهلاً لذلك^(١).

وقال الطبري في تاريخه: عن ابن إسحاق: فلما أراد الله ﷻ أن يبعث «إبراهيم» ﷺ خليل الرحمن، حجة على قومه، ورسولاً إلى عباده، ولم يكن فيما بين «نوح» و«إبراهيم» ﷺ من نبي قبله إلا «هود» و«صالح»، فلما تقارب زمان «إبراهيم» الذي أراد الله تعالى ذِكْرُه ما أراد. أتى أصحاب النجوم «نمرود»^(٢)، فقالوا له: تَعْلَمُ أنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال

(١) البداية والنهاية (١/١٥٧).

(٢) نمرود: بالذال وفي بعض المصادر بالذال المنقوطة.

له «إبراهيم»، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا.

فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث «نمرود» إلى كل امرأة حُبلى بقرته، فحبسها عنده، إلا ما كان من «أم إبراهيم» امرأة «آزر» فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت جارية - حدثت فيما يذكر - لم يعرف الحبل في بطنها، فجعل لا تلد امرأة غلاماً في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح، فلما وجدت «أم إبراهيم» الطلق، خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها، فولدت فيها «إبراهيم» ﷺ، وأصلحت من شأنه ما يُصنع بالمولود، ثم سَوّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة لتتظر ما فعل، فتجده حياً يمصُّ إبهامه، يزعمون - والله أعلم - أن الله جعل رزق «إبراهيم» ﷺ فيها ما يجيئه من مصه.

وكان «آزر» فيما يزعمون قد سأل «أم إبراهيم» عن حملها ما فعل، فقالت: ولدت غلاماً فمات، فصدقها، فسكت عنها، وكان اليوم - فيما يذكرون - على «إبراهيم» في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، ولم يمكث «إبراهيم» ﷺ في المغارة إلا خمسة عشر شهراً، حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقتني ورزقني وأطعمني وسقاني لرَبِّي، ما لي إله غيره.

ثم نظر في السماء، ورأى كوكباً، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦]، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] ثم اطلع للقمر فرآه بازغاً فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦]، ثم اتبعه ببصره حتى غاب ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٧] فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس رأى عِظَمَ الشمس، ورأى شيئاً هو أعظم نوراً من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِّرُ إِلَيَّ بَرِيٌّ وَمَا تَشْكُرُونَ﴾ ❷ ❸ إني وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ❹ [الأنعام، الآيتان: ٧٨، ٧٩]، ثم رجع «إبراهيم» إلى أبيه «آزر» وقد استقامت وجهته، وعرف ربه، وبرىء من دين

قومه إلا أنه لم يباهمهم - لم يبد لهم العداوة - بذلك، فأخبره أنه ابنه، فأخبرته «أم إبراهيم» ﷺ أنه ابنه، فأخبرته بما كانت صنعت في شأنه، فسر بذلك «آزر» وفرح فرحاً شديداً.

وكان «آزر» يصنع أصنام قومه التي يعبدون، ثم يعطيها «إبراهيم» يبيعها، فيذهب بها «إبراهيم» ﷺ فيما يذكرون، فيقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد، فإذا بارت عليه - أي: كسدت - ذهب بها إلى نهر فصوّب فيه رؤوسها، وقال: اشربي - استهزاء بقومه، وبما هم عليه من الضلالة - حتى فشا عيبه إياها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، من غير أن يكون ذلك بلغ «نمرود» الملك.

ثم إنه لما بدا لإبراهيم أن يُبَادِي قومه بخلاف ما هم عليه، وبأمر الله والدعاء إليه: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۖ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصّافات، الآيتان: ٨٨، ٨٩] يقول الله ﷻ: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصّافات، الآية: ٩٠].

وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصّافات، الآية: ٨٩] أي: طَعِين - مصاب بالطاعون - ، أو لقمم كانوا يهربون منه إذا سمعوا به، وإنما يريد «إبراهيم» أن يخرجوا عنه ليلغ من أصنامهم الذي يريد.

فلما خرجوا عنه خالف إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله، فَقَرَّبَ لها طعاماً، ثم قال: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ تعبيراً في شأنها، واستهزاء بها^(١).

وروى أبو جعفر الطبري، عن موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، في خبر ذكره، عن أبي صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: كان من شأن «إبراهيم» ﷺ أنه طلع كوكب على «نمرود»، فذهب بضوء الشمس والقمر، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا الصحرة والكهنة

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٣٤ - ٢٣٦).

والقافة - جمع القائف، وهو من يحسن معرفة الأثر وتتبعه - والحَاذَة - جمع الحازي، وهو الكاهن - فسألهم عنه، فقالوا: يخرج من ملكك رجل، يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك - وكان مسكنه ببابل الكوفة - فخرج من قريته إلى قرية أخرى، فأخرج الرجال، وترك النساء، وأمر ألا يولد مولود ذكر إلا ذبحه، فذبح أولادهم، ثم إنه بدت له حاجة في المدينة، لم يأمن عليها إلا «آزر» أبا «إبراهيم»، فدعاه فأرسله، فقال له: انظر لا تُواقِعْ أهلَكَ، فقال له «آزر»: أنا أَضِنُّ بدينِي من ذلك، فلما دخل القرية، نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها، فقرَّبها إلى قرية بين الكوفة والبصرة، يقال لها «أور» فجعلها في سَرَب مكان خفي - فكان يتعاهدها بالطعام والشراب وما يصلحها، وإن الملك لما طال عليه الأمر، قال: قول سحرة كذابين، ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا.

وولد «إبراهيم» فكان في كل يوم يمرُّ كأنه جمعة، والجمعة كالشهر، والشهر كالسنة، من سرعة شبابه، ونسي الملك ذلك، وكبر «إبراهيم» ولا يرى أن أحداً من الخلق غيره وغير أبيه وأمه، فقال أبو «إبراهيم» لأصحابه: إن لي ابناً قد خبأته، أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ قالوا: لا، فأت به، فانطلق فأخرجه.

فلما خرج الغلام من السَرَب، نظر إلى الدواب والبهائم والخلق، فجعل يسأل أباه: ما هذا؟ فيخبره عن البعير أنه بعير، وعن البقرة أنها بقرة، وعن الفرس أنها فرس، وعن الشاة أنها شاة، فقال: ما لهؤلاء الخلق بُدُّ من أن يكون لهم رَبٌّ، وكان خروجه حين خرج من السَرَب بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بالكوكب، وهو «المشتري»، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦]، فلم يلبث أن غاب، فقال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] أي: لا أحب رباً يغيب.

قال ابن عباس: وخرج في آخر الشهر، فلذلك لم ير القمر قبل الكواكب، فلما كان آخر الليل رأى القمر بازغاً قد طلع، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] يقول: غاب، ﴿قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّامِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٧] فلما أصبح ورأى الشمس بازغة، قال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٨] فلما غابت، قال الله له: أُسْلِمَ، قال: قد أسلمت لرب العالمين، ثم

أتى قومه فدعاهم، فقال: ﴿يَنْقُورِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨، ٧٩]، ﴿الأنعام، الآيتان: ٧٨، ٧٩﴾، يقول مخلصاً: فجعل يدعو قومه وينذرهم.

وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيهما ولديه فيبيعونها، وكان يعطيه فينادي: من يشتري من يضره ولا ينفعه؟ فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم، ويرجع «إبراهيم» بأصنامهم كما هي، ثم دعا أباه، فقال: ﴿يَتَأْتِي لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مریم، الآية: ٤٢]، قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْإِلَهِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَأَرْمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِئاً﴾ [مریم، الآية: ٤٦]، قال: أبداً، ثم قال له أبوه: يا إبراهيم! إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد، فخرجوا إليه، خرج معهم «إبراهيم»، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات، الآية: ٨٩]، يقول: أشتكي رجلي، فتوطأوا رجليه، وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم، وقد بقي ضغفى الناس: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٥٧]، فسمعوها منه.

ثم رجع «إبراهيم» إلى بيت الآلهة، فإذا هو في بهو عظيم - بيت واسع - ، مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد صنعوا طعاماً، فوضعه بين يدي الآلهة، قالوا: إذا كان حين - وقت - نرجع رجعنا، وقد باركت الآلهة في طعامنا فاكلنا، فلما نظر إليهم «إبراهيم» ﷺ، وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال: ألا تأكلون؟ فلما لم تجبه، قال: ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم - مال - ضرباً باليمين، فأخذ حديدة فبقر كل صنم في حافتيه، ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر، ثم خرج فلما جاء القوم إلى طعامهم، ونظروا إلى آلهتهم، قالوا: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الْفٰلِطِينَ﴾ [٥٩]، قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ [الأنبياء، الآيتان: ٥٩، ٦٠] قال أبو جعفر: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق.

ثم أقبل عليهم كما قال الله ﷻ: ﴿صَرِيحًا بِالْبَلِيَّةِ﴾ [الصافات، الآية: ٩٣]، ثم جعل يكسرهن بفأس في يده، حتى إذا بقي أعظم صنم منها ربط الفأس بيده، ثم

تركهن، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم، فراعهم ذلك، فأعظموه وقالوا: من فعل^(١) بالهتنا إنه لمن الظالمين؟ ثم ذكروا فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَنَقَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٠] يعنون فتى يسبها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن صنع هذا بها.

وبلغ ذلك «نمرود» وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦١] أي: ما يصنع به، فكان جماعة من أهل التأويل، منهم قتادة والسُّدِّيُّ يقولون في ذلك: لعلهم يشهدون عليه أنه هو الذي فعل ذلك، وقالوا: كرهوا أن يأخذوه بغير بَيِّنَةٍ، قال: فلما أُتِيَ به، فاجتمع له قومه عند ملكهم «نمرود»، قالوا: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهِنَا إِنَّا بِرَأْيِكَ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٢، ٦٣]. غضب أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، فَأَرْعَوْا، ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهن إلى أنفسهم فيما بينهم، فقالوا: لقد ظلمناه، وما نراه إلا كما قال، ثم قالوا وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُقُونَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٥]، أي: لا يتكلمون فيخبرونا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدي فنصدقك، يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُقُونَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٥]، أي: نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك «إبراهيم» حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطُقُونَ﴾ [٦٥] قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنبياء، الآيات: ٦٥-٦٧].

قال: وحاجه قومه عند ذلك في الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ يستوصفونه إياه ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يَعْبُدُ، فقال: ﴿أَتَحْكُمُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا﴾ [الأنعام، الآية: ٨٠] إلى قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ٨١]، يضرب لهم الأمثال، وَيُضَرِّفُ لَهُمُ الْعِبَرِ، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبدون من دونه.

(١) من فعل: ينهي إضافة: هذا، لتستقيم الجملة.

قال أبو جعفر: ثم إن «نمرود» - فيما يذكرون - قال لإبراهيم: أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُنْعِمُ وَيُمْيْتُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٨] فقال «نمرود»: فأنا «أخي» وأُمِّيْتُ ﴿[البقرة، الآية: ٢٥٨] ، فقال له «إبراهيم»: كيف تحيي وتميت؟ قال: أخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته، وأعفو عن الآخر، فأتركه فأكون قد أحيينه، فقال له «إبراهيم» عند ذلك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٨] ، فعرف أنه كما يقول، فبهت عند ذلك «نمرود»، ولم يرجع إليه شيئاً، وعرف أنه لا يطيق ذلك، يقول الله ﷻ: ﴿فَهُتِ الَّذِي كَفَرْتُ﴾ [البقرة، الآية: ٢٥٨] ، يعني وقعت عليه الحجة. قال: ثم إن «نمرود» وقومه أجمعوا في إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٨] ^(١).

ثم قال أبو جعفر: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرني وهب بن سلمان، عن شعيب الجبائي، قال: إن اسم الذي قال حرّقه «هينون» فخف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ثم رجع الحديث إلى ابن إسحاق.

قال: فأمر «نمرود» بجمع الحطب، فجمعوا له صلاب الحطب، من أصناف الخشب، حتى أن كانت المرأة من قرية «إبراهيم» - فيما يذكر - لتنذر في بعض ما تطلب مما تحب أن تدرك: لئن أصابته لتحطبن في نار «إبراهيم» التي يحرق بها احتساباً، في دينها، حتى إذا أرادوا أن يلقيه فيها، قدّموه وأشعلوا في كل ناحية من الحطب الذي جمعوا له، حتى إذا اشتعلت النار، واجتمعوا لقفزه فيها، صاحت السماء والأرض وما فيها من الخلق إلا الثقلين - الإنس والجن - فيما يذكرون إلى الله ﷻ صيحة واحدة: أي ربنا! «إبراهيم» ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، يحرق بالنار فيك، فأذن لنا في نصرته، فيذكرون - والله أعلم - أن

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٣٦ - ٢٤٠).

الله ﷺ حين قالوا ذلك، قال: إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فليصره، فقد أذنت له في ذلك، فإن لم يدع غيري فأنا وليه، فخلُّوا بيني وبينه، فأنا أمنعه، فلما ألقوه فيها، قال: ﴿يَنبَأُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٩]، فكانت كما قال الله ﷻ.

وحدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السُّدِّيِّ، قال: ﴿قَالُوا أَتَبْنِيَاءَ قَالَفُوهُ فِي الْحَبِيبِ ۖ﴾ [الصَّافَات، الآية: ٩٧]، قال: فحبوه في بيت، وجمعوا له حطباً، حتى أن كانت المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنَّ حطباً لإبراهيم، فلما جمعوا له وأكثروا من الحطب، حتى أن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وَهْجِهَا وَحَرِّهَا، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع «إبراهيم» رأسه إلى السماء، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا! «إبراهيم» يحرق فيك، فقال: أنا أعلم به، فإن دعاكم فأغيثوه.

وقال «إبراهيم» حين رفع رأسه إلى السماء: اللهم! أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسي الله ونعم الوكيل، فقفوه في النار، فناداها فقال: ﴿يَنبَأُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٩].

وكان «جَبْرِئِيل» هو الذي ناداها، وقال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات «إبراهيم» من بردها، فلم تبق يومئذ نار في الأرض إلا طَفِفَتْ، طَلَّتْ أنها تُغْتَى، فلما طَفِفَتْ النار نظروا إلى «إبراهيم» فإذا هو ورجل آخر معه، وإذا رأس «إبراهيم» في حَجَرٍ يمسح عن وجهه العرق، وذكر أن الرجل مَلَكُ الظِّلِّ، وأنزل الله ناراً وانتفع بها بنو «آدم»، فأخرجوا «إبراهيم»، فأدخلوه على المَلِكِ، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه.

قال: وبعث الله ﷻ مَلَكُ الظِّلِّ في صورة «إبراهيم»، فقعدها فيها إلى جنبه يؤنسه، فمكث «نمرود» أياماً لا يشك أن النار قد أكلت «إبراهيم» وفرغت منه، ثم ركب قَمَرًا بها وهي تحرق ما جمعوا لها من الحطب، فنظر إليها، فرأى «إبراهيم» جالساً فيها إلى جنبه رجل مثله، فرجع من مركبه ذلك، فقال لقومه:

لقد رأيت «إبراهيم» حياً في النار، ولقد شُبهَ عليّ، ابنوا لي صرحاً يشرف بي على النار حتى أستثبت، فبنوا له صرحاً، فأشرف عليه، فأطلع منه إلى النار، فرأى «إبراهيم» جالساً فيها، ورأى المَلَكَ قاعداً إلى جنبه في مثل صورته، فناداه، «نُمرود»: يا «إبراهيم»! كبير إلهك الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بين ما أرى وبينك، حتى لم تضرك يا «إبراهيم»! هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم واخرج منها، فقام «إبراهيم» يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه، قال: يا «إبراهيم»! من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك مَلَكُ الظُّلِّ، أرسله إليّ ربي ليكون معي فيها ليؤنسني، وجعلها عليّ برداً وسلاماً.

فقال «نُمرود» - فيما حَدَّثْتُ - : يا «إبراهيم»! إنني مقربٌ إلى إلهك قرباناً لما رأيت من عزته وقدرته، ولما صنع بك حين أبيت إلّا عبادته وتوحيده، إنني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له «إبراهيم»: إذاً لا يقبل منك ما كنتَ على شيء من دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني!

فقال: يا «إبراهيم»! لا أستطيع ترك ملكي، ولكنني سوف أذبحها، فذبحها «نُمرود»، ثم كفَّ عن «إبراهيم»، ومنعه الله ﷻ منه.

وقال «أبو جعفر»: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن الحارث، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، قال: إن أحسن شيء قاله «أبو إبراهيم» لما رفع عنه الطبق وهو في النار وحده يرشح جبينه، فقال عند ذلك: نعم الربُّ ربُّك يا «إبراهيم»!

وقال «أبو جعفر»: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه، قال: جاء «جَبْرِئِيلُ» إلى «إبراهيم» ﷺ وهو يُوثَقُ ويَقْمَطُ ليلقى في النار، قال: يا «إبراهيم»! ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقال «أبو جعفر»: حدثني أحمد بن المقدام، قال: حدثني المعتمر، قال: سمعت أبي قال: حدثنا قتادة، عن أبي سليمان، قال: ما أحرقت النار من «إبراهيم» إلّا وثاقه.

قال «أبو جعفر»: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق.

قال: واستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله على خوف من «نُمرود» وملئهم، فأمن له «لوط» - وكان ابن أخيه - وهو «لوط بن هاران بن تارخ»، و«هاران» هو أخو «إبراهيم»، وكان لهما أخ ثالث، يقال له: «ناحور بن تارخ»، فهاران أبو «لوط»، و«ناحور» أبو «بتويل»، و«بتويل» أبو «لابان»، و«ربقا» ابنة «بتويل» امرأة «إسحاق بن إبراهيم» أم «يعقوب»، و«ليا» و«راحيل» زوجتا «يعقوب» ابنتا «لابان».

وأمّنت به «سارة» وهي ابنة عمه، وهي «سارة بنت هاران» الأكبر عم «إبراهيم»، وكانت لها أخت، يقال لها: «مَلَكَا» امرأة «ناحور»^(١).

وقد قيل: إن «سارة» كانت ابنة ملك «حَرَّان»، ذكر من قال ذلك:

حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، قال: انطلق «إبراهيم» و«لوط» قَبْلَ الشَّامِ، فلقي «إبراهيم»، «سارة» وهي ابنة ملك «حَرَّان»، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألاّ يغيّرّها، ودعا «إبراهيم» أباه «آزر» إلى دينه، فقال له: يا أبت! لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه، ثم إن «إبراهيم» ومن كان معه من أصحابه الذين اتّبعوا أمره أجمعوا لفراق قومهم، فقالوا: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المُتَحَنَّة، الآية: ٤] أيها المعبودون من دون الله ﴿وَبَيِّنَّا لِلنَّاسِ أَلْبَانًا وَأَلْبَانًا﴾ [المُتَحَنَّة، الآية: ٤] أيها العابدون ﴿حَتَّىٰ تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَخَذْتُمْ﴾ [المُتَحَنَّة، الآية: ٤]، ثم خرج «إبراهيم» مهاجراً إلى ربه، وخرج معه «لوط» مهاجراً، وتزوج «سارة» ابنة عمه، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل «حَرَّان»، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم «مصر»، وبها «فرعون» من الفراعنة الأولى.

وكانت «سارة» من أحسن الناس فيما يقال، وكانت لا تعصي «إبراهيم»

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٤١ - ٢٤٤).

شيئاً، وبذلك أكرمها الله ﷻ.

فلما وصفت لفرعون، ووُصِفَ له حسنُها وجمالُها أرسل إلى «إبراهيم»، فقال: ما هذه المرأة التي معك؟ قال: هي أختي.

وتَخَوَّف «إبراهيم» إن قال هي امرأتي أن يقتله عنها، فقال لإبراهيم: زَيْنُهَا، ثم أَرْسَلَهَا إِلَيَّ حتى انظر إليها، فرجع «إبراهيم» إلى «سارة» وأمرها فتهيأت، ثم أرسلها إليه، فأقبلت حتى دخلت عليه، فلما قعدت إليه تناولها بيده، فبيست يده إلى صدره، فلما رأى فرعون ذلك أعظم أمرها، وقال: ادع الله أن يطلق عني، فوالله! لا أربك ولا أحسنَّ إليك، فقالت: اللهم! إن كان صادقاً فأطلق يده، فأطلق الله يده، فردَّها إلى «إبراهيم»، ووهب لها «هَاجَرَ»، جارية كانت له قبضية^(١).

أجل! أولئك قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا دينهم لله، فما كان الله ليضيعهم، بل جعلهم في حِرْزِهِ المنيع، ومنعهم كيد الأشرار والظالمين، وجَنَّبَهُمْ مكر الماكِرين، لقد أوت «سارة» إلى ركن شديد، واعتصمت بحبل الله المتين، فردَّها الله إلى حليها سالمة غانمة، مكللاً جينها بالغار، وعلى هامتها تاج العفة والوقار، الذي زَيْنَها به العزيز الجبار، ومن يعتصم بالله فقد هُديَ، والله ولي المؤمنين.

وقال «أبو جعفر»: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب «إبراهيم» ﷺ غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات، الآية: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ مِّنْ هَذَا﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٣]، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجلٌ، فقال: إن في أرضك - أو قال: ههنا - رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي، قال: اذهب فأرسلها إليَّ، فانطلق إلى «سارة» فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذِّبيني

عنده، فإنك أختي في كتاب الله، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك.

قال: فانْطَلِقْ بها، وقام «إبراهيم» ﷺ يصلي.

قال: فلما دخلت عليه فراها، أهوى إليها، وذهب يتناولها، فأخَذَ أَخَذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت له، فأرْسِلَ، فأهوى إليها، فذهب يتناولها، فأخَذَ أَخَذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت له، فأرْسِلَ، ثم فعل ذلك الثالثة، فأخَذَ، فذكر مثل المرتين، فأرْسِلَ، قال: فدعا أدنى حُجَّابِه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها «هاجر»، فأخْرِجَتْ وَأُعْطِيَتْ «هاجر» فأقبلت بها، فلما أحس «إبراهيم» بمجيئها انفتل من صلاته، فقال: مَهَيْمٌ؟^(١) فقالت: كفى الله كيد الفاجر الكافر، وأخدم «هاجر».

قال محمد بن سيرين: فكان «أبو هريرة» إذا حَدَّثَ هذا الحديث يقول: فتلك أمكم، يا بني ماء السماء!^(٢)

وأخرج الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، عن ورقاء، هو ابن عمر الشكري، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دُعِيَ إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفافات، الآية: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدٌ هَذَا﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٣] وقوله لسارة: إنها أختي. قال ودخل «إبراهيم» ﷺ قرية فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقبل: دخل «إبراهيم» الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبي قلبي، فإني قد أخبرته أنك أختي، إن على الأرض، - أي: ما على الأرض - مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر، قال: فغَطَّ حتى ركض برجله، قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة: إنها قالت: اللهم! إن

(١) كلمة استفهام، أي: ما حالك؟ وما شأنك؟ وما وراءك؟

(٢) تاريخ الطبري (١/٢٤٥، ٢٤٦).

يمت يُقْل: هي قتلته، قال: فأرسل، قال: ثم قام إليها، قال: فقامت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر، قال: فغَطَّ حتى ركض برجله، قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة: إنها قالت: اللهم! إن يمت يُقْل: هي قتلته، قال: فأرسل، قال: فقال في الثالثة، أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، ارجعوها إلى «إبراهيم» وأعطوها «هَاجَرَ».

قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟^(١).

وأضاف ابن كثير: وكان «إبراهيم» ﷺ من وقت ذُهِبَ بها إلى الملك قام يصلي لله ﷻ، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء.

وهكذا فعلت هي أيضاً، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعيت الله ﷻ بما تقدم من الدعاء العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة، الآية: ٤٥]، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده، ورسوله، وحببيه، وخليله «إبراهيم» ﷺ.

وقال ابن كثير: ورأيت في بعض الآثار أن الله ﷻ كشف الحجاب فيما بين «إبراهيم» ﷺ وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرّ لعينه، وأشدّ لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها، وقرابتها منه، وحننها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد «حواء» إلى زمانها أحسن منها ﷺ، والله الحمد والمنة^(٢).

ثم رجع «إبراهيم الخليل» ﷺ من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام، وعبيد، ومال جزيل، وصحبته

(١) البداية والنهاية (١/١٦٩).

(٢) البداية والنهاية (١/١٧٠).

«هاجر» القبطية المصرية، ثم إن «لوطاً» ﷺ نزح بما له من الأموال الجزيلة، بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور «زغر» فنزل بمدينة «سدوم» وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراً، كفاراً، فجاراً، وأوحى الله تعالى إلى «إبراهيم الخليل» فأمره أن يمد بصره، وينظر شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً، وبشّره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية.

يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربتها وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها».

وكان «خليل الرحمن إبراهيم» ﷺ تَوَاقاً إلى الذرية الصالحة، راغباً في أن يحظى بنعمة الأبوة إلى حد بعيد، ولكن أمام هذه الأمنية الغالية عقبتان: الأولى: أنه بلغ من الكبر عتياً، والثانية وهي الأشد، أن امرأته «سارة» ﷺ عقيم لا أمل يرجى في أن تحمل وتصبح أما في يوم من الأيام.

ولكن علام الغيوب والقاهر فوق عباده، والقادر على أن يوصل كل أحد إلى مراده، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يتصرف وحده كيف يشاء، أرسل رسله إلى خليله «إبراهيم» ﷺ بأعظم البشائر، التي ما كانت تبرح الأفكار والخواطر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَنِّي إِلَهُ رَبِّهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلْنَا إِيَّكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود، الآيتان: ٦٩، ٧٠].

وقد ذكر العلامة «الآلوسي» في تفسيره «روح المعاني» فقال: وهم الملائكة، روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر ملكاً.

وقال السدي: أحد عشر على صورة الغلمان في غاية الحسن والبهجة، وحكى صاحب «الغنيان» أنهم عشرة منهم «جبريل»، وقال الضحاك: تسعة، وقال محمد بن كعب: ثمانية، وحكى الماوردي أنهم أربعة، ولم يسمهم. وجاء في رواية عن عثمان بن محيص أنهم: «جبريل» و«إسرافيل» و«ميكائيل» و«رفائيل» ﷺ.

وفي رواية عن ابن عباس، وابن جبير: أنهم ثلاثة الأولون فقط، وقال مقاتل: «جبرائيل»، و«ميكائيل»، و«ملك الموت» ﷺ، واختار بعضهم الاختصار على القول بأنهم ثلاثة، لأن ذلك أقل ما يدل عليه الجمع، وليس هناك ما يعول عليه في الزائد، وإنما سند إليهم المجيء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه ﷺ، بل إلى قوم «لوط» لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هُود، الآية: ٧٠] وإنما جاؤوا لداعية البشرية، قيل: ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسله إليهم، ولحوق العذاب بهم، ولم يكن جميع قوم «إبراهيم» ﷺ من لحق بهم العذاب، بل إنما لحق بقوم «لوط» منهم خاصة، غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف، الآية: ٦٥] ﴿وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ أَهْلَهُمْ صَلَحًا﴾ [الأعراف، الآية: ٧٣]، ثم رجع إليه حيث قيل: ﴿وَالَّذِينَ مَدِينُوا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥]. والمراد ﴿بِالْبَشَرِ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] مطلق البشارة المنتظمة بالبشارة بالولد من «سارة» لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هُود، الآية: ٧١] الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، الآية: ١٠١] إلى غير ذلك، والبشارة بعدم لحوق الضرر به، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرِ﴾ [هُود، الآية: ٧٤] لظهور تفرع المجادلة على مجيئها، وكانت البشارة الأولى على ما قيل: من «ميكائيل»، والثانية من «إسرافيل» ﷺ، وقيل: المراد بها البشارة بهلاك قوم «لوط» ﷺ، فإن هلاك الظلمة من أجل ما يبشر به المؤمن. ﴿قَالُوا سَكَنًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] أي: سلمنا أو نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] أي: عليكم سلام أو سلام عليكم، وقد حياهم ﷺ بأحسن من تحيتهم لأنها بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، وأصل معنى السلام السلامة مما يضر، ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] الحنيذ: السمين المشوي الذي يقطر ودكه، وفسره مجاهد بالمطبوخ، وإنما جاء ﷺ بالعجل لأن ما له كان البقر وهو أطيب ما فيها، وكان من دأبه ﷺ إكرام الضيف، ولذا عَجَّلَ الْقَرَى، وذلك من أدب الضيافة لما فيه من الاعتناء بشأن الضيف، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل، واختلف في هذا العجل هل

كان مهياً قبل مجيئهم أو أنه هُيئ بعد أن جاؤوا؟ قولان اختار «أبو حيان» أولهما لدلالة السرعة بالإتيان به على ذلك، ويختار الفقير ثانيهما لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام، وليست السرعة نصاً في الأول كما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هُود، الآية: ٧٠] رأى أنهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، ويلزمه أنهم لا يأكلون، يقول «الآلوسي» رحمه الله: روي أنهم كانوا ينكتون اللحم بقداح في أيديهم وليس بشيء، وفي القلب من صحة هذه الرواية شيء، إذ هذا النكت أشبه شيء بالعبث، والملائكة ﷺ يَجِلُّون عن مثله، وفي الآية دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أو لا، لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل، أي: لما شاهد منهم ذلك نفر واستشعر الخوف (قالوا) حين رأوا أثر ذلك عليه ﷺ، أو أعلمهم الله تعالى به، وجوز أن يكون ذلك لعلمهم أن علمه ﷺ أنهم ملائكة يوجب الخوف لأنهم لا ينزلون إلا بعذاب، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكره الله تعالى عليه، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ [هُود، الآية: ٧٠] خاصة، ويفهم من كلام بعضهم أنه ﷺ لم يتحقق كونهم ملائكة إلا بعد أن مسح «جبريل» ﷺ العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فحنثذ عرفهم وأمن منهم، ولم يتحقق صحة الخبر عندي، والذي أميل إليه أنه ﷺ عرفهم قبل ذلك وأن خوفه منهم لكونهم ملائكة لم يدر لأي شيء نزلوا^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا أَنْتَ فَآيَمَةُ فَضَحَكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هُود، الآية: ٧١]. كانت امرأته «سارة» ﷺ قائمة في الخدمة، وكانت نساؤهم لا يتحجن، لا سيما العجائز منهن، وكانت ﷺ عجوزاً، (فضحكت) فسر بعدة وجوه، منها الضحك المعروف، وقيل: سروراً بهلاك أهل الفساد، وقيل: سروراً بزوال الخوف عن «إبراهيم» ﷺ، وقيل: سروراً بصدق ظنها لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم «لوطاً» إليك فإنني أرى العذاب سينزل بقومه، وعن ابن عباس أنها ضحكت من شدة خوف «إبراهيم» وهو في أهله وغلمانها، والذين جاؤوه

(١) انظر روح المعاني (٩٧/١٢).

ثلاثة، وهي تعهده يغلب الأربعين، وقيل: المائة، وقال قتادة: كان ذلك من غفلة قوم «لوط» وقرب العذاب منهم.

وقال السدي: ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا وهم لا يأكلون طعامنا، وقال وهب بن منبه: وروي أيضاً عن ابن عباس أنها ضحكت من البشارة بإسحاق، وقيل: المراد بالضحك التسم، وعن ابن عباس أن (ضحكت) بمعنى حاضت، وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة.

وأنكر أبو عبيدة وأبو عبيد والفراء مجيء (ضحك) بمعنى حاض، وأثبت ذلك جمهور اللغويين، وأنشدوا قوله:

(وضحك) الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا
وقوله:

وعهدي بسلمى (ضاحكاً) في لبابة ولم يعد حقاً ثديها أن تحلما
وقوله:

إنني لآتي العروس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك (ضاحكا)
والمثبت مقدم على النافي، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

ولما بدا السرور على «سارة» رضي الله عنها تبعه سرور أتم منه حيث بشرها رسل الله تعالى بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام. فتملكتها الدهشة و قالت يَوَلِّقَ أَلَدُ وَأَنَا عَجُورٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْمًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيِّدٌ نَجِيدٌ ﴿٧٢﴾ [مُود، الأبنان: ٧٣، ٧٢] وكلمة الويل أصلها الخزي، وتعمل في كل أمر فظيع، والمراد هنا التعجب، وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه، وقال ابن إسحاق كانت ابنة تعين سنة، أو تسع وتسعين على ما روي عن مجاهد، وكان «إبراهيم» عليه السلام ابن مائة سنة أو مائة وعشرين^(١)، فبحان من بيده أمور العباد يصرفها كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، إنما أمره إذا

(١) انظر روح المعاني (١٢/١٠٠).

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون! . وتابع «الآلوسي» قوله :

﴿قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هُود، الآية: ٧٣] أي: قدرته وحكمته، أو تكوينه وشأنه سبحانه! أنكروا عليها تعجبها لأنها كانت ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي، ومحل الخوارق، فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق، من الطاف الله سبحانه الخفية، ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد ممن يتعلق بإفاضته عليه مشيئته تعالى الأزلية، لا سيما أهل بيت النبوة الذين هم هم، وأن تسبح الله تعالى وتمجده وتحمده، وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ﴾ [هُود، الآية: ٧٣] المستتبعة كل خير. ووضع المظهر موضع المضر لزيادة تشريفها، والإيماء إلى عظمتها، (وبركاته) أي: خيراته الثامة المتكاثرة التي من جملتها هبة الأولاد، وقيل: الرحمة والنبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء ﷺ منهم وكلهم من ولد «إبراهيم» عليه السلام.

وقيل: رحمته تحيته، وبركاته فواضل خيره بالخلة والإمامة، ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هُود، الآية: ٧٣] نصب على المدح أو الاختصاص كما ذهب إليه كثير من المعربين.

ثم أضاف «الآلوسي» واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وروي ذلك عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم. أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: سلام عليك ورحمة الله وبركاته ومغفرته، فانتهزه ابن عمر، وقال: حَسْبُكَ ما قال الله تعالى.

وأخرج عن ابن عباس أن سائلاً قام على الباب، وهو عند «ميمونة» فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته وصلواته ومغفرته، فقال: انتهوا بالتحية إلى ما قال الله سبحانه.

وفي رواية عن عطاء قال: كنت جالساً عند ابن عباس، فجاء سائل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فقال: ما هذا السلام؟ وغضب حتى احمرت وجنتاه، إن الله تعالى حَدَّ للسلام حَدًّا، ثم انتهى ونهى عما وراء ذلك، ثم قرأ ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هُود، الآية: ٧٣].

﴿إِنَّهُ حَيِّدٌ مَجِيدٌ﴾ [هُود، الآية: ٧٣] قال أبو الهيثم: تحمد أفعاله، وفي

«الكشاف» أي: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ففعليل بمعنى مفعول، وجَوَّز «الراغب» أن يكون ﴿حميد﴾ هنا بمعنى (حامد)، ولعل الأول أولى، و﴿مجيد﴾ كثير الخير والإحسان، وقال ابن الأعرابي: هو الرفيع، يقال: مجد كنصر وكرم مجداً ومجادة أي كرم وشرف، وأصله من مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع، وقد أمجدها الراعي إذا أوقعها في ذلك، وقال الأصمعي: أمجدت الدابة إذا أكثرت علفها، وقال الليث: أمجد فلان عطاءه ومجده إذا كثره، ومن ذلك قول أبي حية النميري:

تزيد على صواحبها وليست (بماجدة) الطعام ولا الشراب
أي ليست بكثيرة الطعام ولا الشراب، ومن أمثالهم: في كل شجر نار، واستمجد المَرْحُ والعَفَّار، أي استكثر من ذلك، وقال الراغب: أي تحرى السعة في بذل الفضل المختص به، وقال ابن عطية: مجد الشيء إذا حسنت أوصافه.

والجملة على ما في الكشف تذييل حسن لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن وتمجده إذ شرفها بما شرف، وقيل: هي تعليل لما سبق من قوله سبحانه: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنُمُ عَلَيْكُمْ﴾ [فُود، الآية: ٧٣] ^(١).

وتحققت البشرية، ووضعت «سارة» ﷺ ولدها «إسحاق بن إبراهيم» ﷺ، وعمت أهل البيت الفرحة بعد طول انتظار.

وكانت «سارة» قد وهبت «هاجر» إلى زوجها «إبراهيم» لمعرفتها بشدة حبه للولد الذي حرمت منه، فلما أتى «إبراهيم»، «هاجر» حملت، ثم ولدت له «إسماعيل بن إبراهيم» ﷺ.

قال أبو جعفر: وكانت «هاجر» جارية ذات هيئة، فوهبتها «سارة» لإبراهيم، وقالت: إنى أراها وضيئة فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت «سارة» منعت الولد فلا تلد لإبراهيم حتى أسنت، وكان «إبراهيم» قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأُخْرِتِ الدعوة حتى كبر «إبراهيم» وعقمت «سارة»، ثم إن «إبراهيم» وقع على «هاجر» فولدت له «إسماعيل» ﷺ.

(١) روح المعاني (١٢/١٠٢).

وتابع «أبو جعفر» قوله: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني ابن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم دِمةً ورحماً».

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني ابن إسحاق، قال: سألت الزهري: ما الرحم التي ذكر رسول الله ﷺ لهم؟ قال: كانت «هاجر» أم «إسماعيل» منهم، فيزعمون - والله أعلم - أن «سارة» حزنت عند ذلك على ما فاتها من الولد حزناً شديداً، وقد كان «إبراهيم» خرج من مصر إلى الشام، وهاب ذلك الملك الذي كان بها، وأشفق من شره حتى قدمها، فنزل السَّبع من أرض فلسطين، وهي بركة الشام، ونزل «لوط» بالمؤتفكة، وهي من السَّبع على مسيرة يوم وليلة، وأقرب من ذلك، فبعثه الله ﷻ نبياً، وأقام «إبراهيم» فيما ذكر لي بالسَّبع، فاحتفر به بئراً، واتخذ به مسجداً، فكان ماء تلك البئر مَعِيناً طاهراً، فكانت غنمه تردها، ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى، فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا، ببلد يقال له «قُط» أو «قُط» فلما خرج من بين أظهرهم نضب الماء فذهب، واتبعه أهل السبع، حتى أدركوه وندموا على ما صنعوا، وقالوا: أخرجنا من بين أظهرنا رجلاً صالحاً، فسألوه أن يرجع إليهم، فقال: ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه. قالوا له: فإن الماء الذي كنت تشرب منه، ونشرب معك منه قد نَضِبَ فذهب، فأعطاهم سبع أعنز من غنمه، فقال: اذهبوا بها معكم، فإنكم لو قد أوردتموها البئر، قد ظهر الماء، حتى يكون مَعِيناً طاهراً كما كان، فاشربوا منها، فلا تغترقنَّ منها امرأة حائض، فخرجوا بالأعنز، فلما وقفت على البئر ظهر إليها الماء، فكانوا يشربون منها وهي على ذلك، حتى أتت امرأة طامِث، فاغترفت منها، فنكص ماؤها إلى الذي هو عليه اليوم، ثم ثبت^(١).

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: قال أهل الكتاب: إن «إبراهيم» ﷺ سأل الله ذرية طيبة، وأن الله بشَّره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم

(١) تاريخ الطبري (١/٢٤٧، ٢٤٨).

ببلاد المقدس عشرون سنة، قالت «سارة» لإبراهيم ﷺ: إن الرب قد حرمني الولد، فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً.

فلما وهبتها له دخل بها «إبراهيم» ﷺ، فحين دخل بها حملت منه، قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاضمت على سيدتها، فغارت منها «سارة» فشكت ذلك إلى «إبراهيم» فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت «هاجر» فهربت، فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً، وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه «إسماعيل»، ويكون وحش الناس - أي: يمشي وحده ليس معه أحد - ، يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله ﷻ على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده «محمد» صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، ويُؤمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت «هاجر» وضعت «إسماعيل» ﷺ.

وقالوا: وولده وإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد «إسحاق» بثلاث عشرة سنة، ولما ولد «إسماعيل» أوحى الله إلى «إبراهيم» يبشره بإسحاق من «سارة»، فخرَّ لله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في «إسماعيل»، وباركت عليه وكثرته ونمَّيته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم، وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سَمُرَةَ، عن النبي ﷺ، قال: «يكون اثنا عشر أميراً»، ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» أخرجاه في الصحيحين.

وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائماً».

وفي رواية: «عزيراً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش». فهؤلاء

منهم الأئمة الأربعة: «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي»، ومنهم «عمر بن عبد العزيز» أيضاً، ومنهم بعض بني العباس.

وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً، بل لا بد من وجودهم.

وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم «علي بن أبي طالب» وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا، وهو «محمد بن الحسن العسكري» فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من «علي» وابنه «الحسن بن علي» حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأحمد نار الفتنة، وسَكَنَ رَحَى الحروب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمن في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن «هاجر» عليها السلام لما ولد لها «إسماعيل» اشتدت غيرة «سارة» منها، وطلبت من «الخليل» أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فصار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.

ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه «هاجر» وتعلقت بثيابه، وقالت يا «إبراهيم» أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفيننا؟ فلم يجبها.

فلما ألحّت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: أَللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذا لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ «أبو محمد بن أبي زيد» رحمته الله في كتاب «النوادر» أن «سارة» تغضبت على «هاجر» فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها «الخليل» أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها ففبر قسمها.

قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من تثقت أذنها منهن، وأول من طوّلت ذيلها^(١).

(١) البداية والنهاية (١/١٧١، ١٧٢).

ونقل «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: ماتت «سارة» وهي ابنة مائة وسبع وعشرين سنة^(١).

وكان عمرها يوم وضع ولدها «إسحاق» تسعين سنة، وعمر زوجها «إبراهيم» قد بلغ عشرين ومائة سنة.

وقد ذكر صاحب «تاريخ مدينة دمشق»^(٢) أن «إبراهيم» ﷺ و«سارة» ﷺ موكلان برعاية أطفال المسلمين في الجنة لحديث «أبي هريرة» رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أولاد المسلمين في جبل في الجنة يكفلهم «إبراهيم» و«سارة»، فإذا كان يوم القيامة دفعوهم إلى آبائهم»، فيا لها من مكرمة عظيمة امتنَّ الله تعالى بها عليهما، وما أرفعه من شرف!

ونقل ابن عساكر، عن ابن إسحاق: أن «إسحاق» ﷺ، قد أشبه أباه «إبراهيم» ﷺ فقال: كان «إسماعيل» بكر «إبراهيم» وأكبر ولده، فلما ولدت «سارة» لإبراهيم «إسحاق»، فذكر لي بعض أهل الكتاب أنها لما ولدت، جعل الكنعانيون يقولون: ألا تعجبون لهذا الشيخ ولهذه العجوز؟ وجدا صبيّاً لقيطاً فأخذه، يزعمان أنه ولدهما، وهل يلد مثلها من النساء؟ فكَوَّنَ الله صورة «إسحاق» على صورة «إبراهيم» حتى لا يراه أحد إلا قال: والله إنه لمن الشيخ^(٣).

وذكر الإمام القرطبي في تفسيره أنه كان بين البشارة بإسحاق ﷺ وبين الولادة سنة.

وقالت «سارة» ﷺ لما بشرت بإسحاق: كيف ألد وقد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء، وهذا زوجي شيخاً كبيراً لا يولد لمثله؟ إن هذا الذي بشرتمونا به لشيء عجيب مخالف لسُنَنِ الله التي سلكها في عباده، وقد ذكر (المراغي) عند تفسيره لهذه الآية (٧٢) من سورة هود^(٤).

(١) تاريخ الطبري (٢٤٩/١).

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٦).

(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٥).

(٤) تفسير المراغي (الآية ٧٢ - سورة هود).

وأما عن قول «سارة» ﷺ حين سمعت بشرى الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَنْتَوِيحُنَّ آلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [مُود، الآية: ٧٢] ، فقد علق الإمام الرازي في تفسيره الكبير، فقال: «لما تكلم الملائكة مع زوجها «إبراهيم» ﷺ بولادتها استحييت «سارة» وأعرضت عنهم، وصاحت صيحة تعجب، كما جرت عادة النساء، حين يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهذه عند الاستحياء أو التعجب، وقد استبعدت «سارة» أن تلد لوضعين من اجتماعهما فيها: الأول: كبر السن، الثاني: العقم. لأنها كانت لا تلد في صغر سنّها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، ظناً منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية^(١).

وكان «إبراهيم» ﷺ أحد الرسل الكرام الذين وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بأنهم أولو العزم حيث قال: ﴿فَأَصْبَحَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف، الآية: ٣٥] وقد اختلف في عددهم وأسمائهم، فقال الجلال السيوطي رحمه الله: إن أصحابها القول بأنهم خمسة، هم: «نوح» و«إبراهيم» و«موسى» و«عيسى» هؤلاء الأربعة ونبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، وقد ضمهم هذا البيت^(٢):

أولو العزم نوحٌ والخليلُ المصنّفُ وموسى وعيسى والحبيبُ محمّدُ
وجاء في «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد، عن عكرمة، قال: كان «إبراهيم خليل الرحمن» ﷺ يكنى: «أبا الأضياف»^(٣)، ومن قصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي، قال:

أبو الضيفان إبراهيم قصدي	خليل الله ذو المجد الأنيل
جميع الأنبياء إليه تُنمى	وفخر فيه جيل بعد جيل
عظيم القدر أوّاه حليم	وثيق القلب بالرب الجليل
وأسرار الخليل هناك لاحت	فأذهلت الخليل عن الخليل

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (١٨٤/٢٨، ١٨٥).

(٢) انظر تفسير روح المعاني (٣٥/٢٦).

(٣) الطبقات الكبرى (٤٧/١).

وكفى «سارة» من الفخر أن تكون حليمة خليل الرحمن ﷺ، وأم الأنبياء، فقد أنجبت «إسحاق» ﷺ، ثم ولد له «يعقوب» ﷺ، ثم ولد له «يوسف» ﷺ. وبعد أن مَنَّ عليها العليم العلّام، وحقق لها أغلى الأحلام، بإنجابها لإبراهيم الولد الذي تمنّاه، فقد آن لها أن تستريح.

وعلى أرض الخليل في فلسطين، أتاها هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، يدعوها إلى لقاء الله، الذي طالما لهج لسانها بذكره، وأزجت إليه أسمى المناجاة وكان إلى جانب سريرها، وهي تودع الحياة، قرّة العين وحبّة الفؤاد، حبيبها «إبراهيم» وفلذة كبدها «إسحاق» ﷺ، وهما لا يكفان عن الدعاء لها، ومدامهم تفيض بأغزر العبرات، وأما عين «سارة» الموجودة على أرض الخليل فقد تدفّق ماؤها العذب، وكأنها تود إظهار حزنها على الراحلة الغالية، ويحسن أن نختم سيرتها العطرة بهذه الأبيات للشيخ النابلسي:

بدت للعين أنوار الخليل وعمّت رحمة الرب الجليل
وإن بعين حلحول عيوناً لنا قرّت لدى ذاك السبيل
وجئنا عين «سارة» فاستقينا جميعاً من زلال سلسبيل

رحمها الله تعالى، وجزاها بخير ما جزى عباده الصالحين.

٤ - هاجر امرأة «إبراهيم» ﷺ

عندما دخل «إبراهيم» ﷺ مصر وبصحبتة امرأته «سارة» ﷺ، وكان يحكمها جبار عنيد، وفرعون متكبر شديد.

فأتاه رجل من حاشيته، وقال له: إن في أرضك ههنا رجلاً معه امرأة لها من الحسن والجمال نصيب موفور لم تحظ بمثله أنثى من بنات «حَوَّاء» ﷺ.

ولما سمع الخبيث ذلك استدعى «إبراهيم» ﷺ ليأتيه، فجاء «إبراهيم» ليعلم ما يريد، فسأله الجبار: من المرأة التي تصحبك؟ قال: هي أختي، مورياً عن أنها أخته في الإسلام، فقال له: أرسلها إليّ حتى أنظر إليها.

وأقفل «إبراهيم» ﷺ عائداً إلى بيته، وأخبر «سارة» ﷺ أن الجبار يرغب في رؤيتها، وأنه ذكر له أنها أخته - قاصداً أنها أخته في الدنيا - وطلب منها ألا تكذبه عنده حين يسألها عنه.

وانطلقت «سارة» ﷺ قاصدة قصر فرعون، وانتصب «إبراهيم» ﷺ في محرابه ليصلي ويدعو الله أن يصرف عنه وعن امرأته ما يضر لهما فرعون من سوء والأذى، وحين دخلت عليه أقبلت تتوضأ وتصلي، وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر.

ثم إن الجبار مدّ يده إليها يريد أن يمكها، فبيست إلى صدره وتحولت إلى خشبة يابسة، وغطّ فرعون حتى ركض برجله، فقالت: اللهم! إن يمّ يُقْل: هي قتلته، فأُرْسِلَ، ثم قام إليها، فعادت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر، فغطّ فرعون حتى ركض برجله، فقالت: اللهم! إن يمّ يُقْل: هي قتلته، فأُرْسِلَ، فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلا شيطاناً، ارجعوها إلى «إبراهيم» وأعطوها «هاجر».

ولقد ذهبت «سارة» إلى الجبار، ثم آبت إلى زوجها «إبراهيم» وعين الله

ترعاها، وعنايته محدقة بها تمنعها كل سوء، وقد كشف الله الحجاب لخليله «إبراهيم» ﷺ فيما بين «إبراهيم» وبينها، فلم يزل يراها منذ ذهابها حتى إيابها، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون زوجها أقرَّ عيناً وأنعم بالاً، وأسكن نفساً، وأدعى لطمأنينة قلبه، فقد كان يحبها أشد الحب لما كانت عليه من دين وتقى وصلاح.

ووصلت «سارة» إلى بيتها ومعها «هاجر» وكان «إبراهيم» ﷺ في صلاته، فلم يكذب يفرغ منها حتى بادرها بالسؤال: مَهَيْمٌ؟ أي: ما وراءك؟ فقالت: كفى الله كيد الفاجر الكافر، وأخدم «هَاجِرَ».

وحرصت «هَاجِرُ» على خدمة «سارة» و«إبراهيم» ﷺ على أكمل وجه، وأحسن صورة.

وكانت «سارة» ﷺ محبة لزوجها «إبراهيم» ﷺ ولا تألو جهداً في إسعاده، وإدخال المسرة إلى قلبه، ولما رأت عجزها عن إنجاب الولد له، وتلك كانت أعظم أمنياته، وكانت «هاجر» جارية وضيئة، وذات هيئة تسر الناظرين، فقد هداها فكرها السليم، إلى خير عميم، إنها تشتهي الولد ولا تستطيع الإنجاب بسبب عقمها، و«إبراهيم» ﷺ يتوق إلى ذلك توقاناً عظيماً، وها هي ذي «هاجر» الجميلة تعيش معهم، فلتبها له، لعل الله يرزقها بولد يسعدهم أجمعين.

يقول أبو جعفر الطبري نقلاً عن ابن إسحاق، قال:

وكانت «هاجر» جارية ذات هيئة، فوهبتها «سارة» «لإبراهيم»، وقالت: إني أراها امرأة وضيئة، فخذها، لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت «سارة» قد منعت الولد، فلا تلد لإبراهيم حتى أسنت.

وكان «إبراهيم» قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأُخْرِتِ الدعوة حتى كبر «إبراهيم» وعقمت «سارة»، ثم إن «إبراهيم» وقع على «هاجر» فولدت له «إسماعيل» ﷺ^(١). وكانت «هاجر» بذلك أمّاً للعرب أجمعين.

(١) تاريخ الطبري (١/٢٤٧).

وكان «إبراهيم» ﷺ من الحامدين الشاكرين، لأنعم رب العالمين، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٩] .

وكان سرور «إبراهيم» ﷺ عظيماً بما أنعم الله عليه، ولم لا يسرُ وامراته الحبيبة «سارة» قد أنجبت له «إسحاق» وامراته الجديدة «هاجر» قد ولدت له «إسماعيل»، أجل! إنها لنعمة سابغة من متفضل كريم، يسع بكرمه خلقه أجمعين .

وظنَّ «إبراهيم» ﷺ أن أسباب السعادة قد بَاتَتْ مِلْكَ يمينه، حين رأى وثوق المودة بين امرأتين، ومما زاد في بهجته، وفرحته أن تحذو «هاجر» حذو «سارة» وترسم خطواتها في حبها للعبادة وشدة شغفها بذكر الله، وتعلقها بالتسبيح بكرة وعشياً وحين تُظهِرُ، لقد دلَّتْها «سارة» على مسالك الإيمان، ومحبة الرحمن، فقررت سلوكها، ونفَّذت ذلك بحرص شديد، ولكن الغيرة في النساء خلق قديم، وقد ظهرت بوادرها عند «سارة» حين ظهرت على «هاجر» آثار الحمل وتباشيره .

ثم اشتدت تلك الغيرة بعد ولادة «هاجر» «لإسماعيل» ﷺ على الرغم من أن الثلاثة: «إبراهيم» و«سارة» و«هاجر» خرُّوا سجداً لرب العالمين، حمداً وشكراً وإقراراً بالفضل الجزيل الذي شملهم جميعاً .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية؛ عن سعد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أول ما اتخذ النساء المَنَظَق من قبل «أم إسماعيل»، اتخذت مَنَظَقاً لتعقي أثرها على «سارة»، ثم جاء بها «إبراهيم» وبابنها «إسماعيل» وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء .

ثم مضى «إبراهيم» منطلقاً فتبعته «أم إسماعيل» فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: أكله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت .

فانطلق «إبراهيم» حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ رَأْرَأَهُمْ مِنْ الشَّجَرَةِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٧]

وجعلت «أم إسماعيل» ترضع «إسماعيل» وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يلتوي أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرفَ ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع «زمزم»، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهي تغور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً».

فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من «جرهم» أو أهل بيت من «جرهم» مقبلين من طريق كذا، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عاثفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريئاً - رسولاً - أو جريئين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: «أم إسماعيل» عند الماء، فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: فالفى ذلك «أم إسماعيل» وهي تحب الإنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم، وماتت «أم إسماعيل».

فجاء «إبراهيم» بعدما تزوج «إسماعيل» يطالع تركته، فلم يجد «إسماعيل» فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، في ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك، اقترني عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء «إسماعيل» كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني: كيف عيشتنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غَيَّرَ عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبت عنهم «إبراهيم» ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنت؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت الماء، قال: اللهم! بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم حَبٌّ لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقترني عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء «إسماعيل» قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشتنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأمرني أن أمسكك، ثم لبت عنهم ما شاء، ثم جاء بعد ذلك، و«إسماعيل» يبري نبلاً له، تحت درجة قريباً من «زمزم»، فلما رآه قام إليه فصنعا

كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل «إسماعيل» يأتي بالحجارة، و«إبراهيم» يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، و«إسماعيل» يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة، الآية: ١٢٧]، قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة، الآية: ١٢٧] .

وعن أهل التوراة: أن «إبراهيم» أمره الله بأن يختن ولده «إسماعيل» وكل من عنده من العبيد وغيرهم، فختنهم، وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره، فيكون عمر «إسماعيل» يومئذ ثلاث عشرة سنة .

وهذا امتثال لأمر الله ﷻ في أهله، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «اختتن «إبراهيم» النبي ﷺ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»^(١) . وأما رواية أبي جعفر الطبري لبناء البيت فقد جاء فيها:

قال: ثم إن الله ﷻ أمر «إبراهيم» بعد ما ولد له «إسماعيل» و«إسحاق» - فيما ذكر - ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر، فلم يدر «إبراهيم» في أي موضع يبني، إذ لم يكن بيّن له ذلك، فضاق بذلك ذرعاً، فقال بعض أهل العلم: بعث الله السكينة لتدله على موضع البيت، فمضت به السكينة، ومع «إبراهيم» «هاجر» زوجته وابنه «إسماعيل» وهو طفل صغير .

وقال بعضهم: بل بعث الله إليه «جبرئيل» عليه السلام، حتى دله على موضعه، ويُن له ما ينبغي أن يعمل .

ذكر من قال: الذي بعثه الله إليه لذلك السكينة: حدثنا هناد بن السري،

قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعة: أن رجلاً قام إلى «علي بن أبي طالب» فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام «إبراهيم» ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بني، إن الله ﷻ أوحى إلى «إبراهيم» أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاقت «إبراهيم» بذلك ذرعاً، فأرسل ﷻ السكينة، وهي ربح خَجُوجٍ - شديدة المر - ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة، فتطوّت على موضع البيت كتطوّي الحية، وأمر «إبراهيم» أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى «إبراهيم» وبقي حَجَرٌ، فذهب الغلام يبني شيئاً، فقال «إبراهيم»: ابْنِني حجراً كما أمرت، فانطلق الغلام يلتصق له حجراً، فأتاه به، فوجده قد رُكِبَ الحجر الأسود في مكانه، فقال: يا أبت! من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به «جبرائيل» من السماء، فأتّمّاه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار وابن المشي، قالا: حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي ﷺ، قال: لما أمر «إبراهيم» ببناء البيت خرج معه «إسماعيل» و«هاجر»، فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه وقال: يا إبراهيم! ابن على ظلمي - أو على قدري - ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف «إسماعيل» و«هاجر»، فقالت «هاجر»: يا إبراهيم! إلى من تكلمنا؟ قال: إلى الله، قالت: انطلق فإنه لا يضيعنا، قال: فعطش، «إسماعيل» عطشاً شديداً، فصعدت «هاجر» الصفا، فنظرت فلم تر شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا «إسماعيل»! مُتْ حيث لا أراك، فأتته وهو يفحص - يبحث ويزيل التراب عن حفرة - برجله من العطش، فناداها «جبرائيل» فقال: من أنت؟ قالت: أنا «هاجر» أم ولد «إبراهيم»، قال: إلى من وكلكم؟ قالت: وكلمنا إلى الله، قال: وكلكم إلى كافي، قال: ففحص الغلام الأرض بإصبعه، فنبعت زمزم، فجعلت تحبس الماء، فقال: دعيه، فإنها رَوَاء - أي: ماء عذب -^(١).

وتابع أبو جعفر الطبري القول: وقال آخرون: إن الذي خرج مع «إبراهيم»

من الشام لدلالته على موضع البيت «جبرائيل» ﷺ.

وقالوا: كان إخراجهم «هاجر» و«إسماعيل» إلى مكة لما كان من غيرة «سارة» بسبب ولادة «هاجر» منه «إسماعيل».

ذكر من قال ذلك: حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي بالإسناد الذي قد ذكرناه: أن «سارة» قالت لإبراهيم: تَسَرَّ «هاجر» فقد أذنتُ لك، فوطئها، فحملت بإسماعيل، ثم إنه وقع على «سارة» فحملت بإسحاق، فلما ولدته وكبر، اقتتل هو و«إسماعيل»، فغضبت «سارة» على «أم إسماعيل» وغارت عليها، فأخرجتها، ثم إنها دعتها فأدخلتها، ثم غضبت أيضاً فأخرجتها، ثم أدخلتها، وحلفت لتقطعنَّ منها بَضْعَةً، فقالت: أقطع أنفها، أقطع أذنها، فيشينها ذلك، ثم قالت: لا، بل أخفِضها - الخفض للجارية مثل الختان للصبي - فقطعت ذلك منها، فاتخذت «هاجر» عند ذلك ذيلًا تعفي به عن الدم، فلذلك خفضت النساء، واتخذت ذبولاً، ثم قالت: لا تُسَاكِئُنِي فِي بَلَدٍ، وأوحى الله إلى «إبراهيم» أن يأتي مكة، وليس يومئذ بمكة بيت، فذهب بها إلى مكة وابنها، فوضعهما، وقالت له «هاجر»: إلى من تركتنا ههنا؟ ثم ذكر خبرها وخبر ابنها^(١).

ثم قال أبو جعفر: فلما فرغ «إبراهيم» من بناء البيت الذي أمره الله ﷻ ببنائه، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال له: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج، الآية: ٢٧]، فقال «إبراهيم» - فيما ذكر لنا - ما حدثنا به ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: لما فرغ «إبراهيم» من بناء البيت، قيل له: أذن في الناس بالحج، قال: يا رب! وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ، فنادى «إبراهيم» يا أيها الناس! كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترون الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون؟

وعن الحسن بن عرفة، قال: حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان الضبي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما بنى «إبراهيم» البيت أوحى الله ﷻ إليه: أن أذن في الناس بالحج، قال: فقال «إبراهيم»: ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً، وأمركم أن تحجوه، فاستجاب له ما سمعه من شيء، من حجر أو شجر أو أكمة، أو تراب أو شيء: لبيك اللهم لبيك! (١).

وقال أبو جعفر: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا الحسين بن واقد، عن أبي الزبير، عن مجاهد، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج، الآية: ٢٧]، قال: قام «إبراهيم» ﷺ خليل الله على الحَجَرِ فنَادَى: يا أيها الناس! كتب عليكم الحج، فاسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك!

وأضاف: حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن، قال: حدثنا سفيان، عن سلمة، عن مجاهد، قال: قيل لإبراهيم: أذن في الناس بالحج، فقال: يا رب! كيف أقول؟ قال: قل: لبيك اللهم لبيك! قال: فكانت أول التلبية (٢).

وروى أبو جعفر عن ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمر بن عبد الله بن عروة، أن عبد الله بن الزبير، قال لعبيد بن عمير الليثي: كيف بلغك أن «إبراهيم» دعا إلى الحج؟ قال: بلغني أنه لما رفع هو و«إسماعيل» قواعد البيت، وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك، وحضر الحج، استقبل اليمن، فدعا إلى الله، وإلى حج بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك! ثم استقبل المشرق، فدعا إلى الله، وإلى حج بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك! ثم إلى المغرب، فدعا إلى الله، وإلى حجه بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك! ثم إلى الشام فدعا إلى الله ﷻ، وإلى حج بيته، فأجيب: أن لبيك اللهم لبيك! ثم خرج بإسماعيل وهو معه يوم التروية، فنزل به «مِنَى» ومن معه من المسلمين، فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بهم حتى أصبح، فصلى بهم صلاة

(١) تاريخ الطبري (١/٢٦٠).

(٢) تاريخ الطبري (١/٢٦٠، ٢٦١).

الفجر، ثم غدا بهم إلى «عَرَفَة»، فقال بهم هنالك، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين: الظهر والعصر، ثم راح بهم إلى الموقف من «عَرَفَة»، فوقف بهم على «الأراك»، وهو الموقف من «عَرَفَة» الذي يقف عليه الإمام يريه ويعلمه، فلما غربت الشمس، دفع به وبمن معه حتى أتى «المزدلفة»، فجمع فيها بين الصلاتين: المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بها وبمن معه، حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة - أي: صلاة الفجر -، ثم وقف بهم على «فُزَح» من «المزدلفة» فيمن معه، وهو الموقف الذي يقف به الإمام حتى إذا أسفر، دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يصنع، حتى رمى الجمرة الكبرى، وأراه المنحر من «مِنَى»، ثم نحر وحَلَقَ، ثم أفاض به من «مِنَى» ليريه كيف يطوف، ثم عاد به إلى «مِنَى» ليريه كيف يرمي الجمار، حتى فرغ له من الحج، وأدّن به في الناس.

قال أبو جعفر: وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ، وعن بعض أصحابه: أن «جبرائيل» هو الذي كان يُري «إبراهيم» المناسك إذا حَجَّ.

ذكر الرواية بذلك عن رسول الله ﷺ:

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، قال: حدثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا ابن أبي ليلى، عن ابن مليكة، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: أتى جبرائيل «إبراهيم» يوم التروية، فراح به إلى «مِنَى» فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بِمِنَى، ثم غدا به إلى «عرفات»، فأنزله الأراك - أو حيث ينزل الناس - فصلى به الصلاتين جميعاً: الظهر والعصر، ثم وقف به، حتى إذا كان كأعجل ما يصلي أحد من الناس المغرب، أفاض حتى أتى به جَمْعاً، فصلى به الصلاتين جميعاً: المغرب والعشاء، ثم أقام، حتى إذا كان كأعجل ما يصلي أحد من الناس الفجر صلى به، ثم وقف، حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين الفجر أفاض به إلى «مِنَى»، فرمى الجمرة، ثم ذبح وحَلَقَ، ثم أفاض إلى البيت، ثم أوحى الله ﷻ إلى «محمد» ﷺ: ﴿أَنْ أَتَيْعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل، الآية: ١٢٣] (١).

وأضاف أبو جعفر الطبري رحمته الله يقول:

ثم إن الله تعالى ذكّره ابتلى خليله «إبراهيم» عليه السلام بذبح ابنه، واختلف السلف من علماء أمة نبينا عليه السلام في الذي أمرَ بذبحه من ابنه، فقال بعضهم: هو «إسحاق بن إبراهيم»، وقال بعضهم: هو «إسماعيل بن إبراهيم»، وقد رُوِيَ عن رسول الله عليه السلام كلا القولين، لو كان فيهما صحيح لم نَعُدْهُ إلى غيره، غير أن الدليل من القرآن، على صحة الرواية التي رويت عنه عليه السلام أنه قال: «هو إسحاق» أوضح وأبين منه على صحة الأخرى.

والرواية التي رويت عنه أنه قال: «هو إسحاق» حدثنا بها أبو كريب، قال: حدثنا زيد بن الحباب، عن الحسن بن دينار، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبي عليه السلام في حديث ذكر فيه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الصّافات، الآية: ١٠٧] قال: «هو إسحاق».

وقد روي هذا الخبر عن غيره من وجه أصلح من هذا الوجه، غير أنه موقوف على «العباس» غير مرفوع إلى رسول الله عليه السلام.
ذكر من قال ذلك:

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن يمان، عن مبارك، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَنْبٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الصّافات، الآية: ١٠٧] قال: «هو إسحاق».

وأما الرواية التي رويت عنه أنه هو «إسماعيل»، فما حدثنا محمد بن عمار الرازي، قال: حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، قال: حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان، عن أبيه، قال: حدثني عبد الله بن سعيد عن الصَّنَابِحي، قال: كنا عند «معاوية بن أبي سفيان»، فذكروا الذبيح: «إسماعيل» أو «إسحاق» فقال: على الخبر سقّطتم، كنا عند رسول الله عليه السلام، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله! عُدْ عليّ مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين! فضحك رسول الله عليه السلام، فقيل له: وما الذبيحان؟ يا رسول الله! فقال: «إن عبد المطلب لما أُمرَ بحفر زمزم نذر لله: لئن

سَهَّلَ اللهُ لَهُ أَمْرَهَا لِيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدِهِ.

قال: فخرج السهم على «عبد الله»، فمنعه أخواله وقالوا: أَفْدِ ابْنَكَ بِمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ، ففداه بمائة من الإبل، و«إسماعيل» الثاني.

وأورد أبو جعفر من قال من السلف: إنه «إسحاق»، ومن قال: إنه «إسماعيل». ذكر من قال: هو «إسحاق»:

- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن يمان، عن مبارك، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ۝١٧﴾ [الصافات، الآية: ١٧] قال: هو «إسحاق».

- حدثنا الحسين بن يزيد الطحان، قال: حدثنا ابن إدريس، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: الذي أُمِرَ بذبحه «إبراهيم» هو «إسحاق».

- حدثني يعقوب، قال: حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: الذبيح هو «إسحاق».

- حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ۝١٧﴾ [الصافات، الآية: ١٧] قال: هو «إسحاق».

- حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: افتخر رجل عند ابن مسعود، فقال: أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن «إسحاق» ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن محمد بن مسلم الزهري، عن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي، حليف بني زهرة، عن أبي هريرة، عن كعب الأحبار، أن الذي أُمِرَ بذبحه «إبراهيم» من ابنه «إسحاق».

- حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن شهاب: أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي، أخبره أن «كعباً» قال

لأبي هريرة: ألا أخبرك عن «إسحاق بن إبراهيم» النبي؟ قال أبو هريرة: بلى، قال كعب: لما أُرِيَ «إبراهيم» ذبح «إسحاق» قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا «آل إبراهيم» لا أفتن أحداً منهم أبداً، فتمثّل الشيطان لهم رجلاً يعرفونه، فأقبل حتى إذا خرج «إبراهيم» بإسحاق ليذبحه، دخل على «سارة» امرأة «إبراهيم»، فقال لها: أين أصبح «إبراهيم» غادياً بإسحاق، قالت: غدا لبعض حاجته، قال الشيطان: لا والله! ما لذلك غدا به، قالت «سارة»: فلمَ غدا به: قال: غدا به ليذبحه، قالت «سارة»: ليس من ذلك شيء، لم يكن ليذبح ابنه، قال الشيطان: بلى والله! قالت «سارة»: فلمَ يذبحه؟

قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قالت «سارة»: فهذا حسن بأن يطيع ربه إن كان أمره بذلك.

فخرج الشيطان من عند «سارة» حتى أدرك «إسحاق» وهو يمشي على أثر أبيه، فقال له: أين أصبح أبوك غادياً بك؟ قال: غدا بي لبعض حاجته، قال الشيطان: لا والله! ما غدا بك لبعض حاجته ولكنه غدا بك ليذبحك، قال «إسحاق»: ما كان أبي ليذبحني، قال: بلى، قال: لمَ؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال «إسحاق»: فوالله! لئن أمره بذلك ليطيعنّه، فتركه الشيطان، وأسرع إلى «إبراهيم»، فقال: أين أصبحت غادياً بابنك؟ قال: غدوت به لبعض حاجتي، قال: أما والله! ما غدوت به، إلا لتذبحه، قال: لمَ أذبحه؟ قال: زعمت أن ربك أمرك بذلك، قال: فوالله! لئن كان أمرني ربي لأفعلنّ. قال: فلما أخذ «إبراهيم»، «إسحاق» ليذبحه، وسلّم «إسحاق» أعفاه الله، وفداه بذبح عظيم.

قال «إبراهيم» لإسحاق: قم أي بُنَيَّ! فإن الله قد أعفاك، فأوحى الله إلى «إسحاق»: إني أعطيك دعوة أستجيب لك فيها، قال «إسحاق»: اللهم! فإني أدعوك أن تستجيب لي: أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة.

- حدثني عمرو بن عليّ، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه، قال: قال موسى: يا رب! يقولون: يا إله «إبراهيم» و«إسحاق» و«يعقوب»، فيم قالوا ذلك؟ قال: إن

«إبراهيم» لم يَغْدِلْ بي شيئاً قط إلا اختارني عليه، وإن «إسحاق» جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجد، وإن «يعقوب» كلما زدته بلاء زادني حسن ظن.

- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا سفيان بن عتبة، عن حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، قال: قال «يوسف» للمَلِكِ في وجهه: ترغب أن تأكل معي، وأنا والله! يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله؟

- حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، أن إبراهيم عليه السلام أُرِيَ في المنام، فقيل له: أوفِ نذرك الذي نذرت: إن رزقك الله غلاماً من «سارة» أن تذبحه.

ذكر من قال: هو «إسماعيل»:

- حدثنا أبو كريب وإسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، قال: حدثنا يحيى بن يمان، عن إسرائيل، عن ثُوَيْرٍ، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: الذبيح هو «إسماعيل».

- حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا يحيى، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا بيان، عن الشعبي، عن ابن عباس: ﴿وَقَدَّيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات، الآية: ١٠٧] قال: «إسماعيل».

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا أبو حمزة، محمد بن ميمون السكري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن الذي أُمِرَ بذبحه «إبراهيم»، «إسماعيل».

- حدثني يعقوب، قال: حدثنا هُشَيْنٌ، عن علي بن زيد، عن عمار مولى بني هاشم، وعن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: هو «إسماعيل»، يعني: ﴿وَقَدَّيْنَهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات، الآية: ١٠٧].

- حدثني يعقوب، قال: حدثنا ابن عُليَّة، قال: حدثنا داود، عن الشعبي، قال: قال ابن عباس: هو «إسماعيل».

- وحدثني به يعقوب مرة أخرى، قال: حدثنا ابن عُليّة، قال: سئل داود بن أبي هند: أيُّ ابْنَيْ «إبراهيم» أُمِرَ بذبحه؟ فزعم أن الشعبي قال: قال ابن عباس: هو «إسماعيل».

- وعن ابن وهب، قال: أخبرني عمر بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عباس، أنه قال: المُفَدَّى «إسماعيل»، وزعمت اليهود أنه «إسحاق» وكذبت اليهود.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي، وهو يقول: إن الذي أمر الله ﷻ «إبراهيم» بذبحه من ابنه «إسماعيل»، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله ﷻ، في قصة الخبر، عن «إبراهيم» وما أُمِرَ به من ذبح ابنه، أنه «إسماعيل»، وذلك أن الله ﷻ يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني «إبراهيم»، قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات، الآية: ١١٢]، ويقول: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [مُود، الآية: ٧١]، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن يأمره بذبح «إسحاق»، وله فيه من الوجود ما وعده، وما الذي أُمِرَ بذبحه إلا «إسماعيل». وقد أيد ذلك «عمر بن عبد العزيز» فيما هو آت.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن بُرَيْدَةَ بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم، فحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء اليهود، فسأله «عمر بن عبد العزيز» عن ذلك.

قال محمد بن كعب القرظي: وأنا عند «عمر بن عبد العزيز» فقال له «عمر»: أيُّ ابْنَيْ «إبراهيم» أُمِرَ بذبحه؟ فقال: «إسماعيل» والله يا أمير المؤمنين! إن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره على ما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه «إسحاق»، لأن إسحاق أبوهم.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمر بن عبيد، عن الحسن بن أبي الحسن البصري، أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني «إبراهيم»: «إسماعيل».

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: قال محمد بن إسحاق: سمعت محمد بن كعب القرظي، يقول ذلك كثيراً.

وتابع ابن جرير الطبري، يقول: وأما الدلالة من القرآن التي قلنا إنها على أن ذلك «إسحاق» أصح، فقوله تعالى مخبراً عن دعاء خليله «إبراهيم» حين فارق قومه مهاجراً إلى ربه إلى الشام مع زوجته «سارة» فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ [الصافات، الآيات: ٩٩، ١٠٠]، وذلك قبل أن يعرف «هاجر» وقبل أن تصير له «أم إسماعيل»، ثم أتبع ذلك ربنا ﷺ الخبر عن إجابته دعاءه، وتبشيريه إياه بغلام حليم، ثم عن رؤيا «إبراهيم» أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي، ولا يعلم في كتاب ذكرٌ لتبشير «إبراهيم» بولد ذكر إلا بإسحاق، وذلك قوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلْتَرْزُقْنَا يَا سَحَقَ وَيَنْزِلَ عَلَيْكَ رَحْمَةُ رَبِّكَ﴾ (٧١) [هود، الآية: ٧١]، وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ﴾ (٧٨) فَأَقْبَلَ بِنُورِهِ فِي صَرَافٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٧٩﴾ [الذاريات، الآيات: ٢٨، ٢٩]، ثم ذلك كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير «إبراهيم» بغلام، فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته «سارة»، فالواجب أن يكون ذلك في قوله: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (٨١) [الصافات، الآية: ١٠١]، نظير ما في سائر سور القرآن من تبشير إياه به من زوجته «سارة». وأما اعتلال من اعتل بأن الله لم يكن يأمر «إبراهيم» بذبح «إسحاق» وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته بولادته وولادة «يعقوب» منه من بعده، فإنها علة غير موجبة صحة ما قال، وذلك أن الله إنما أمر «إبراهيم» بذبح «إسحاق» بعد إدراك «إسحاق» السعي، وجائز أن يكون «يعقوب» وُلِدَ له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه، وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل في ذلك بقرن الكبش أنه رآه معلقاً في الكعبة، وذلك أنه غير مستحيل أن يكون حُومِلَ من الشام إلى الكعبة فعُلِقَ هنالك^(١).

ورُبَّ سائل يسأل: ما السبب الذي من أجله أُمِرَ «إبراهيم» بذبح ابنه! وجواب ذلك سنسمعه من أبي جعفر الطبري رحمته الله كما ذكره في تاريخه، حيث قال: والسبب في أمر الله ﷻ «إبراهيم» بذبح ابنه الذي أمره بذبحه، فيما دُكِرَ أنه إذ فارق قومه هارباً بدينه، مهاجراً إلى ربه، متوجهاً إلى الشام من أرض العراق، دعا الله أن يهب له ولداً ذكراً صالحاً من «سارة» فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات، الآية: ١٠٠] يعني بذلك ولداً صالحاً من الصالحين، كما أخبر الله تعالى عنه، فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات، الآيتان: ١٠٠، ٩٩]، فلما نزل به أضيافه من الملائكة الذين كانوا أرسلوا إلى المؤتفكة قوم «لوط» بشروه بسلام حليم عن أمر الله تعالى إياهم بتبشيريه، فقال «إبراهيم» إذ بشر به: هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد الغلام وبلغ السعي قيل له: أوفِ بنذرك الذي نذرت لله.

ذكر من قال ذلك:

- حدثني موسى بن هارون، قال: حدثني عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: قال: «جبرائيل» عليه السلام لسارة: أبشري بولد اسمه «إسحاق»، ومن وراء «إسحاق»، «يعقوب»، فضربت جبينها عجباً، فلذلك قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات، الآية: ٢٩]، وقالت: ﴿وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [مُود، الآية: ٧٢] ﴿قَالُوا أَنْتَجِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرَكْنُمُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [مُود، الآية: ٧٣]، قالت «سارة» لجبرائيل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر، فقال «إبراهيم»: هو إذاً لله ذبيح.

فلما كبر «إسحاق» أتي «إبراهيم» في النوم، فقيل له: أوفِ بنذرك الذي نذرت، إن نذرك الله غلاماً من «سارة» أن تذبحه، فقال لإسحاق: انطلق فقرب قرباناً إلى الله، وأخذ سكيناً وحبلاً، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال، قال له الغلام: يا أبت! أين قربانك؟ قال: يا بني! إني أرى في المنام أنني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت! افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. قال له «إسحاق»: اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عن ثيابك

حتى لا يتضح عليها من دمي شيء فتراه «سارة» فتحزن، وأسرع مَرَّ السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليّ، وإذا أتيت «سارة» فاقراً عليها السلام، فأقبل عليه «إبراهيم» ﷺ يقبله، وقد ربطه وهو يبكي، و«إسحاق» يبكي، حتى استنقع الدموع تحت خَدَّ «إسحاق»، ثم إنه جر السكين على حلقه فلم يُجِحْ - لم يقطع - السكين، وضرب الله ﷻ صفيحة من نحاس على حلق «إسحاق»، فلما رأى ذلك ضرب به على جبينه، وحرَّ في قفاه، قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۖ﴾ [الصافات، الآية: ١٠٣]، يقول: سلَّما لله الأمر، فنودي: يا إبراهيم! قد صدقت الرؤيا بالحق، التَّفَّتْ، فإذا بكبش، فأخذه وخلَّى عن ابنه، فأكبَّ على ابنه يقبله، وهو يقول: يا بني! اليوم وُهِبَ لي، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ۖ﴾ [الصافات، الآية: ١٠٧]، فرجع إلى «سارة» فأخبرها الخبر، فجزعَت «سارة» وقالت: يا إبراهيم! أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني!

وتابع ابن جرير قوله:

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: كان «إبراهيم» فيما يقال: إذا زارها - يعني هاجر - حمل على البراق يغدو من الشام، فيقبل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ معه السعي، وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته، أَرَى في المنام أن يذبحه.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم: أن «إبراهيم» حين أمر بذبح ابنه قال له: يا بني! خذ الحبل والمُذْيَةَ، ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب ليحطَبَ أهلكَ منه، قبل أن يذكر له شيئاً مما أُمِرَ به، فلما وجَّه إلى الشعب اعترضه عدو الله «إبليس» ليصده عن أمر الله في صورة رجل، فقال: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، فقال: والله! إنني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح بُنْيَك هذا، فأنت تريد ذبحه، فعرفه «إبراهيم»، فقال: إليك عني، أي عدو الله! فوالله! لأَمْضِيَنَّ لأمر ربي فيه، فلما يشس عدو الله «إبليس» من «إبراهيم» اعترض «إسماعيل» وهو وراء «إبراهيم» يحمل الحبل والشفرة، فقال له: يا غلام! هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: يحطَبُ أهلنا من هذا الشعب، قال: والله! ما يريد إلا أن يذبحك،

قال: لِمَ؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعاً وطاعة، فلما امتنع منه الغلام، ذهب إلى «هاجر» أم «إسماعيل» وهي في منزلها، فقال لها: يا أم «إسماعيل»! هل تدرين أين ذهب «إبراهيم» بإسماعيل؟ قالت: ذهب يحطبنا من هذا الشعب، قال: ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حباً له من ذلك، قال: إنه يزعم أنّ الله أمره بذلك، قالت: إن كان ربه أمره بذلك فتسليماً لأمر الله، فرجع عدو الله بغيطه لم يصب من آل «إبراهيم» شيئاً مما أراد، وقد امتنع منه «إبراهيم» وآل «إبراهيم» بعون الله، وأجمعوا لأمر الله بالسمع والطاعة، فلما خلا «إبراهيم» بابنه في الشعب - وهو فيما يزعمون شعب ثبير - قال له: يا بني! إني أرى في المنام أني أذبحك، قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

قال ابن حميد: قال سلمة: قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم: إنّ «إسماعيل» قال له عند ذلك: يا أبتِ! إن أردت ذبحي فاشدد رباطي لا يصبك مني شيء فينقص أجري، فإن الموت شديد، وإني لا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسه، واشحذ شفرتك حتى تجهز عليّ فتريحني، وإذا أنت أضجعتني لتذبحني فكُبّني لوجهي على جبيني ولا تضجعني لِسُقي، فإني أخشى إن أنت نظرت في وجهي أن تدرك رقة تحول بينك وبين أمر الله فيّ، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمي، فإنه عسى أن يكون هذا أسلى لها عني، فافعل.

قال: يقول له «إبراهيم»: نعم العون أنت يا بني! على أمر الله، قال: فربطه كما أمره «إسماعيل» فأوثقه، ثم شحذ شفرته، ثم تله للجبين، واتقى النظر في وجهه، ثم أدخل الشفرة لحلقه فقلبها الله لقفأها في يده، ثم اجتذبا إليه ليفرغ منه، فنودي: أن يا إبراهيم! قد صدّقت الرؤيا، هذه ذبيحتك فداء لابنك، فاذبحها دونه، يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَشْلَمَا وَكَلَّمُ لَجَيْنِ﴾ [الصافات، الآية: ١٠٣] وإنما تُتْلُ الذبائح على خدودها، فكان مما صدق عندنا هذا الحديث عن «إسماعيل» في إشارته على أبيه بما أشار إذ قال: كُبّني على وجهي، قوله: ﴿فَلَمَّا أَشْلَمَا وَكَلَّمُ لَجَيْنِ﴾ [١٠٣] وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابَرَهُ [١٠٤] قَدْ صَدَّقَتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٠٥] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ [١٠٦] وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَنْجٍ عَظِيمٍ [١٠٧] [الصافات، الآيات: ١٠٣-١٠٧].

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة بن دَعَامَة، عن جعفر بن إياس، عن عبد الله بن عباس، قال: خرج عليه كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل «إبراهيم» ابنه فاتَّبَعَ الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات، فأفْلَتَهُ عنده، فجاء الجمرة الوسطى، فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات، ثم أفْلَتَهُ فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات، فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من «مَيْتَى»، فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده، لقد كان أولُ الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلَّق بقرنيه في ميزاب الكعبة، وقد وَخُشَ - يعني: قد ييس^(١).

- حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن، قال: حدثنا سفيان، عن ابن خُثَيْم، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: الكبش الذي ذبحه «إبراهيم» ﷺ هو الكبش الذي قَرَّبَهُ ابن آدم فَتَقَبَّلَ منه.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد بن جبیر: ﴿وَقَدَّيْنَتُهُ يَذْبِحُ عَظِيمٍ ۝﴾ [الصَّافَات، الآية: ١٠٧] قال: كان الكبش الذي ذبحه «إبراهيم» رعى في الجنة أربعين سنة، وكان كبشاً أملح، صوفه مثل العهن الأحمر.

- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن رجل، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿وَقَدَّيْنَتُهُ يَذْبِحُ عَظِيمٍ ۝﴾ [الصَّافَات، الآية: ١٠٧] قال: كان وَعِلًّا.

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما قُدِّيَ «إسماعيل» إلا بتيس كان من الأروى، أهبط عليه من بُبَيْر، وما يقول الله: ﴿وَقَدَّيْنَتُهُ يَذْبِحُ عَظِيمٍ ۝﴾ [الصَّافَات، الآية: ١٠٧]، لذبيحته فقط، ولكنه الذبح على دينه، فتلك السنة إلى يوم القيامة، فاعلموا أن الذبيحة تدفع ميتة السوء، فضحوا عباد الله.

وقد قال «أمية بن أبي الصلت» في السبب الذي من أجله أُمِرَ «إبراهيم» بذبح ابنه شعراً، ويحقق بقبيله ما قال في ذلك، الرواية التي روينها عن السُّدِّيِّ، وأن ذلك كان من «إبراهيم» عن نذر كان منه، فأمره الله بالوفاء به، فقال:

ولإبراهيم المؤثي بالنَّذْ	رِ احْتِساباً وحامل الأجزاء
بِكِرِهٍ لم يكن ليصبر عنه	أو يراه في معشر أقيال
أي بُنْيٍّ إني نذرتك لئلا	يُحِيطاً فاصبر فدى لك خالي
واشدُّ الصَّفْدَ لا أحمِدُ عن المُك	كَيْنِ حَيْدِ الأسير ذي الأغلال
وله مُذِيَّةٌ تَخَايَلُ في اللُّح	مِ جُذَامٍ حَنِیَّةٌ كالهِلال
بينما يخلع المِراويلَ عنه	فَكَهْ رُبُّهُ بكبشٍ جُلال
فُخِذَ ذَا فأرسل ابنك إني	للذي قد فعلت ما غيرُ قال
والدُّ ينقي وأخرُ مَولُو	دُ فطارا منه بسمع فعال
رُيُّما تجزع النفوس من الأُم	رِ له فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ ^(١)

- حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا الحسين - يعني ابن واقد - عن زيد، عن عكرمة، قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصفات، الآية: ١٠٣] قال: أسلما لله جميعاً لأمر الله، رضي الغلام بالذبح، ورضي الأب بأن يذبحه، قال: يا أبت! اقذفني للوجه كيلا تنظر إليّ فترحمني، وأنظر أنا إلى الشفرة فأجزع، ولكن أدخل الشفرة من تحتي، وامض لأمر الله، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات، الآية: ١٠٣]، فلما فعل ذلك نادينه: ﴿أَن يَتَابَرَهِي﴾ [١٠٤] قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٠٥] [الصفات، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥] (٢).

وقد أدلى صاحب «زاد المعاد» بدلوه في تحديد من هو الذبيح فرأى أنه سيدنا «إسماعيل» عليه السلام، فقال «ابن القيم» رحمه الله: إنَّ الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يَكْرُ الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، و«إبراهيم» عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ خليلاً،

(١) الآيات في خزنة الأدب (٢/ ٥٤٢).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢٧٦ - ٢٧٨).

والخلة: منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وألاً يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شُغْبَةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرَةُ الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكان محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خُلِصَت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم، وتوطيد النفس عليه، فقد حصل المقصود وفُيِّدَ الذبيح، وصَدَّقَ الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب تبارك وتعالى، ومعلوم أن هذا الامتحان إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور^(١).

وقد أورد الإمام «القرطبي» في تفسيره أن «الأصمعي» سأل «أبا عمرو بن العلاء» عن الذبيح «إسحاق» كان أم «إسماعيل»؟ فقال: يا أصمعي! أين عَزَبَ عقلك؟ ومتى كان «إسحاق» بمكة؟ وإنما كان «إسماعيل»، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة^(٢).

وذكر «القرطبي» ﷺ ما قاله بعض أهل الإشارة: إن «إبراهيم» ادعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة، فقبل له: يا إبراهيم! اذبح ولدك في مرضاتي، فشمّر وأخذ الكين، وأضجع ولده، ثم قال: اللهم! تقبله مني في مرضاتك، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم! لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن تردّ قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا، رددنا ولدك إليك^(٣).

وقد أكد «ابن القيم» ﷺ إصراره على أن الذبيح «إسماعيل» فقال: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه «إسحاق» فباطل بأكثر من عشرين وجهاً.

(١) انظر زاد المعاد (١/٧٤، ٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/١٠٠).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/١٠٥).

ويضيف «ابن القيم» قائلاً: وسمعت شيخ الإسلام «ابن تيمية» - قدس الله روحه - يقول: هذا القول إنما متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر «إبراهيم» أن يذبح ابنه بِكْرَه، وفي لفظ: وحيدَه، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن «إسماعيل» هو بِكْرُ أولاده، والذي عَرَّ هؤلاء أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك «إسحاق».

قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني «إسماعيل» على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله^(١).

وقد روي أن «أبا سعيد الضرير» سئل عن الذبيح فأنشد هذه الأبيات:

إن الذبيح هُديت إسماعيلُ نطق الكتاب بذاك والتنزيلُ
شرف به خص الإله نبينا وأتى به التفسير والتأويلُ
إن كنت أمته فلا تُنكر له شرفاً به قد خُصه التفصيلُ
والذي يميل إليه قلبي بعد تفحص الآراء والحجج التي تقدم ذكرها أن
الذبيح «إسماعيل» ﷺ، وفوق كل ذي عليم، والله العلام الحكيم.

وامتدت حياة «هاجر» إلى نحو تسعين سنة كما ذكر «محمد بن سعد» في طبقاته^(٢)، ودعيت جارة الله إلى لقياءه، فلبت النداء، وكان البيت العتيق الذي بناه زوجها «الخليل» وابنها «إسماعيل» آخر ما رمقته عينها قبل أن تغمضهما إلى الأبد.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، صفة خليل الرحمن ﷺ فقال: قال الإمام أحمد: حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عرض عليّ الأنبياء، فإذا «موسى» ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت «عيسى ابن مريم» فإذا أقرب من رأيت به شبهاً «عروة بن مسعود، ورأيت «إبراهيم» فإذا أقرب من رأيت به شبهاً «دحية». تفرد به

(١) زاد المعاد (١/٧١، ٧٢).

(٢) الطبقات (١/٥٢).

الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ.

وقال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، عن عثمان - يعني ابن المغيرة - ، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم» و«موسى» و«إبراهيم»، فأما «عيسى» فأحمر جعد، عريض الصدر، وأما «موسى» فأدم جسيم قالوا له: فإبراهيم؟ قال: (انظروا إلى صاحبكم يعني نفسه).

وقال البخاري: حدثنا بنان بن عمرو، حدثنا النضر، أنبأنا ابن عون، عن مجاهد: أنه سمع ابن عباس، وذكروا له الدجال بين عينيه كافرأ (ك ف ر) فقال: لم أسمعه، ولكنه قال ﷺ: «أما «إبراهيم» فانظروا إلى صاحبكم، وأما «موسى» فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبه كأنني أنظر إليه انحدر في الوادي»^(١)!! رواه البخاري ومسلم.

كما ذكر ابن عساكر بسنده عن عروة بن الزبير في كتابه «تاريخ مدينة دمشق» صفة «هاجر» ﷺ فقال: إن «هاجر» كانت جارية من جُرْهُم، فُسِيَّتْ، فوقعت عند فرعون بمصر، فمن ثم قال أبو هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء».

قال: وكانت جارية شغراء، كحلاء، جعدة، مفلجة الثنايا، حسناء، عربية اللسان والحسب، فأعطاه - أي: ملك مصر - ألف شاة، ومائة بقرة برعايتها، وأعطاه خمسين بغيراً، وخمسين حماراً، فجاءت «سارة» إلى «إبراهيم» فقالت: أبشر، فقد صنع الله لك.

فقال «إبراهيم» ﷺ: لم يزل بي حفيأ^(٢).

وقد ألف الله بين قلبي «سارة» و«هاجر»، وأحبَّت كل منهما صاحبتهما، رغم تباين السن بينهما، وقد أفضى ذلك الحب بهاجر إلى خير عميم ملاً حياتها بالسعادة، فقد رأت سيدتها «سارة» تقف في محرابها للصلاة تارة ولمناجاة ربها

(١) البداية والنهاية (١/١٩٢، ١٩٣).

(٢) انظر تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص: ٤١٥).

تارة أخرى، ولسانها لا يكاد يكف عن تسبيح الله والثناء عليه، وراحت تسألها عن هذا الذي تتحدث إليه وتناجي به آناء الليل وأطراف النهار، وليس لها مبتغى إلا رضا، من هو؟

وسرت «سارة» بسؤال «هاجر» وأجابتها أنه الله، الذي خلق الخلائق كلها، وفطر السماوات والأرضين، وما فيها، وأسبغ النعم ظاهرة وباطنة، ولم يكن له من طلب إلى عباده إلا أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

وراق حديث «سارة» لهاجر، واخترقت كلماتها سويداء قلبها، فأمنت بالله وأتبعته هداه، وأخذت تنافس مولاتها في أمور العبادة.

وسعدت «سارة» و«إبراهيم» عليهما السلام بإيمان «هاجر» وحرصها على طاعة ربها، وفي لحظة من صفاء الروح، وسمو الفكر، بدا لسارة عليها السلام أن الشيء الذي لم تستطع أن تحققه لإبراهيم وتسعده به، وهو إنجاب الولد، قد تكون «هاجر» قادرة عليه، فأذنت لزوجها «الخليل» بوطنها، وتزوجها «إبراهيم» فحملت، لكن هذا الحمل الذي تمّ بتدبير «سارة» وإرادتها، قد أثار غيرتها، وبدأ حبها لهاجر يفتر ويخبو، وشعرت «هاجر» أن حملها قد عزّز مكانتها عند «إبراهيم» عليهما السلام ورفع من قدرها، فاستعلت على «سارة» وأخذت تتعاطم عليها، وتفاقم الأمر بينهما بعد أن وضعت «هاجر» «إسماعيل» عليه السلام، وارتفعت حدة الغيرة عند «سارة» فطلبت من «إبراهيم» عليه السلام أن يبعد ضررتها وابنها، فاستجاب «إبراهيم» لها، وخرج بهاجر و«إسماعيل» إلى مكة، وكان مولد «إسماعيل» قبل أن تضع «سارة» ولدها «إسحاق» بثلاث عشرة سنة^(١).

والحق أن هذا الأمر لم يتمّ وفاقاً لرغبة «سارة» ولا لإرادة «إبراهيم»، ولكن تمّ بتدبير العزيز العليم، الذي له الخلق والأمر، وتصريف شؤون عباده، يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ومن غير الله كان يعلم أن لهذا الولد البار «إسماعيل» شأنًا عظيمًا، وأنه سيعين أباه «إبراهيم» عليه السلام في بنيان بيت الله العتيق، وأنه سيكون نبياً كآبيه،

ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور، وهو السيد المطلق، وأمره بعباده مستوجب التنفيذ، ومن أشد طاعة الله من أنبيائه ورسله المقربين.

لقد انطلق «إبراهيم» ﷺ بهاجر وولدهما «إسماعيل» ﷺ إلى مكة وكان روح القدس «جبريل الأمين» ﷺ لهم نعم الدليل، فما أعظم فضل الله على خليله وعلى آل بيته الطيبين!

ثم رحلت «هاجر» إلى لقاء ربها راضية مرضية، ودفنت في الحجر تحت الميزاب^(١)، رحمها الله تعالى.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد نقلاً عن السيوطي - رحمهما الله تعالى - .

٥ - وَالْهَةِ امْرَأَةُ لُوطَ ﷺ

إن من أبسط قواعد الحياة بين الزوجين أن تكون المرأة مطيعة لزوجها، معينة له على أعدائه، أمينة على أسرارها، ولكن قضت مشيئة الله تعالى أن تحرم امرأة «لوط» ﷺ من كل ذلك، فأية امرأة كانت تلك التي ابتلى الله بها نبيه «لوطاً» ﷺ؟

قال تعالى في كتابه العزيز ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [التحريم، الآية: ١٥] .

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» عن السهيلي أنه قال: واسم امرأة لوط «والهة»^(١). ولما أُمِرَ إبراهيم ﷺ بالدعوة إلى عبادة الله وحده، كان ابن أخيه «لوط بن هاران» أول من آمن به، واتبع هداه، وقد أشار التنزيل العزيز إلى ذلك حيث قال: ﴿فَقَامَ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت، الآية: ٢٦] ، ولكن امرأته «والهة» أبت متابعتة، وأعرضت عن دخول واحة الإيمان، وأصررت على الكفر والعصيان، وسلكت سبيل الشيطان، فجمعت بين عداوتين قبيحتين، أولاهما: عداوتها لله، وثانيهما: عداوتها لزوجها نبي الله، وكفى بذلك مؤهلاً لها لتدخل النار، مع الداخلين من المستكبرين والفجار والكافرين.

وذكر القرآن الكريم امرأة «لوط» ﷺ في ثمانية مواضع، شملت سورة الأعراف، وهود، والحجر، والشعراء، والنحل، والعنكبوت، والصافات، والتحريم.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَقْلَعَهُ إِلَّا أَمْرَانَا كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف، الآيات: ٨٠ - ٨٤] .

وجاء في تفسير الألوسي «روح المعاني» لهذه الآيات: (ولوطاً) هو ابن هاران بن تارخ، وابن إسحاق ذكر بدل تارخ «آزر»، وأكثر النسابين على أنه ﷺ ابن أخيه «إبراهيم» ﷺ، ورواه في المستدرک عن ابن عباس ﷺ.

وأخرج ابن عساکر عن سليمان بن صرد: أن أبا «لوط» ﷺ عم «إبراهيم» ﷺ، وقيل: إن «لوطاً» كان ابن خالة «إبراهيم»، وكانت «سارة» زوجته أخت «لوط»، وكان في أرض بابل من العراق «إبراهيم» فهاجر إلى الشام، ونزل فلسطين، وأنزل «لوطاً» الأردن، وهو كرة - كورة - بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل «سدوم» وهي بلدة بحمص.

وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساکر، عن ابن عباس ﷺ، قال: أرسل «لوط» إلى المؤتفكات، وكانت قرى «لوط» أربع مدائن سدوم، وأمورا، وعامورا وصوبير، وكان في كل قرية مائة ألف مقاتل، وكان أعظم مدائنهم «سدوم»، وكان «لوط» يسكنها وهي من بلاد الشام ومن فلسطين مسيرة يوم وليلة.

وقد أخرج البيهقي وغيره، عن عمرو بن دينار، قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم «لوط»، والذي حملهم على ذلك - كما أخرج ابن عساکر وغيره، عن ابن عباس ﷺ - أنهم كانت لهم ثمار في منازلهم وحوايطهم ثمار خارجة على ظهر الطريق، وأنهم أصابهم قحط وقلة من الثمار، فقال بعضهم لبعض: إنكم إن منعت ثماركم هذه الظاهرة من أبناء السبيل كان لكم فيها عيش، قالوا: بأي شيء نمنعها؟ قالوا: اجعلوا ستكم أن تكحوا من وجدتم في بلادكم غريباً، وتغرموه أربعة دراهم، فإن الناس لا يظهرون ببلادكم إذا فعلتم ذلك ففعلوه واستحكم فيهم.

وفي بعض الطرق أن إبليس عليه اللعنة، جاءهم عند ذكرهم ما ذكروا في

هيئة صبي أجمل صبي رآه الناس فدعاهم إلى نفسه فكحوه، ثم جرؤوا على ذلك.

وجاء في رواية ابن أبي الدنيا، عن طاوس: أن قوم «لوط» إنما أتوا أولاً النساء في أدبارهن، ثم أتوا الرجال، وفي قوله: ﴿مِنْ ذَوِي السَّاءِ﴾ دون من الناس مبالغة لا تخفى.

وإثر نصح «لوط» ﷺ لقومه ببذ هذه الفاحشة المقيتة، اقترح المتكبرون، وقالوا للمباشرين ذلك العمل الشنيع: أخرجوهم من قريتكم ومقصودهم السخرية بلوط ﷺ، ومن معه.

ولما أبوا الاستجابة إلى دعوة «لوط» ﷺ قضت المشيئة بهلاكهم، وأرسل الله مطراً عجيماً لم يكن من الماء، بل كان من حجارة من سجيل، لقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَنظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِيلٍ﴾ [الحجر، الآية: ٧٤]، فنجي «لوط» ﷺ وأهله، أي من اختص به واتبعه من المؤمنين سواء أكانوا من ذوي قرابته ﷺ أم لا؟، وقيل: ابتناه: «ريثاً» و«يغوثة».

واستثنيت امرأته «والهة» من النجاة، وفي رواية: أنه ﷺ أخرجها مع أهله، ونهاهم عن الالتفات، فالتفت هي، فأصابها حجر فهلكت، ﴿فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَنَقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٤] أي مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء، وذكر «الآلوسي» رحمه الله: وقد مكث «لوط» ﷺ على ما في بعض الآثار ثلاثين سنة يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم، فلم يجيبوه، وكان «إبراهيم» ﷺ يركب حماره، فيأتيهم وينصحهم فيأبون أن يقبلوا، فكان يأتي بعد أن أيس منهم فينظر إلى «سدوم»، ويقول: «سدوم»! أي يوم لك من الله تعالى سدوم! حتى بلغ الكتاب أجله، فكان ما قص الله تعالى على نبيه ﷺ.

وتابع «الآلوسي» القول: ثم إن «لوطاً» ﷺ كما أخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن الزهري، لما عذّب قومه لحق بإبراهيم ﷺ فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى إليه، وفي هذه الآيات دليل على أن اللواط من أعظم الفواحش.

(١) انظر تفسير (روح المعاني) (١٦٨/٨ - ١٧١).

وجاء في خبر أخرجه البيهقي في «الشُّعَب»، عن أبي هريرة ؓ وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعة من خلقه فوق سبع سموات، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، ولعن بعد كل واحد لعنة لعنة فقال: ملعون ملعون من عَمِلَ قَوْمَ لُوطٍ الحديث.

وجاء أيضاً: أربعة يصبحون في غضب الله تعالى، ويمنون في سخط الله تعالى، وعَدَّ منهم من يأتي الرجل.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وغيره، عن مجاهد ؓ أن الذي يعمل ذلك العمل لو اغتسل بكل قطرة من السماء، وكل قطرة من الأرض لم يزل نجساً، أي أن الماء لا يزيل عنه ذلك الإثم العظيم الذي بَعَّده عن ربه، والمقصود تهويل تلك الفاحشة. وألحق بها بعضهم «السحاق»، وبدأ أيضاً في قوم «لوط» ؓ، فكانت المرأة تأتي المرأة، فمن حذيفة ؓ: إنما حَقَّ القول على قوم «لوط» ؓ حين استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال. وعن أبي حمزة ؓ، قلت لمحمد بن علي: عذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وآخرون إتيان المرأة في عجزيتها.

واستدل بما أخرج غير واحد، عن علي كرم الله وجهه: أنه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكواء: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال كرم الله تعالى وجهه: سَفُلْتُ سَفُلَ اللهُ تعالى بك، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٠].

ولا يخفى أن ذلك لا يتم إلا بطريق القياس، وإلاً فالفاحشة في الآية مبينة بما علمت. نعم جاء في آثار كثيرة ما يدل على حرمة إتيان الزوجة في عجزيتها، والمسألة خلافية، والمعتمد فيها الحرمة.

ولا فرق في «اللواط» بين أن تكون بمملوك أو تكون بغيره.

واختلفوا في كفر مستحل وطء الحائض ووطء الدبر، وفي «التتارخانية» نقلاً عن «السراجية»: اللواط بمملوكه أو مملوكته أو امرأته حرام، إلا أنه لو استحلّه لا يكفر، وهذا بخلاف اللواط بأجنبي فإنه يكفر مستحلها قولاً واحداً.

وما ذكر مما يعلم ولا يعلم، كما في «الشرنبلالية» لثلا يتجراً الفسقة عليه بظنهم حله، وفي سورة «هود» قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَعِيفِ الْإِنْسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۝٨٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٨٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ سَدِيدٌ ۝٨٥﴾ قَالُوا بَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأْتِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمَرْنَاكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمَرْنَا جَعَلْنَاهَا عَلَيْهِمْ حَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجَالٍ مَّنْضُودٍ ۝٨٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿ [هود، الآيات: ٧٧ - ٨٣] .

قال «الآلوسي» في تفسير هذه الآيات: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: انطلقوا من عند «إبراهيم» عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه ^(١) في صورة غلمان حسان الوجوه فلذلك سيئ بهم أي أحدث له عليه السلام مجيئهم المساء لظنه أنهم أناس، فخاف أن يقصدهم قومه، ويعجز عن مدافعتهم، وقيل: كان بين القريتين ثمانية أميال فأتوها عشاء، وقيل: نصف النهار، ووجدوا «لوطاً» في حرث له .

وقيل: وجدوا بنتاً له تستقي ماء من نهر «سدوم»، وهي أكبر محل للقوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئاتهم فخافت عليهم من قوم أبيها، فقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها، فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا: إنا نريد أن تضيفنا الليلة، فقال: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم في الأرض، وقد كان الله تعالى قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم «لوط» أربع شهادات .

فلما قال هذه، قال «جبريل» عليه السلام: هذه واحدة، وتكرر القول منهم حتى كرر «لوط» الشهادة، فتمت الأربع، ثم دخل المدينة، فدخلوا معه منزله ^(٢)، وبينما كان «لوط» عليه السلام في بيته مع أضيافه، أقبل قومه إليه مسرعين يريدون فعل

(١) روح المعاني (٨/ ١٧١ - ١٧٣).

(٢) روح المعاني (١٢/ ١٠٤ - ١٠٥).

الفاحشة بهم، فعرض عليهم «لوط» بناته يتزوجونهن فهن أحل لهن وأطهر، وكانوا قد خطبوهن من قبل إلا أنه ردّهن لما يعلم من خبيثهم وعدم كفاءتهم لبناته الطاهرات، ولعدم جواز زواج المؤمنات من الكفار، فإن ذلك كان جائزاً حتى منعه رسول الله ﷺ بعد أسر صهره «أبي العاص بن الربيع» في غزوة بدر، وتخليه سبيله على شرط أن يسرح ابنته «زينب» ويرسلها إليه في المدينة، ثم أثنى عليه رسول الله ﷺ لأنه أوفى بما وعد، ولما أسلم ردّها عليه رسول الله ﷺ بالنكاح الأول كما جاء في الخبر. وقالوا له: لا رغبة لنا في بناتك لأنك كنت ترى أن لا حق لنا بهن، وإنك لتعلم أن رغبتنا في الذكور، فقال لهم: وددت لو أن قوتي تمكّني من دفعكم بنفسي عنهم، أو ألجأ إلى ركن شديد أتمنع به عنكم وانتصر به عليكم.

قال «الآلوسي» في تفسير الآية: وقد عدّ رسول الله ﷺ هذا القول منه ﷺ بادرة واستغربه، فقد أخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «رحم الله تعالى أخي لوطاً، كان يأوي إلى ركن شديد» يعني عليه الصلاة والسلام به الله تعالى، فإنه لا ركن أشد منه ﷺ.

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد وجاء أنه ﷺ لهذه الكلمة، لم يبعث بعد «لوط» نبياً، إلا في منعة من عشيرته، وفي البحر أنه يجوز - على رأي الكوفيين - أن تكون (أو) بمعنى (بل) ويكون ﷺ قد أضرب عن الجملة السابقة، وقال: بل آوي في حالي معكم إلى ركن شديد وكُنّي به عن جناب الله تعالى، ولا يخفى أنه يأبى الحمل على هذه الكناية تصريح الأخبار الصحيحة بما يخالفها، وقرأ «شيبه» و«أبو جعفر» (آوى) بالنصب على إضمار أن بعد (أو) فيقدر بالمصدر عطفاً على (قوة)، ونظير ذلك قوله:

وَلَوْ لَا رَجَالٌ مِنْ رِزَامِ أَعِزَّةٍ وَأَلْ سُبَيْعٍ أَوْ أَسْوَأَكَ عَلَقَمًا

أي: لو أن لي بكم قوة أو أويأ، روي أنه ﷺ أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ﷺ ما على «لوط» من الكرب ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾

[مُود، الآية: ٨١] بضر ولا مكروه، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب، فدخلوا، فاستأذن «جبريل» ﷺ رب العزة في عقوبتهم، فأذن له، فلما دنوا طمس أعينهم، فانطلقوا عمياً يركب بعضهم بعضاً، وهم يقولون: النجاء، النجاء، فإن في بيت «لوط» قوماً سحرة.

وفي رواية: أنه ﷺ أغلق الباب على ضيفه فجاءوا فكسروا الباب، فطمس «جبريل» أعينهم، فقالوا: يا لوط! جئتنا بسحرة، وتوعده، فأوجس في نفسه خيفة، قال: يذهب هؤلاء ويذرونني، فعندها قال «جبريل» ﷺ: (لا تخف إنا رسل ربك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك). روي أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هي، فلما سمعت هذه العذاب التفتت، وقالت: يا قوماء! فأدركها حجر فقتلها^(١).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [مُود، الآية: ٨٢] أي وقت عذابنا أو الأمر به، فالأمر على الأول واحد الأمور، وعلى الثاني واحد الأمور ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا﴾ [مُود، الآية: ٨٢] وهي مدائن قوم «لوط» وهي: المؤتفكات، وهي خمس مدائن: ميعة، وصعرة، وعصره، ودوما، وسدوم.

وقيل: سبع أعظمها سدوم، وهي القرية التي كان فيها «لوط» ﷺ، وكان فيها على ما روي عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله تعالى من ذلك.

وقيل: إن هذا العدد إنما كان في المدائن كلها.

وقيل: إن ما كان في المدائن أكثر من ذلك بكثير، والله تعالى أعلم.

روي أن «لوطاً» ﷺ سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض حتى وصل إلى «إبراهيم» ﷺ، ثم إن «جبريل» ﷺ اقتلع المدائن بيده، وفي رواية: أدخل جناحه تحت المدائن فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الإعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع

(١) انظر روح المعاني (١٢/١٠٨ - ١١٠).

السليمة، ولا ينبغي أن يجعل الكلام كناية عن إنزال أمر عظيم فيها كما يقول القائل: اليوم قلبت الدنيا على فلان، لما فيه من العدول عن الظاهر، والانحراف عما نطقت به الآثار من غير داع سوى استبعاد مثل ذلك، وما ذلك ببعيد، وإسناد الجعل إلى ضميره تعالى باعتبار أنه المسبب فهو إسناد مجازي، باعتبار اللغة، وإن كان سبحانه هو الفاعل الحقيقي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، فإن ما يتولاه العظيم من الأمور فهو عظيم ويقوي ذلك ضمير العظمة أيضاً. وأمطر الله تعالى حجارة من طين متحجر معلمة.

قال ابن جريج: ليست من حجارة الأرض.

قال ابن عباس والحسن: معلمة ببياض وحمرة، وفي رواية أخرى لابن عباس: أنه كان بعضها أسود فيه نقطة بيضاء، وبعضها أبيض فيه نقطة سوداء.

وعن الربيع أنها كانت معلمة باسم من يرمى بها.

وكان بعضها كما قيل: مثل رؤوس الإبل، وبعضها مثل مباركها، وبعضها مثل قبضة الرجل، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [عُود، الآية: ٨٣] لم تكن الحجارة لتخطئهم.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۖ قَالُوا لَا نَزَلُ إِلَّا نُبَشِّرَكَ بِمَلَكٍ عَلِيمٍ ۖ قَالُوا أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ ۖ قَالُوا بِشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ ۖ قَالِ وَمَنْ يَفْقَهُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ۖ إِلَّا الصَّالُونَ ۖ قَالِ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ ۖ قَالِ مَا لَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ قَالِ أَمَرْتُمْ قَدْ زَبَدْنَا ۖ إِنَّا لَمِنَ الْغَائِبِينَ ۖ قَالِ لُوطُ الْمُرْسَلُونَ ۖ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۖ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِطُغْيَانِ الْيَلِ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ۖ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۖ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْعِفِينَ ۖ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ قَالِ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُوهُ ۖ وَانْفِرُوا لِلَّهِ وَلَا تَحْزَنُوا ۖ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۖ قَالِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۖ لَعَنَّا لِهَيْئَتِهِمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۖ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ۖ فَجَعَلْنَا

عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٧﴾
وَأَنَّهَا لِسِجِّيلٍ مُّقْبَرٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ [الحجر، الآيات: ٧٧-٥١].

ما أروع هذا البيان! وما أعظم بلاغة القرآن! لقد وقف أرباب الفصاحة حياله عاجزين، وانقلب الذين حاولوا محاكاته وتقليده خاسئين، وأنى للمخلوق أن يبلغ شأو كلام أحسن الخالقين؟ وقد أسعفني الخاطر بهذه الآيات^(١):

نَزَّهْتُ طَرْفِي فِي أَحَبِّ مَعَانٍ	وَأَخَذْتُ أَبْحَثُ عَنْ أَجَلِّ بَيَانٍ
وَسَأَلْتُ فَرَسَانَ الْبَيَانِ فَجَاءَنِي	عَنْهُمْ فَرَائِدُ قَدْ خَلَبْنَ جَنَانِي
لَكِن عَيْنِي لَمْ تَقَرَّ بِمَا رَأَتْ	وَالأُذُنُ لَمْ تَنْعَمْ بِالْأَطْمِنَانِ
حَتَّى وَقَفْتُ أَمَامَ أَكْمَلِ مُنْزَلٍ	وَتَلَوْتُ بَعْضَ رَوَائِعِ الْقُرْآنِ
وَالْحَقُّ أَنِّي لَمْ أَجِدْ كِكَلَامِهِ	مَبْنًى وَلَمْ أَرْ مِثْلَهُ كَمَعَانٍ
مَهْمَا ارْتَقَى أَهْلُ الْبَيَانِ وَأَيَنْعَت	أَفْكَارَ مَا أَفْضَى بِهِ الثَّقَلَانِ
نُورَ مَبِينٍ جَاءَ مِنْ مَتَفَضَّلٍ	عَمَّ الْأَنَامُ بِأَفْضَلِ الْإِحْصَانِ
وَأَفَاضَ خَيْرًا مِّذْ أَهْلٍ بِشِيرِهِ	بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيِّ خَيْرَ لِّسَانٍ
وَلَقَدْ أَتَى حِينَ عَلَيْهِمْ قَبْلَهُ	كَانَ الْحَلِيمُ يَهِيمُ كَالْحِيرَانِ
حَتَّى إِذَا مَسَّ الْقُلُوبَ ضِيَاؤُهُ	بَاتَتْ عَيُونُهُمْ مَعَ الْأَذَانِ
أَسْرَى هِدَايَتِهِ الَّتِي كَشَفَتْ لَهُمْ	فَضْلَ (الْكَرِيمِ) عَلَى بَنِي الْإِنْسَانِ

إنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، يهدي إلى الرشd فآمنّا به، والحمد لله الذي أنزله على أشرف خلقه «محمد» ﷺ.

وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا المثنى، قال: أخبرنا إسحاق، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، قال: حدثني عبد الصمد أنه سمع وهب بن منبه يقول: كان أهل «سُدُوم» الذين فيهم «لوط» قومٌ سَوَاءٌ، قد استغنوا عن النساء بالرجال، فلما رأى الله ذلك منهم بعث الملائكة ليعذبوهم، فأتوا «إبراهيم» فكان أمره وأمرهم ما ذكره الله تعالى في كتابه، فلما بشرُوا «سارة» بالولد قاموا وقام

(١) الآيات من قصيدة للشاعر محمد راجي كناس بعنوان: (مع النور المبين).

معهم «إبراهيم» يمشي، فقال: أخبروني لِمَ بعثتم وما خطبكم؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم «سَدُومَ» لندمّرهما فإنهم قوم سَوَاءٌ، قد استغنوا بالرجال عن النساء.

قال «إبراهيم»: أرايتم إن كان فيهم خمسون رجلاً صالحاً؟ قالوا: إذا لا نعذبهم، فلم يزل ينقص حتى قال أهل البيت، قالوا: فإن كان فيهم بيتٌ صالح، قال: فلو طو وأهل بيته، قالوا: إن امرأته هواها معهم.

فلما يثس «إبراهيم» انصرف ومضوا إلى أهل «سَدُومَ» فدخلوا على «لوط»، فلما رأتهم امرأته أعجبا حُنُهم وجمالُهم، فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوماً قط أحسن منهم ولا أجمل، فتسامعوا بذلك، فعشّوا دار «لوط» من كل ناحية، وتسوّروا عليهم الجدران، فلقبهم «لوط» فقال: يا قوم! لا تفضحون في ضيفي، وأنا أزوجهم بناتي فهنّ أطهر لكم، فقالوا: لو كنا نريد بناتك، لقد عرفنا مكانهن، فقال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، فوجد عليه الرسل - الملائكة - فقالوا: إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، فمسخ أحدهم أعينهم بجناحه، فطمس أبصارهم، فقالوا: سحرنا، انصرفوا بنا حتى نرجع إليه، فكان من أمرهم ما قد قص الله تعالى في القرآن، فأدخل «ميكائيل» وهو صاحب العذاب جناحيه حتى بلغ أسفل الأرضين، فقلبها، فنزلت حجارة من السماء، فتتبع من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله، ونجّى «لوطاً» وأهله إلا امرأته^(١).

تلك كانت خيانة «والهة» امرأة «لوط» ﷺ حيث كشفت سر زوجها بوجود ضيوف حسان لديه لقومه، رغم علمها بفسادهم وسوء طواياهم.

وفي رواية غير وَهْب بن منبه أن الذي قلبها «جَبْرَائِيلُ» ﷺ.

- حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، قال: حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: أخذ «جَبْرَائِيلُ» قوم «لوط» من سَرَحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها.

- حدثنا أبو كريب مرة أخرى، عن مجاهد، فقال: أدخل «جَبْرَائِيلُ» جناحيه

تحت الأرض السفلى من قوم «لوط»، ثم أخذهم بالجنح الأيمن، وأخذهم من سرخهم ومواشيهم، ثم رفعها.

- حدثني المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، قال: وحدثني هذا ابن أبي نجيح، عن إبراهيم بن أبي بكر، قال: ولم يسمعه ابن أبي نجيح من مجاهد، قال: فحملها على خوافي جناحيه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أول ما سقط منها شرافها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ۖ﴾ [الحجر، الآية: ٧٤] ،

- حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، قال: بلغنا أن «جبرائيل» ﷺ أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف^(١). وجاء في الحديث عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم «لوط» فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، رواه الترمذي.

وفي سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [١٨] ﴿إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ [٢٩] قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۖ﴾ [العنكبوت، الآيات: ٢٨-٣٠] ، لقد ابتدعتم هذه الفاحشة التي لم يسبقكم أحد إليها، وكل من كانوا قبلكم كانوا يتحاشون عنها لأنها مما تشمئز منه الطباع السليمة، إنكم تدعون ما أحل الله لكم نكاحه من النساء حلالاً، وتأتون الرجال من دونهن، وهو حرام عليكم، ولم يكفكم هذا الفعل الشنيع حتى رحتم تقطعون على الناس السبيل وتكلفون الغرباء والمارة تلك الفعل القبيحة بإتيانهم مكرهين، فـتـقـطـعـون بـذلك النـسل، وتـقـتـلـون النـاس، وتـسـلبـونهم أـمـوالهم، وفـوق هـذا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

وذاك تأتون المنكر سرّاً وعلانية في مجالسكم.

وذكر «الآلوسي» ﷺ في تفسير الآية: أخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والطبراني، والبيهقي في «الشُّعَب»، وغيرهم، عن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَائِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [التَّكْوِيْتُ، الآية: ٢٩]، فقال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون - يرمون بالحصى أو النوى - أبناء السيل ويسخرون منهم».

وعن مجاهد، ومنصور، والقاسم بن محمد، وقتادة، وابن زيد: هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً.

وعن مجاهد أيضاً هو لعب الحمام، وتطريف الأصابع - أي: تزيينها وصبغها - بالحناء، والصفير، والخذف، ونبد الحياء في جميع أمورهم.

وعن ابن عباس: هو تضارطهم وتصافعهم فيها.

وفي رواية أخرى عنه: هو الخذف بالحصى، والرمي بالبنادق، والفرقة، ومضغ العلك، والسواك بين الناس، وحلُّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، ولم يأت في قصة «لوط» ﷺ أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى، كما جاء في قصة «إبراهيم» لأن «لوطاً» كان من قوم «إبراهيم»، وفي زمانه، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده^(١)، لقد ابتلى الله تعالى «لوطاً» بشر قوم، ثم أخرجهم من بين ظهرائهم، وأخذهم أخذاً وبيلاً.

ولا غَرْوَ أَنْ تَقِفَ «والهة» في صف المعادين لزوجها «لوط» ﷺ وتكون حرباً عليه، سلماً لمن عاداه، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤، ١٥) [التَّحَاثُّ، الآيتان: ١٤، ١٥] فالمعاداة بين الأزواج حاصلة وعقوق الأولاد لأبائهم لا ينكر، وقد بيّن التنزيل المبين كيف وقفت امرأة «نوح» ﷺ مع القوم الكافرين، ونسبت إليه الجنون وهو العاقل الحكيم، ولا أدل على عقله وحكمته،

من اصطفاء الله تعالى له لحمل رسالته، وما كان الله ليصطفى المجانين ليدعوا العقلاء إلى عبادته، لأن العقول السليمة ترفض ذلك وتأباه ولا تُسيغه، فالمجنون لا يهتدي لخير نفسه، فكيف يحمله إلى سواء؟

وكذلك تحدث التنزيل العزيز عن عقوق «كنعان بن نوح» لأبيه، ووقوفه مع من يعاديه، ورفضه لدعوته، رغم شدة حرص «نوح» ﷺ على تخليصه من ربقة الكفر، ورغبته الملحة في نجاته من الغرق مع الكفرة والمعاندين.

إن الأزواج والأولاد والأموال إن هي إلا فتنة وابتلاء يختبر بها المؤمنون للثبث من صحة إيمانهم وصلابته، ومدى صبرهم واحتمالهم وقدرتهم على اجتياز مثل هذه المحنة عند تعرضهم لها، والسعيد السعيد من حالفه النجاح في الامتحان، واستعان بالله العظيم أكرم مستعان.

وقد يقال: إن عداوة الأزواج والأولاد من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات، والأمور النافعة لهم في آخرتهم، وقد يكونون سبباً في حملهم على السعي في اكتساب الحرام، وركوب مراكب الآثام لمنفعة ذواتهم، وتأمين طلباتهم، وإن كانت مرهقة، أولم تكن الحاجة ماسة إليها، أو ثمة ضرورة تحض على تأمينها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجته وولده، يعيرانه بالفقر، فيركب مراكب سوء فيهلك».

وربّ قوم حملهم الحب لأزواجهم وأولادهم، والشفقة عليهم، على أن يكونوا في عيش رغيد في حياتهم أو بعد مماتهم فيكدحون ويكدون، ويقعون في المحظورات والمحاذير دون تبصر بعواقب سوء التي تنتظرهم أن تنشر الصحائف، ويحين الحساب، الآتي من غير شك ولا ارتياب.

فليحرص المؤمن على مرضاة الله، ومرضاة رسوله ﷺ، وإن سخط الناس جميعاً، ولتكن زَادُهُ التقوى فإنها خير زاد، وهي سبيل النجاة لمن يرجوها يوم المعاد.

٦ - رِغْلَةُ امْرَأَةِ ذَبِيحِ اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ

كان «إبراهيم» الخليل ﷺ تواقاً إلى الذرية الصالحة، غير أن امرأته «سارة» لم تستطع أن تحقق له هذه الأمنية الغالية لأنها عقيم لا تلد.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب «إبراهيم» ﷺ غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات، الآية: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٣]، وبيننا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجلاً فقال: إن في أرضك - أو قال: ههنا - رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي، قال: اذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى «سارة»، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك.

قال: فانطلق بها، وقام «إبراهيم» ﷺ يصلي، قال: فلما دخلت عليه فرأها، أهوى إليها، وذهب يتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت له، فأرسل، فأهوى إليها، فذهب يتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله ولا أضرك، فدعت له، فأرسل، ثم فعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين، فأرسل، قال: فدعا أدنى حجابيه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها «هاجر»، فأخرجت وأعطيت «هاجر»، فأقبلت بها، فلما أحس «إبراهيم» ﷺ بمجيئها افتل من صلاته، فقال: مَهَيْمٌ^(١)؟ فقالت: كفى الله الفاجر الكافر! وأخدم «هاجر».

(١) مَهَيْمٌ؟: ما خبرك؟ ما وراءك؟

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حَدَّثَ هذا الحديث يقول: فتلك أمكم يا بني ماء السماء!^(١)

وروى الطبري عن ابن إسحاق، قال: وكانت «هاجر» جارية ذات هيئة، فوهبتها «سارة» لإبراهيم، وقالت: إني أراها امرأة وضيفة فخذها، لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت «سارة» قد مُنِعَت الولد، فلا تلد لإبراهيم حتى أَسَنَّت، وكان «إبراهيم» عليه السلام قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأُخْرِتِ الدعوة حتى كبر «إبراهيم» وعقمت «سارة»، ثم إن «إبراهيم» وقع على «هاجر»، فولدت له «إسماعيل» عليه السلام^(٢).

وأضاف الطبري: حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي - بالإسناد الذي ذكرناه - أن «سارة» قالت لإبراهيم: تَسَرَّ «هاجر»، فقد أذنت لك فوطئها، فحملت بإسماعيل، ثم وقع على «سارة» فحملت بإسحاق، فلما ولدته وكبر، اقتتل هو و«إسماعيل» فغضبت «سارة» على «أم إسماعيل»، وغارت عليها، فأخرجتها، ثم إنها دعتها فأدخلتها، ثم غضبت أيضاً فأخرجتها، ثم أدخلتها، وحلفت لتقطعنَّ منها بَضْعَةً - قطعة - ، فقالت: أقطع أنفها، أقطع أذنها فيشينها ذلك، ثم قالت: لا بل أخفِضُها - الخفض للجارية مثل الختان للصبي - ، فقطعت ذلك منها، فاتخذت «هاجر» عند ذلك ذيبلاً تُعَفِّي به عن الدم، فلذلك خفضت النساء واتخذت ذيبولاً، ثم قالت: لا تُسَاكِنِي في بلد.

وأوحى الله إلى «إبراهيم» عليه السلام أن يأتي مكة، وليس يومئذ بمكة بيت، فذهب بها إلى مكة وابنها فوضعهما، وقالت له «هاجر»: إلى من تركتنا ههنا؟ ثم ذكر خبرها وخبر ابنها^(٣).

ثم قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: حدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا يحيى بن عباد، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن

(١) تاريخ الطبري (٢٤٥/١)، (٢٤٦).

(٢) تاريخ الطبري (٢٤٧/١).

(٣) تاريخ الطبري (٢٥٣/١)، (٢٥٤).

جبیر، عن ابن عباس، قال: جاء «إبراهيم» ﷺ نبي الله بإسماعيل و«هاجر» فوضعهما بمكة في موضع «زمزم»، فلما مضى نادته «هاجر»: يا إبراهيم! إنما أسألك ثلاث مرات: من أمرك أن تضعني بأرض ليس فيها زرع ولا ضرع، ولا أنيس ولا ماء ولا زاد؟ قال: ربي أمرني، قالت: فإنه لن يضيعنا، قال: فلما قفا «إبراهيم» قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ يعني من الحزن ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٨]، فلما ظمى «إسماعيل» جعل يدحس الأرض بعقبه - يثير غبارها - فذهبت «هاجر» حتى علت الصفا، والوادي يومئذ لاخ - يعني عميق - فصعدت الصفا، فأشرفت لتنظر: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً، فانحدرت فبلغت الوادي، فسعت فيه حتى خرجت منه، فأنت المروة فصعدت فاستشرفت: هل ترى شيئاً؟ فلم تر شيئاً، ففعلت ذلك سبع مرات، ثم جاءت من المروة إلى «إسماعيل» وهو يدحس الأرض بعقبه، وقد نبعت العين وهي «زمزم»، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء، وكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها، فأفرغته في سقائها.

قال: فقال النبي ﷺ: «يرحمها الله! لو تركتها لكانت عيناً سائحة تجري إلى يوم القيامة».

قال: وكانت «جُرْهُم» يومئذ بواد قريب من مكة، قال: ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلما رأت «جُرْهُم» الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاؤوا إلى «هاجر» فقالوا: لو شئت كنا معك وأنسناك، والماء ماؤك، قالت: نعم! فكانوا معها حتى شبَّ «إسماعيل» وماتت «هاجر»، فتزوج «إسماعيل» امرأة من «جُرْهُم».

قال: فاستأذن «إبراهيم» ﷺ «سارة» أن يأتي «هاجر»، فأذنت له، وشرطت عليه ألا ينزل.

وقدم «إبراهيم» ﷺ وقد ماتت هاجر إلى بيت «إسماعيل» فقال لامرأته^(١): أين صاحبك؟ قالت: ليس ههنا، ذهب يتصيد.

(١) ذكر في فتح الباري (٦/ ٤٦٥) أن اسمها (صدى بنت سعد).

وكان «إسماعيل» يخرج من الحرم فيتصيد، ثم يرجع، فقال «إبراهيم»: هل عندك ضيافة؟ هل عندك طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندي، وما عندي أحد، قال «إبراهيم»: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: فليغير عتبة بابه.

وذهب «إبراهيم» وجاء «إسماعيل»، فوجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا - كالمستخفة بشأنه - ، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام، وقولي له: فليغير عتبة بابه، فطلقها وتزوج أخرى^(١).

فلبث «إبراهيم» ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن «سارة» أن يزور «إسماعيل» فأذنت له واشترطت عليه ألا ينزل، فجاء «إبراهيم» حتى انتهى إلى باب «إسماعيل» فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد، وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل يرحمك الله! قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم، قال: هل عندك خبز أو بُرٌّ أو شعير أو تمر؟

قال: فجاءت باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بُرٌّ أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله بُرًّا وشعيراً وتمرّاً، فقالت: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل، فجاءته بالمقام فوضعت عن شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه فبقي أثر قدمه عليه، فغلت شقَّ رأسه الأيمن، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر، فغلت شقه الأيسر، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك، قال: ذلك «إبراهيم»، فلبث ما شاء الله أن يلبث، وأمره الله ﷻ ببناء البيت، فبناه هو و«إسماعيل» فلما بنياه قيل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج، الآية: ٢٧] ، فجعل لا يمر بقوم إلا قال: يا أيها الناس، إنه قد بُنيَ لكم بيت فحجوه، فجعل لا يسمعه أحد، لا صخرة ولا شجرة ولا شيء إلا قال: ليك اللهم ليك!

قال: وكان بين قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم، الآية: ٣٧] وبين قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾

(١) ذكر في فتح الباري (٤٦٦/٦) أن اسمها (رَغَلَّةُ بنت مضاض بن عمرو الجرهمية).

وَأَسْحَقَ ﴿إِبْرَاهِيمَ، الْآيَةُ: ٣٩﴾ كَذَا وَكَذَا عَامًّا، لَمْ يَحْفَظْ عَطَاءُ^(١).

ولقد تبَيَّن لإبراهيم ﷺ وهو الْفَطْنُ اللَّيْبُ، ما كان من بَوْنٍ شاسع بين المرأتين اللتين تزوجهما ولده «إسماعيل» ﷺ، فالأولى فَظَّةٌ غليظة لم تحترم سِنَّه، ولم توقِّرْ شيبته، ولم تقدم له أدنى شيء من الضيافة لبخلها، ولم يلق منها غير الشكوى.

وأما الثانية فكانت ذات لطف وذكاء، كريمة مع الضيف، حامدة شاكرة لله على نعم الله عليها وعلى زوجها، ولذا أمر «إسماعيل» بفراق الأولى، والمحافظة على الثانية، جَزَاءً وَفَاقًا، ولما كان «إسماعيل» ﷺ شديد البر بوالده فقد امتثل أمره في الحالتين حيث فارق الأولى وأمسك الثانية، كما أمره أبوه.

كان «إسماعيل» نِعَمَ الزَوْجِ لِرَعْلَةٍ، وكانت رِغْلَةُ نِعَمَتِ الْمَرْأَةِ لِبَعْلِهَا «إسماعيل» ﷺ، وقد سمعت «رعدة» عمها «إبراهيم» وزوجها «إسماعيل» يدعوان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ٧٨ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ [البقرة، الآيتان: ١٢٨، ١٢٩]، فكانت تلك الدعوة لا تفارق خيالها، ويأبى الله إِلَّا أن يستجيب لعباده الْمُخْلِصِينَ، فنشر من رسوله ذرية كثيرة تَقْرَأُ بها العيون، لطهرها وصلاحتها وطيب أصلها، وأغدق عليهما المال، وبارك عليهما في الرزق الحلال، أما ما كان بالنسبة لإبراهيم فيقول أبو جعفر الطبري في تاريخه: إن «إبراهيم» اشتاق إلى «إسماعيل» فقال لسارة: ائذني لي أنطلق إلى ابني فأنظر إليه، فأخذت عليه عهداً ألا ينزل حتى يأتيها، فركب البراق، ثم أقبل، وقد ماتت «أم إسماعيل»، وتزوج «إسماعيل» امرأة من «جُرْهُم».

وإن «إبراهيم» ﷺ كثر ماله ومواشيه، وكان سبب ذلك فيما حدثنا به موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، بالإسناد الذي قد ذكرناه قبل، إن «إبراهيم» ﷺ احتاج - وقد كان له صديق يعطيه

وبأتيه - فقالت له «سارة»: لو أتيت خُلْتُكَ - أي: صديقك - فأصبت لنا منه طعاماً! فركب حماراً له، ثم أتاه، فلما أتاه تغيب منه، واستحيا «إبراهيم» أن يرجع إلى أهله خائباً، فمرَّ على بطحاء، فملاً منها خُرْجَه، ثم أرسل الحمار إلى أهله، فأقبل الحمار وعليه حنطة جيدة، ونام «إبراهيم» ﷺ فاستيقظ، وجاء إلى أهله، فوجد «سارة» قد جعلت له طعاماً، فقالت: ألا تأكل؟ فقال: وهل من شيء؟ فقالت: نعم من الحنطة التي جئت بها من عند خليلك، فقال: صدقت من عند خليلي جئت بها، فزرعها، فنبتت له، وزكا زرعه، وهلكت زروع الناس، فكان أصل ماله منها، فكان الناس يأتونه فيسألونه، فيقول: مَنْ قال: لا إله إلا الله، فليدخل فليأخذ، فمنهم من قال فأخذ، ومنهم من أبى فرجع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَنَّهُمْ مِّنْ ءَمَنٍ بِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء، الآية: ٥٥].

فلما كثر مال «إبراهيم» ومواشيه احتاج إلى السعة في المكن والمرعى، وكان مسكنه ما بين قرية مدين - فيما قيل - والحجاز إلى أرض الشام.

وكان ابن أخيه «لوط» نازلاً معه، فقاسم ماله «لوطاً»، فأعطى «لوطاً» شطره فيما قيل، وخيَّره مكناً يسكنه ومنزلاً ينزله غير المنزل الذي هو به نازل، فاختر «لوط» ناحية الأردن، فصار إليها، وأقام «إبراهيم» ﷺ مكانه، فصار ذلك فيما قيل سبباً لآثاره بمكة وإسكانه إياها «إسماعيل»، وكان ربما دخل أمصار الشام.

ولما ماتت «سارة بنت هاران» زوجة «إبراهيم»، تزوج «إبراهيم» بعدها - فيما حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق - «قطورا بنت يقطن»، امرأة من الكنعانيين، فولدت له ستة نفر:

«يقسان بن إبراهيم» و«زمران بن إبراهيم» و«مديان بن إبراهيم»، و«يسبق بن إبراهيم» و«سوح بن إبراهيم»، و«بسر بن إبراهيم»، فكان جميع بني «إبراهيم» ثمانية بـ «إسماعيل» و«إسحاق»، وكان «إسماعيل» بكره أكبر ولده.

قال: فنكح «يقسان بن إبراهيم» «رعوة بنت زمر بن يقطن بن لوزان بن جره بن يقطن بن عابر»، فولدت له «البربر» و«لُقها».

وولد لـ «زمران بن إبراهيم» المزامير الذين لا يعقلون.

وولد لـ «مديان» أهل مدين، قوم «شعيب بن ميكائيل» النبي، فهو وقومه من ولده، بعثه الله ﷻ إليهم نبياً.

قال أبو جعفر: ويقال في يسبق: يسباق، وفي سوح: ساح.

وقال بعضهم: تزوج «إبراهيم» بعد «سارة» امرأتين من العرب، إحداهما «قطورا بنت يقطن»، فولدت له ستة بنين، وهم الذين ذكرنا، والأخرى منهما «حجور بنت أرهير»، فولدت له خمسة بنين: «كيان» و«شورخ» و«ألمم»، و«لوكان» و«نافس».

وتابع أبو جعفر قوله:

فلما أراد الله تبارك وتعالى قبض روح «إبراهيم» ﷺ، أرسل إليه مَلَك الموت في صورة شيخ هرم.

فحدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، بالإسناد الذي ذكرته قبل: كان «إبراهيم» كثير الطعام، يطعم الناس ويضيفهم، فبينما هو يطعم الناس، إذا هو بشيخ كبير يمشي في الحَرَّة، فبعث إليه بحمار، فركبه، حتى إذا أتاه أطعمه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فيدخلها عينه وأذنه، ثم يدخلها فاه، فإذا دخلت جوفه خرجت من دُبُرِهِ.

وكان «إبراهيم» قد سأل ربه ﷻ ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال للشيخ حين رأى من حاله ما رأى: ما بالك يا شيخ! تصنع هذا؟ قال: يا إبراهيم؟ الكبير، قال: ابن كم أنت؟ فزاد على عمر «إبراهيم» سنتين، فقال «إبراهيم»: إنما بيني وبينك سنتان، فإذا بلغت ذلك صرت مثلك؟ قال: نعم، قال «إبراهيم»: اللهم! اقبضني إليك قبل ذلك، فقام الشيخ فقبض روحه، وكان مَلَك الموت.

ولما مات «إبراهيم» ﷺ وكان موته، وهو ابن مائتي سنة، وقيل: ابن مائة وخمس وسبعين سنة، دفن عند قبر «سارة» في مزرعة «خَبْرُون».

وتابع أبو جعفر القول: وكان مما أنزل الله تعالى على «إبراهيم» ﷺ من

الصحف فيما قيل: عشر صحائف، كذلك حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، قال: أخبرني عمي عبد الله بن وهب، قال: حدثني الماضي بن محمد، عن أبي سليمان، عن القاسم بن محمد، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر الغفاري، قال: قلت: يا رسول الله! كم كتاب أنزله الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله ﷺ على «آدم» ﷺ عشر صحائف، وعلى «شيث» خمسين صحيفة، وأنزل ﷺ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

قلت: يا رسول الله! فما كانت صحف «إبراهيم»؟ قال: «كانت أمثالا كلها». أيها الملك المصلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر. وكانت فيها أمثال: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يفكر فيها في صنع الله ﷻ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخّر، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرب، وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاده، ومروءة لمعاشه، ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شاته، حافظاً للسانه، ومَن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه^(١).

وأما ما تعلّق بإسماعيل ﷺ فيقول أبو جعفر الطبري:

قد مضى ذكرنا سبب مصير «إبراهيم» بإبنه «إسماعيل» وأمه «هاجر» إلى مكة، وإسكانه إياها بها، ولما كبر «إسماعيل» تزوج امرأة من «جُرْهُم»، فكان من أمرها ما تقدم ذكره، ثم طلقها بأمر أبيه «إبراهيم» بذلك، ثم تزوج أخرى يقال لها: «السيدة بنت مضاض بن عمرو الجُرْهُمي»^(٢)، وهي التي قال لها «إبراهيم» إذ قدم مكة، وهي زوجة «إسماعيل»: قولي لزوجك إذا جاء: قد رضيت لك عتبة بابك.

فحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ولد

(١) تاريخ الطبري (٣٠٨/١ - ٣١٣).

(٢) تقدم قبل عدة صفحات أن اسمها في فتح الباري (رِعة بنت مضاض).

لإسماعيل بن إبراهيم اثنا عشر رجلاً، وأمهم «السيدة مضاض بن عمرو الجرهمي»: «نابت بن إسماعيل» و«قيدر بن إسماعيل» و«أدبيل بن إسماعيل» و«مبشا بن إسماعيل» و«مسمع بن إسماعيل» و«دما بن إسماعيل» و«ماس بن إسماعيل» و«أدد بن إسماعيل» و«وطور بن إسماعيل» و«نفيس بن إسماعيل» و«طما بن إسماعيل» و«قيدمان بن إسماعيل».

قال: وكان عمر «إسماعيل» فيما يزعمون ثلاثين ومائة سنة، ومن «نابت» و«قيدر» نشر الله العرب، ونبأ الله ﷻ «إسماعيل»، فبعثه إلى العماليق - فيما قيل - وقبائل اليمن، وقد ينطق أسماء أولاد «إسماعيل» بغير الألفاظ التي ذكرت عن ابن إسحاق، فيقول بعضهم في «قيدر»، «قيدار». وفي «أدبيل»، «أدبال». وفي «مبشا»، «مبشام». وفي «دما»، «ذوما ومسا»، و«حداد» و«تيم» و«يطور» و«نافس» و«قادمين»^(١).

لقد كانت «رِغْلَةُ» أو «السيدة بنت مضاض» زوج «إسماعيل بن إبراهيم» ﷺ هي الودودُ الولودُ التي أمر رسول الله ﷺ بالزواج بمثلها ليباهي بنا الأمم يوم القيامة.

وجاء في «شفاء الغرام»^(٢) أن لإسماعيل ﷺ غير أولاده الاثني عشر ابنة تدعى «نصمة بنت إسماعيل» فأوصى إن حضرته الوفاة أن تزوج لابن أخيه «العيص بن إسحاق»، وتم دفنه في الجِجْر عند قبر أمه «هاجر».

وروى أبو جعفر الطبري، ما روي عن عمر بن عبد العزيز، قال:

شكا «إسماعيل» إلى ربه تبارك وتعالى حر مكة، فأوحى الله تعالى إليه: إني فاتح لك باباً من الجنة، يجري عليك رَوْحُهَا إلى يوم القيامة، وفي ذلك المكان دفن، رحمه الله تعالى.

وقرب البيت العتيق، صعدت روح «رِغْلَةُ» الطاهرة إلى بارئها لتلتقي بأرواح الأبرار، رحمه الله تعالى.

(١) تاريخ الطبري (٣١٤/١).

(٢) شفاء الغرام (٣٣/٢، ٣٤).

٧ - راحيل امرأة يعقوب ﷺ

آية مكرمة أصابتها هذه المرأة الفريدة «راحيل» حين أصبحت زوج نبي عظيم؟ وأي شرف بلغته يوم غدت أمّاً لنبي كريم؟ فمن هي تلك المرأة؟ وكيف أدركت ذلك المجد المؤثّل الذي سبقها إليه «سارة» زوج «إبراهيم الخليل» وأم «إسحاق بن إبراهيم» ﷺ. و«هاجر» زوج «إبراهيم الخليل» وأم «إسماعيل بن إبراهيم» ﷺ. و«رفقا بنت بتويل» زوج «إسحاق بن إبراهيم» وأم «يعقوب بن إسحاق» ﷺ.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه: عن ابن إسحاق، قال: نكح «إسحاق بن إبراهيم»، «رفقا بنت بتويل بن إلياس» فولدت له «عيص بن إسحاق» و«يعقوب بن إسحاق» يزعمون أنهما كانت توأمين، وأن «عيساً» كان أكبرهما، ثم نكح «عيص بن إسحاق» ابنة عمه «بسمة ابنة إسماعيل بن إبراهيم» فولدت له «الروم بن عيص» فكل بني الأصغر من ولده.

قال: وبعض الناس يزعم أن الأشبان من ولده، ولا أدري أمن ابنة «إسماعيل» أم لا؟

ونكح «يعقوب بن إسحاق» - وهو إسرائيل - ابنة خاله «ليّا ابنة لبان بن بتويل بن إلياس» فولدت له و«روبيّل بن يعقوب» وكان أكبر ولده، و«شمعون بن يعقوب» و«لاوي بن يعقوب» و«يهوذا بن يعقوب» و«زبالون بن يعقوب» و«يسحر بن يعقوب» و«دينة ابنة يعقوب».

وقد قيل في «يسحر»: إن اسمه «يشحر»، ثم توفيت «ليّا بنت لبان» فخلف «يعقوب» على أختها «راحيل بنت لبان بن بتويل بن إلياس»، فولدت له «يوسف بن يعقوب» و«بنيامين بن يعقوب» - وهو بالعربية شداد - وولد له من سُرِّيَّتَيْن: اسم أحدهما «زلفة» واسم الأخرى «بلهة»، أربعة نفر: «دان بن يعقوب» و«نفثالي بن يعقوب» و«جاد بن يعقوب» و«أشر بن يعقوب»، فكان بنو «يعقوب» اثني عشر رجلاً.

وقد قال بعض أهل التوراة: إن «رفقا» زوجة «إسحاق» هي ابنة «ناهر بن أزر» عم «إسحاق»، وإنها ولدت له ابنيه «عيساً» و«يعقوب» في بطن واحد، وإن «إسحاق» أمر ابنه «يعقوب» ألا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله «لبان بن ناهر»، وأن «يعقوب» لما أراد النكاح، مضى إلى خاله «لبان بن ناهر» خاطباً فأدركه الليل في بعض الطريق، فبات متوسداً حجراً، فرأى فيما يرى النائم أن سلماً منصوباً إلى باب من أبواب السماء عند رأسه، والملائكة تنزل وتخرج فيه، وأن «يعقوب» صار إلى خاله، فخطب إليه ابنته «راحيل»، وكانت له ابنتان: «ليا» وهي الكبرى، و«راحيل» وهي الصغرى، فقال له: هل من مال أزوجك عليه؟ فقال «يعقوب»: لا، إلا أنني أخذتك أجيئاً حتى تستوفي صدق ابنتك، قال: فإن صدّاقها أن تخدمني سبع حجج، قال «يعقوب»: فزوّجني «راحيل» وهي شرطي، ولها أخذتك. فقال له خاله: ذلك بيني وبينك، فرعى له «يعقوب» سبع سنين، فلما وقى له شرطه، دفع إليه ابنته الكبرى «ليا»، وأدخلها عليه ليلاً، فلما أصبح وجد غير ما شرط، فجاءه «يعقوب» وهو في نادي قومه، فقال له: غررتني وخدعتني، واستحللت عملي سبع سنين، ودلّست عليّ غير امرأتي، فقال له خاله: يا بن أختي! أردت أن تدخل على خالك العار والمسبة، وهو خالك والدك؟ ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى؟ فهلّم فاخدمني سبع حجج أخرى، فأزوجك أختها - وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى أن بعث «موسى» ﷺ - وأنزل عليه التوراة - فرعى له سبعاً، فدفع إليه «راحيل»، فولدت له «ليا» أربعة أسباط: «روبير» و«يهودا» و«شمعان» و«لاوي».

وولدت له «راحيل»، «يوسف وأخاه بنيامين» وأخوات لهما، وكان «لبان» دفع إلى ابنتيه حين جهزهما إلى «يعقوب» أمتين، فوهبتا الأمتين إلى «يعقوب»، فولدت كل واحدة منهما له ثلاثة رهط من الأسباط، وفارق «يعقوب» خاله، وعاد حتى نازل أخاه «عيساً».

وقال بعضهم: ولد يعقوب «دان» و«نفثالي» من «زلفة» جارية «راحيل»، وذلك أنها وهبتها له، وسألته أن يطلب منها الولد حين تأخر الولد عنها، وأن «ليا» وهبت جارتها «بلهة» ليعقوب، منافسة لراحيل في جارتها، وسألته أن

يطلب منها الولد، فولدت له «جاء» و«أشير»، ثم ولد له من «راحيل» بعد اليأس «يوسف» و«بنيامين»، فأنصرف «يعقوب» بولده هؤلاء، وامراتيه المذكورتين إلى منزل أبيه من فلسطين على خوف شديد من أخيه «العيس»، فلم ير منه إلا خيراً.

وكان «العيس» فيما ذكر لحق بعمه «إسماعيل»، فتزوج إليه ابنته «بسمه» وحملها إلى الشام، فولدت له عدة أولاد فكثروا حتى غلبوا الكنعانيين بالشام، وصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية، ثم إلى الروم، وكان «العيس» فيما ذكر يسمى «آدم» لأذمته.

قال: ولذلك سُمي ولده وَلَدَ الأصغر، وكانت ولادة «رفقا بنت بتويل» لإسحاق بن إبراهيم ابنه «العيس» و«يعقوب» - بعد أن خلا من عمر «إسحاق» ستون سنة - توأمين في بطن واحد، و«العيس» المتقدم منهما خروجاً من بطن أمه، فكان «إسحاق» فيما ذكر يختص «العيس». وكانت «رفقا» أمهما تميل إلى «يعقوب»، فزعموا أن «يعقوب» ختل «العيس» في قربان قرباه بأمر أبيهما «إسحاق» بعدما كبرت سن «إسحاق»، وضعف بصره، فصار أكثر دعاء «إسحاق» ليعقوب، وتوجهت البركة نحوه بدعاء أبيه «إسحاق» له، فغاض ذلك «العيس» وتوَعَّده بالقتل، فخرج «يعقوب» هارباً منه إلى خاله «لبان» ببابل، فوصله «لبان» وزوجه ابنته «ليا» و«راحيل»، وأنصرف بهما وبجارتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر، وأختهم «دينه» إلى الشام إلى منزل آبائه، وتآلف أخاه «العيس» حتى نزل له البلاد وتنقل في الشام، حتى صار إلى السواحل، ثم عبر إلى الروم فأوطنها - اتخذها وطناً - ، وصار الملوك من ولده وهم اليونانية، فيما زعم هذا القائل^(١).

إن الحمد آفة كبرى وداء وبيل زرعه في الأرض «إبليس» - عليه لَعَنَاتُ ربي وغضبه ولَعَنَاتُ الملائكة والناس أجمعين منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين - ، وذلك حين أمره رب العزة بالسجود لآدم ﷺ فأبى واستكبر حسداً وحقداً وجباً بمعصية رب العالمين.

(١) تاريخ الطبري (١/٣١٧ - ٣١٩).

وما قَتَلَ «قابيل بن آدم» أخاه «هابيل» إلا حسداً له، وحقداً عليه، وكذلك الحال، حيث حسد «العيص بن إسحاق» أخاه «يعقوب بن إسحاق» لما رأى من حب «إسحاق» لأخيه «يعقوب» وإكثاره من الدعاء له مما أَجَّج نار الغيرة في صدره، وسَعَّر ضِرام الحسد إلى حد تهديد «العيص» بقتل «يعقوب» ﷺ.

وقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه: حدثنا الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، قال: حدثنا أبي، قال: أخبرنا أسباط، عن السدي، قال: تزوج «إسحاق» امرأة فحملت بغلامين في بطن، فلما أرادت أن تضعهما، اقتتل الغلامان في بطنها، فأراد «يعقوب» أن يخرج قبل «عيص»، فقال «عيص»: والله! لئن خرجت قبلي لأعترضنَّ في بطن أمي ولأقتلنَّها، فتأخر «يعقوب»، وخرج «عيص» قبله، وأخذ «يعقوب» بعقب «عيص»، فخرج فسَمِّيَ «عيساً» لأنه عصى فخرج قبل «يعقوب»، وسُمِّيَ «يعقوب» لأنه خرج أخذاً بعقب «عيص»، وكان «يعقوب» أكبرهما في البطن، ولكنَّ «عيساً» خرج قبله، وكبر الغلامان، فكان «عيص» أحبهما إلى أبيه، وكان «يعقوب» أحبهما إلى أمه، وكان «عيص» صاحب صيد.

فلما كبر «إسحاق» وعَمِيَ، قال لعيص: يا بني! أطعمني لحم صيد، واقترب مني أذُعْ لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان «عيص» رجلاً أشعر، وكان «يعقوب» رجلاً أجرد، فخرج «عيص» يطلب الصيد، وسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: يا بني! اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة، ثم اشوِو، والبس جلده، وقَدِّمهُ إلى أبيك، وقل له: أنا ابنك «عيص»، ففعل ذلك «يعقوب».

فلما جاء قال: يا أبتاه! كل، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك «عيص»، قال: فمَنَّهُ، فقال: المَسُّ مَسُّ «عيص» والريح ريح «يعقوب».

قالت أمه: هو ابنك «عيص» فأذُعْ له، قال: قَدِّمْ طعامك، فقَدِّمهُ فأكل منه، ثم قال: اذُنْ مني، فدنا منه، فدعا له أن يجعل في ذريته الأنبياء والملوك، وقام «يعقوب».

وجاء «عيص» فقال: قد جئتُك بالصيد الذي أمرتني به، فقال: يا بني! قد سبقك أخوك «يعقوب»، فغضب «عيص» وقال: والله! لأقتلنَّه.

قال: يا بني! قد بقيت لك دعوة، فَهَلِّمْ أذُعْ لك بها، فدعا له، فقال:

تكون ذريتك عدداً كثيراً كالتراب، ولا يملكهم أحد غيرهم. وقالت أم «يعقوب» ليعقوب: الحق بخالك فكن عنده خشية أن يقتلك «عيس»، فانطلق إلى خاله، فكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، ولذلك سُمِّيَ «إسرائيل»، وهو سَرِيٌّ الله، فأتى خاله.

وقال «عيس» أما إذ غلبتني على الدعوى فلا تغلبني على القبر، أن أدفن عند آبائي: «إبراهيم» و«إسحاق»، فقال: لئن فعلت لتدفننَّ معه. ثم إن يعقوب عليه السلام هَوِيَ ابنة خاله - وكان له ابنتان - فخطب إلى أبيهما الصغرى منهما، فأنكحها إياه على أن يرعى غنمه إلى أجل مسمى، فلما انقضى الأجل زَفَّ إليه أختها «ليا».

قال «يعقوب»: إنما أردت «راحيل»، فقال له خاله: إنا لا يُنْكَحُ فينا الصغير قبل الكبير، ولكن ارع لنا أيضاً وانكحها، ففعل.

فلما انقضى الأجل زَوَّجه «راحيل» أيضاً، فجمع «يعقوب» بينهما، فذلك قول الله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء، الآية: ٢٣]. يقول: جمع «يعقوب» بين «ليا» و«راحيل» فحملت «ليا» فولدت «يهوذا»، و«روبييل» و«شمعون» وولدت «راحيل»، «يوسف» و«بنيامين»، وماتت «راحيل» في نفاسها ببنيامين، يقول: من وجع النفاس الذي ماتت فيه.

وقطع خال «يعقوب» ليعقوب قطيعاً من الغنم، فأراد الرجوع إلى بيت المقدس، فلما ارتحلوا لم يكن له نفقة، فقالت امرأة «يعقوب» ليوسف: خذ من أصنام أبي لعلنا نستفق منه فأخذ، وكان الغلامان في حَجَرٍ «يعقوب»، فأحبهما وعطف عليهما ليطمئنا من أهمما، وكان أحب الخلق إليه «يوسف» عليه السلام.

فلما قدموا أرض الشام، قال «يعقوب» لراع من الرعاة: إن أتاكم أحد يسألکم: من أنتم؟ فقولوا: نحن ليعقوب عبد «عيس»، فلقاهم «عيس»، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن ليعقوب عبد «عيس»، فكفَّ «عيس» عن «يعقوب».

ونزل «يعقوب» بالشام، فكان همه «يوسف» وأخوه، فحده إخوته لما رأوا من حب أبيه له.

ورأى «يوسف» في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأهم

ساجدين له، فحدث أباه بهما، فقال: ﴿يَبْنَئُ لَا نَقْصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف، الآية: ٥] (١).

وأعجب ما حدث في حياة «يعقوب» ﷺ ما وقع بين «يوسف» وإخوته، ولأهمية ذلك أنزل الله تعالى بصدها سورة كاملة، وسماها «يوسف» ﷺ لشرف صاحبها وجليل قدره، ورفيع مكانته، وسمو شأنه، وعلو مقامه، وها هي ذي القصة بكاملها كما رواها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، قال: [فمن ذلك قصة «يوسف بن راحيل» وقد أنزل الله ﷻ في شأنه، وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ، والآداب، والأمر الحكيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّ تِلْكَ ءَابَتْ أَلْكُتِبِ الْيُنِ ١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ٣﴾ [يوسف، الآيات: ١-٣].

ثم قال ابن كثير: وجملة القول في هذا المقام أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي فصيح بين واضح جلي، يفهمه كل عاقل ذكي زكي، فهو أشرف كتاب نزل من السماء أنزله أشرف الملائكة، على أشرف الخلق، في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان.

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودفع الباطل وزيفه وردّه، وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع، وأوضح المناهج، وأبين حُكماً، وأعدل حُكماً، فهو كما قال تعالى: ﴿وَوَعَدْتُكَ رَيْكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام، الآية: ١١٥]، يعني صدقه في الأخبار، عدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ٣﴾ [يوسف، الآية: ٣]، أي: بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِيَمِينِهِ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥١﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا

فِي السَّمَكُونِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٢﴾ [الشورى، الآيتان: ٥٢، ٥٣] ، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه، الآيات: ٩٩-١٠١] ، يعني: من أعرض عن هذا القرآن، واتبع غيره من الكتب، فإنه يناله هذا الوعيد، كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي، عن أمير المؤمنين «علي» عليه السلام مرفوعاً وموقوفاً. «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد، عن الشعبي عن جابر: أن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وآله بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وآله، قال: فغضب، وقال: «انتهاكون فيها؟ يا بن الخطاب! والذي نفسي بيده! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده! لو أن «موسى» كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»، إسناده صحيح.

ورواه أحمد من وجه آخر، عن عمرو فيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده! لو أصبح فيكم «موسى» ثم اتبعتموه وتركتموني لضللكم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

وقد أوردت طرق هذا الحديث والفاظه في أول سورة «يوسف»، وفي بعضها أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس، فقال في خطبته: «أيها الناس! إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تنهوكوا ولا يفرنكم المتهوكون» أي: المتحIRON، ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً. ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِقْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [يوسف، الآيات: ٤-٦] .

قد قدمنا أن «يعقوب» كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً سميناهم وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم «يوسف» عليه السلام

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم. وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [آل عمران، الآية: ٨٤]، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي، لأن المراد بالأسباط شعب بني إسرائيل، وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن «يوسف» ﷺ هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة أنه ما نص على واحد من إخوته سواه، فدلّ على ما ذكرناه.

ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد. حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

انفرد به البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد، وعبد الله عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، وقد ذكرنا طرفة في قصة «إبراهيم» بما أغنى عن إعادته ههنا، والله الحمد والمنة.

قال المفسرون وغيرهم: رأى «يوسف» ﷺ وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له فهاله ذلك - أي: أفزعه كثيراً -، فلما استيقظ قصّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية، ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وألا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر، وهذا يدل على ما ذكرناه، ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً، وهو غلط منهم^(١).

وذكر «الآلوسي» رحمته الله في تفسيره ﴿أَمَدَ عَشَرَ كَوْكِبًا﴾ [يُوسُف، الآية: ٤] ، وهي (جربان، والطارق، والذبال، وقابس، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والفزع، ووثاب، وذو الكتفين، والضروج)، فقد روي عن جابر (أن «سناناً» اليهودي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محمد! عن النجوم التي رآهن «يوسف»، فسكت، فنزل «جبريل» عليه السلام فأخبره بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك؟ قال: نعم، فعَدَّ ﷺ ما ذكر، فقال اليهودي: إي والله! إنها لأَسْمَاؤها).

وأخرج السهيلي، عن الحارث بن أبي أسامة نحو ذلك، إلا أنه ذكر (النطح) بدل (المصبح)، وأخرج الخبر الأول جماعة المفسرين، وأهل الأخبار، وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم، وقال أبو زُرْعَةَ، وابن الجوزي: إنه منكر موضوع^(١).

وجاء في الحديث عنه ﷺ: «الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان»، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى، فليحمد الله تعالى، وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره».

وصحَّ عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»^(٢).

وقال ابن كثير: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِبُكَ رَبُّكَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: كما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْئِبُكَ رَبُّكَ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيَقْلُوكُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يُوسُف، الآية: ٦] أي: يفهمك من معاني الكلام، وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿وَيُؤَيِّنُ قِصَّتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يُوسُف،

(١) انظر تفسير (روح المعاني) (١٧٩/١٢).

(٢) روح المعاني (١٨١/١٢).

[الآية: ٦] أي: بالوحي إليك ﴿وَكَلَّمَآلَ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف، الآية: ٦] أي: بسبك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿كَمَا أَنْتَهَا عَلَىٰ أَبْنَاكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَقَ﴾ [يوسف، الآية: ٦] أي: ينعم عليك، ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطها أباك «يعقوب» وجدك «إسحاق» ووالد جدك «إبراهيم الخليل» ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف، الآية: ٦] كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام، الآية: ١٢٤].

لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»^(١).

وتابع ابن كثير قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِينَ﴾ ⑦ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصَّةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحِلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⑨ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ رَأَيْتُمُ اللَّجَبَ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿[يوسف، الآيات: ٧-١٠].

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات والمواظع والبيّنات، ثم ذكر حسد إخوة «يوسف» له على محبة أبيهم له ولأخيه، يعنون شقيقه لأمه «بنيامين» أكثر منهم، وهم عصابة - أي: جماعة - يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف، الآية: ٨] أي: بتقديمه جبهما علينا، ثم اشتورا فيما بينهم في قتل «يوسف» أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم، أي: لتمحض محبته لهم، وتتوفر عليهم، وأضمرنا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ [يوسف، الآية: ١٠] قال مجاهد: هو «شمعون» وقال السدي: هو «يهوذا»، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق: هو أكبرهم «روبييل»: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ رَأَيْتُمُ اللَّجَبَ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف، الآية: ١٠] ما

(١) البداية والنهاية (١/٢٢١).

تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه، فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك^(١) ﴿قَالُوا يَتَابَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصَحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرِيرُونَ ۝﴾ [يوسف، الآيات: ١١-١٤] .

ومكروا بأبيهم أولاً حين أكدوا له أنهم يريدون لأخيهم «يوسف» الخير، وكان مكرمهم بيوسف ثانياً بإضمامهم له الشر، وقنع منهم «يعقوب» أن الذئب لن يصل إلى أخيهم وهو محاط بهم، ولما خرجوا بيوسف، وأصبحوا بعيدين عن أبيهم، كشروا لأخيهم عن أنياب غدرهم وراحوا يضربونه ويهينونه، وهو يضرع إليهم ويستغيث، ولكن لم يكن للرحمة في قلوبهم تجاه أخيهم الأصغر مكان، حتى إذا بلغوا مكان الجب الذي عزموا على جعله فيه، وكان أصحاب القوافل يردونه ليستقوا من مائه، أنزلوه فيه، ثم انقلبوا عائدين إلى أبيهم ومعهم قميص «يوسف» وقد لطحوه بالدم كذباً ليوهموا أباهم أن الذئب قد أكله بينما تركوه عند متاعهم حين خرجوا يستبقون، ولم يثق «يعقوب» بمقالتهم، لما يعلمه من شدة عداوتهم لأخيهم، وحسدهم له، وقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف، الآية: ١٨] .

ثم أقبلت إحدى القوافل، وذهب واردهم إلى الجب ليستقي لهم، ولما أخرج الدلو وجد «يوسف» وقد تعلق بالحبل، فحملوه معهم إلى مصر، وباعوه إلى حاكمها العزيز بثمن زهيد: عشرين، أو اثنين وعشرين، أو أربعين درهماً.

واسم العزيز «إطفير بن روحيب» وامراته تدعى «راعىل» وقيل: «زليخا»، وقيل: «فكا». وأمر العزيز امرأته أن تحسن إليه ليتنى لهما الانتفاع به أو اتخاذه ولداً لأنهما لا ينجبان.

كان «يوسف» قد آتاه الله شطر الحسن، ولما وقع بصر امرأة العزيز عليه، تعلق قلبها به، وأحبته حباً جماً، وذات يوم لبست أجمل ثيابها، ونفحت جسدها

بأفخر عطورها، حتى إذا دخل عليها في حاجة طلبت منه إحضارها، أقدمت على مراودته عن نفسه، لكن عفته منعه من موافقتها، والاستجابة إلى رغبتها، وكانت قد أوصدت أبواب الغرفة بإحكام وأسدت الستائر، ثم عمدت إلى صنم لها في مخدعها وسترته بثوب، وحين سألها عما دعاها إلى تغطية الصنم أجابت: إنها تستحي من رؤيته لها، فقال لها «يوسف» ﷺ: أتستحين من خشبة لا تسمع ولا تبصر، ولا أستحي من السميع البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم عدا إلى الباب يريد الخروج فراراً منها، إلا أنها اتبعته وأمسكت بقميصه من خلفه فتمزق، وعلى باب الغرفة كان زوجها العزيز وابن عم لها قد أوشكا أن يدخلها عليها، ولما سألها زوجها عما يجري وعن سبب ارتباكها، قالت له: لقد راودني عن نفسي وحاول أن يتحرش بي، وما أريد منك إلا سجنه وتعذيبه.

ولم يسكت «يوسف» على اتهامها له فقال: إنها هي التي عمدت إلى مراودتي عن نفسي، ولكنني لم أوافقها لأنني لم أشأ مقابلة إحسانك إليّ بالإساءة إلى شرفك والاعتداء على أهلِكَ، وتدخل ابن عمها وقال للعزيز: إن كنت تريد الدليل على صدق أحدهما وكذب الآخر فانظر إلى قميصه، فإن كان ممزقاً من الأمام فهذا يعني أنه أراد الاعتداء عليها فدفعته عنها وتكون هي الصادقة، وهو الكاذب، وإن كان القميص ممزقاً من الخلف فهذا يعني أنه أراد الهرب منها فاتبعته وشدت قميصه فمزقته، ويكون هو الصادق وهي الكاذبة، ولما وجد زوجها أن القميص ممزق من الخلف علم أنها كاذبة، إلا أنه تلافياً للفضيحة أمر «يوسف» ألا يحدث أحداً بهذا الأمر وأمرها أن تستغفر لذنبيها، ثم رَجَّ بيوسف في السجن. وما كان «يوسف» ليدنس نفسه بالخطيئة وقد جعله الله من عباده الْمُخْلِصِينَ وهياًه للنبوة ودعوة الناس إلى عبادة الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وأدرى بمن يصطفيه نبياً ورسولاً.

وبلغ نساء المدينة ما صنعت امرأة العزيز مع «يوسف» فدعتهم إلى مجلسها، وقدمت لهن الفاكهة، حتى إذا هممن بتقطيع الفاكهة بالسكاكين أمرت «يوسف» بالدخول عليهن، فلما رأيته طاشت عقولهن من فرط حسنه فجرحن أيديهن من الارتباك الذي أصابهن وقلن: ليس هذا بشراً بل هو أحد الملائكة الكرام.

فقالت لهن: لقد لمتني في حبي له ولم تعذرني في مراودتي له عن نفسه، وأنا الآن أراكن قطعتن أيديكن وقد نظرتن إليه واحدة، فكيف أحتمل إعراضه وهو أمام ناظري ليلاً ونهاراً؟ ولئن لم يستجب لي فمآله إلى السجن.

وناجى «يوسف» ربه فقال: إن السجن أحب إليه من ركوب المعاصي، وسأله أن يصرف عنه كيد النساء لئلا يقع فيما يقع فيه الجاهلون، واستجاب الله له وصرف عنه كيد الخائنين.

وفي السجن راح «يوسف» يدعو نزلاءه إلى عبادة الله وحده، وكان فيهم ساقى الملك وخبّازه قد سجنا لذنوب قارفاه، فرأى ذات ليلة كل منهما رؤيا فأخبرا «يوسف» بها وطلبا منه تعبيرها، فقد رأى الساقى أنه يعصر العنب، ورأى الخباز، أن على رأسه طبقاً فيه خبز والطير تأكل منه، فقال للساقى: ستعود إلى عملك في سقاية الملك، وقال للخباز: ستصلب وتأكل الطير من رأسك، وما قلته لكما ليس من عندي ولكن علمني ربي، وطلب «يوسف» من الذي ظن نجاته أن يخبر الملك أن في السجن مظلوماً سجن بغير جرم أتاه لعله يأمر بتخليه سبيله.

ولم يلبث الملك أن أمر بإخراج الساقى من السجن، وصلب الخباز، وفاقاً لتعبير رؤيا كل منهما كما أخبرهما «يوسف». وأنسى الشيطان الساقى أن يخبر الملك بما أوصاه به «يوسف» ففضى في سجنه عدداً من السنين.

وذات ليلة، رأى الملك رؤيا أفزعته وأقضت مضجعه، فأحضر الكهنة والحزاة والعرافين وسألهم أن يعبروها فلم يغنوا عنه شيئاً، فقال الساقى للملك: إني لأعرف من يعبرها لك يا مولاي! قال: اثنتي به، قال: إنه سجين، وسأخبره برؤياك ليعبرها لك، وكان الملك قد رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ولما أخبر الساقى «يوسف» بتلك الرؤيا، قال له: ستأتي عليكم سبع سنين خصبة، فما حصدم ذروه في سنبله إلا ما تحتاجون إليه لطعامكم، ثم ستأتي عليكم سبع سنين مجدبة ترجعون فيها إلى الطعام الذي ادخرتموه في سني الخصب، ثم يعقبها عام يأتي فيه الغيث والخصب فتعصرون الزيتون والسمن والأعنان، والقصب وغير ذلك، ويعممكم

الرخاء، فلما سمع الملك ذلك أمر أن يؤتى بيوسف، فأبى «يوسف» مغادرة السجن، وطلب من الرسول الرجوع إلى الملك ليسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن سبب ذلك، فجاء الملك بهن وسألهن، فشهدن بعبء «يوسف» ودخوله السجن ظلماً، ولم تستطع امرأة العزيز أن تظل ساكتة، فاعترفت بأنها هي التي راودت «يوسف» عن نفسه وليس هو الذي راودها، ويأبى رب العزة إلا أن يظهر الحق لأنه حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، وأمر بالقسط والعدل، وهو خير المقسطين.

ولما رأى الملك كمال علم «يوسف» ﷺ وتمام عقله، وجودة فهمه، وسداد رأيه استخلصه لنفسه، وسلمه مقاليد الأمور في مصر، وحكى الثعلبي أن الملك عزل «إطفير» عن وظيفته وولاه «يوسف»، وقيل: إنه لما مات زوجه امرأته «زليخا»، فوجد لها عذراء لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف ﷺ رجلين وهما «أفرايم» و«منشا» واستوثق له ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل، فأحبه الرجال والنساء.

وذكر محمد بن إسحاق: أن صاحب مصر «الوليد بن الريان» أسلم على يدي «يوسف» ﷺ فآله أعلم، وأنشد بعضهم:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به غاية الحُزْنِ
فلا تياسنْ فإله ملّك يوسفأ خزائنه بعد الخلاص من السجنِ
ثم قصد إخوة «يوسف» مصر ليمتاروا لأهلهم، وهم لا يعلمون ما أكرمه الله به، فعرفهم «يوسف» وهم له منكرون أي لم يعرفوه لطول العهد بينه وبينهم. وبعد أن آمن لهم حاجتهم سألهم إن كان لهم إخوة آخرون، فقالوا: هناك أخ لنا صغير، قد خلفناه عند أبنينا، فأمرهم أن يأتوا به وإلا سيمنعهم الميرة، وأمر برد البضاعة التي أتوه بها ليضمن رجوعهم إليه مع أخيه.

وبعد أن عادوا إلى أبيهم أخبروه أن ولي الأمر في مصر يريد رؤية أخيه «بنيامين» وإلا حرّمهم حاجتهم من الطعام. فطلب «يعقوب» ﷺ أن يعطوه موثقاً من الله برده إليه إلا أن يحاط بهم، فلما أتوه موثقهم قال: الله على ما نقول وكيل. ثم إنهم صحبوا «بنيامين» وعادوا إلى «يوسف» في مصر، ولما دخلوا عليه

أوى إليه أخاه «بنيامين» وخلا به دونهم وأعلمه أنه أخوه، وروى له قصة ما صنعوه معه، وأوعز إلى بعض عماله أن يدسوا سقاية الملك في رحل أخيه «بنيامين» حتى يتسنى له اتهامه بالسرقة، وكان العرف السائد في ذلك الزمان أن يستعبد السارق من قبل صاحب المسروق، ولما حصلوا على ميرتهم وتأهبوا للرحيل نادى المنادي: أيها اللصوص! كيف سرقتم صواع - سقاية - الملك؟ فبهت الجميع من هذه التهمة وأنكروا أن يكون أحدهم قد فعلها، وأنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض وما كانوا سارقين، وحتى تكون المكيدة محبوكة، أمر بتفتيش رحالهم جميعاً، وأخر عمداً رحل أخيه الصغير «بنيامين»، ثم استخرج السقاية من رحله أمام أعينهم، ثم أمرهم أن يغادروا البلد محتفظاً ببنيامين لأنه سرق. وأبدوا رغبتهم ليوسف ليأخذ أيًا منهم مكان «بنيامين» لأنهم عاهدوا أباهم أمام الله تعالى على العودة به، بَيَّنَّ أَنْ «يوسف» رفض العرض الذي عرضوه عليه لأن مقتضى العدل أن يؤخذ الظالم بجرمه، ولا ينبغي للحاكم العادل أن يعاقب البريء ويترك المذنب حراً طليقاً.

وعندما هموا بالعودة إلى أبيهم امتنع كبيرهم عن مرافقتهم للوعد الذي وعدوا أباهم به، وأمرهم أن يخبروا أباهم بأن ابنه سرق، ولم يكونوا للغيب حافظين، وأنه لن يعود إليه أو يأذنه أو يحكم الله له وهو خير الحاكمين.

ونكأ الجرح الجديد بفراق «بنيامين» على «يعقوب» عليه السلام جرح «يوسف» عليه السلام وباتت دموعه عليهما لا ترقأ حتى فقد بصره من شدة البكاء، وساء حاله كثيراً ولم يعد يريد رؤية بنيه من فرط حزنه، ثم أمرهم أن يذهبوا ويتحسروا أخبار «يوسف» و«بنيامين» وألاً يدعوا لليأس سبيلاً إلى نفوسهم، فأخذوا بضاعة رديئة لا يرغب أحد بمثلها، ثم انطلقوا لبيعها في مصر، فلما دخلوا على «يوسف» عليه السلام قَالَوا يَتَأْتِيَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الْقُرَى وَحَفْنَا بِبَضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالَوا إِنَّا لَنَافِلُكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَوا تَاللَّهِ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَفُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيمِ هَذَا فَأَلْفَوْهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا

وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ [يوسف، الآيات: ٨٨ - ٩٣] .

قال يهوذا: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى «يعقوب» فأخبرته أن «يوسف» أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره بأنه حي، فأقر عينه كما أحزنه، فهو كان البشير، ولما ألقى القميص على وجه «يعقوب» وشم ريح «يوسف» ارتد بصيراً، وقال لبنيه: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فطلبوا منه أن يستغفر لهم، فأخر الدعاء لهم إلى السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩٤﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتَ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٩٥﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَوْفِيكَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَكَّلْتُ مُسْلِمًا ۖ وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف، الآيات: ٩٩-١٠١] .

واختلفوا في تفسير: أبويه، فقال بعضهم: أبوه «يعقوب» ﷺ وأمه «راحيل»، وقال آخرون: أبوه وخالته «ليا» لأن أمه «راحيل» ماتت في نفاسها، بعد وضعها «بنامين» والله أعلم.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية: وقال ابن جرير وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ، فلا يعول على أهل الكتاب فيما خالفه، وهذا قوي، والله أعلم، ورفعها على العرش، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف، الآية: ١٠٠] أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً، وكان هذا مشروعاً لهم، ولم يزل ذلك معمولاً به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا، أو قال: ﴿يَتَابَتَ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذا تعبير ما كنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين، وأمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: بعد الهم والضيق جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت^(١). والذي يميل إليه القلب أن السجود

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٤٠ - ٢٤٢).

كان عندهم سجود تحية، وكان معتاداً في ذلك الزمان، ولم يكن سجود عبادة وتقديس، والله أعلم.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠٠] أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات من بلاد الخليل، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: فيما كان منهم إليّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يُوسُف، الآية: ١٠٠] أي: إذا أراد شيئاً هياً أسبابه ويسرها، وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها ويسرها بلطيف صنعه، وعظيم قدرته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَلِيظُ﴾ [يُوسُف، الآية: ٨٣] بجميع الأمور ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف، الآية: ٨٣] في خلقه وشرعه وقدره. وعند أهل الكتاب أن «يوسف» باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها من الذهب والفضة والعقارات والأثاث، وما يملكونه كله حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاءً، ثم أطلق لهم أرضهم، وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خمس ما يشتغلون من زرعهم وثمارهم للملك، فصارت سنة أهل مصر بعده.

وحكى الشعلبي أنه كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار، قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك.

قلت: وكان أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجذب وأتى الخصب.

قال الشافعي: قال رجل من الأعراب لعمر بعدما ذهب عام الرمادة: لقد انجلت عنك وإنك لابن حرة، ثم لما رأى «يوسف» عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يَقَرُّ بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه - أي: حين يتوفاه - على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين.

وقد ذكر ابن إسحاق، عن أهل الكتاب أن «يعقوب» أقام بديار مصر عند «يوسف» سبع عشرة سنة، ثم توفي عليه السلام وكان قد أوصى إلى «يوسف» عليه السلام أن

يدفن عند أبويه «إبراهيم» و«إسحاق».

قال السدي: فصر وسيره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه «إسحاق» وجده «الخليل» ﷺ.

ولما مات «يعقوب» ﷺ بكاه أهل مصر سبعين يوماً، وأمر «يوسف» الأطباء فطبيوه بطيب، ومكث فيه أربعين يوماً، ثم خرج به «يوسف» مع حشد كبير من أكابر مصر وشيوخها ليدفنه عند أهله في مغارة بحIRON، وعملوا له عزاء سبعة أيام.

ولما حضرت «يوسف» عليه الوفاة، أوصى أن يدفن عند آبائه، وبعد موته حنطوه، ووضعوه في تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه «موسى» ﷺ معه فدفنه حيث أراد في وصيته، وكانت وفاته عن مائة وعشر سنوات. رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

٨ - ليا امرأة أيوب ﷺ

كان «أيوب» ﷺ أحد عباد الله الصالحين، ونبياً من أنبياء الله المرسلين، امتحنه الله وابتلاه، فكان حسن الظن بمولاه، والابتلاء متعدد الأشكال، متباين الألوان، فقد يقع على الإنسان في جسده، أو يتعلق بأهله وولده، وقد ينصب على متاعه وأمواله، ويفضي إلى سوء أحواله.

وكل ذلك عرض لنبي الله «أيوب» وتألبت عليه المصائب والكروب، فقابل وطأتها بالصبر، وواجه شدتها بالشكر، فاستحق ثناء الله عليه، ورد ما أخذ منه إليه، لأنه لم يكن من رحمة الله آيساً، وكان بذكر الله مستانساً.

فمن هذا النبي الصبور الذي كان مثال العبد الشكور؟

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم، وهو «أيوب بن موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل».

وقال غيره: هو «أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب»، وقيل غير ذلك في نسبه.

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت «لوط» ﷺ، وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم ﷺ يوم ألقى في النار فلم تحرقه.

والمشهور الأول لأنه من ذرية «إبراهيم»، كما قرنا عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام، الآية: ٨٤] الآيات، من أن الصحيح أن الضمير عائد على «إبراهيم» دون «نوح» ﷺ. وهو من الأنبياء المنصوص على الإحياء إليهم في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى﴾ [النساء، الآية: ١٦٣] الآية.

فالصحيح أنه من سلالة «العيص بن إسحاق»، وامرأته قيل: اسمها «ليا بنت يعقوب»، وقيل: «رحمة بنت أفرائيم» وقيل: «ليا بنت منسا بن يعقوب»، وهذا أشهر، فلهذا ذكرناه ههنا. ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء، الآيتان: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى في سورة «ص»: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ مُنْقِطًا فَاصْرَبْ يَوْمَ وَلَا تَحْثُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص، الآيات: ٤١-٤٤].

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال: أول نبي بعث «إدريس»، ثم «نوح»، ثم «إبراهيم»، ثم «إسماعيل»، ثم «إسحاق»، ثم «يعقوب»، ثم «يوسف»، ثم «لوط»، ثم «هود»، ثم «صالح»، ثم «شعيب»، ثم «موسى»، ثم «هارون»، ثم «إلياس»، ثم «اليسع»، ثم «عرفي بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب»، ثم «يونس بن متى» من بني يعقوب، ثم «أيوب بن رازح بن أموص بن ليفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم». وفي بعض هذا الترتيب نظر، فإن «هوداً» و«صالحاً» المشهور أنهما بعد «نوح» وقبل «إبراهيم»، والله أعلم.

قال علماء التفسير والتاريخ، وغيرهم: كان «أيوب» رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام، والعييد، والمواشي، والأراضي المتسعة بأرض «الْبَيْتِيَّة» من أرض حوران.

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلم من ذلك جميعه، وابتلى في جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله ﷻ بهما، وهو في ذلك صابر محتسب لله ﷻ في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه^(١).

(١) البداية والنهاية (١/٢٤٤، ٢٤٥).

ولما طال مرضه انفضَّ الناس من حوله، إلا امرأته، فكانت تصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتراعي مصلحته، حتى ضعف حالها، وشحَّ مالها، مما اضطرها إلى خدمة الناس لقاء أجر معلوم يوفر لها ولزوجها الحد الأدنى من لوازم العيش بعد فقد المال والعون، فأَي وُفِيَة كانت! ولا نغالي إذا قلنا: إنها كانت منقطعة القرين، وليس لها نظير، في مثل تلك الظروف العصيبة التي أحاطت بها، غير أن رحمة الله قريب من المحسنين، وكانت «ليا» امرأة «أيوب» منهم في صبرها وخدمتها لزوجها، وعدم جحودها لحسن معاملته لها، ورغد العيش الذي أمَّنه لها أن كان المال وافراً بين يديه.

وهل في النساء من تفعل ما فعلته «ليا» مع زوجها، إلا من كانت كريمة الأصل، طيبة المَنِّيت، مدركة لحقوق بعلمها في الشدة والرخاء، عالمة بما فضَّل الله تعالى به الرجال، وبما أوصاهم به من الإحسان إلى النساء؟

كانت «ليا» شريكة لزوجها «أيوب» في صبره على البلاء، ولئن أجهده السقام، وأرهقت جسده الآلام، فهي مقيمة إلى جانبه، لا تألو جهداً في تخفيفها، ولا تتبرَّم من طول مدة مرضه التي قيل: إنها امتدت إلى ثمانية عشر عاماً.

وجاء في الحديث الذي رواه الدارمي في «سننه» وأحمد في «مسنده»، والترمذي، وغيرهم: أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»، وقال: «يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلاءه»^(١).

لكن «أيوب» ﷺ كان كلما زاد بلاءه، واشتد سقمه، وعظم ألمه، زاد صبراً واحتساباً، وشكراً يزيد من الله اقترباً.

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه: عن محمد بن سهل بن عسكر، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، أبو هشام، قال: حدثني عبد الصمد بن معقل، قال: سمعت وَهْبَ بن منبّه يقول: إن إبليس - لعنه الله - سمع تجاوب

(١) سنن الدارمي (٢٧٨٦/٦٧/٢٠) والمسند (١٧٢/١ - ١٧٤) والترمذي (٢٣٩٨/٥٦/٣٧).

الملائكة بالصلاة على «أيوب»، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فسأل الله أن يسلطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلطه الله على ماله دون جسده وعقله، وجمع إبليس عفاريت الشياطين وعظماءهم، وكان لأيوب «البَنِيَّة» من الشام كلها بما فيها بين شرقها وغربها، وكان بها ألف شاة برعاتها، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، ويحمل آلة كل فدان أتان، لكل أتان ولد، بين اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك، فلما جمعهم إبليس، قال: ماذا عندكم من القوة والمعرفة؟ فإني قد سُلِّطْتُ على مال «أيوب»، فهي المصيبة الفادحة، والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال، فقال كل مَنْ عنده قوة لإهلاك شيء ما عنده، فأرسلهم فأهلكوا ماله كله، و«أيوب» في كل ذلك يحمد الله، ولا يثنيه شيء أصيب به من ماله عن الجدِّ في عبادة الله تعالى والشكر له على ما أعطاه، والصبر على ما ابتلاه به.

فلما رأى ذلك من أمره إبليس - لعنه الله - سأل الله تعالى أن يسلطه على ولده، فسلطه عليهم، ولم يجعل له سلطاناً على جسده وقلبه وعقله، فأهلك ولده كلهم، ثم جاء إليه متمثلاً بمعلمهم الذي كان يعلمهم الحكمة جريحاً مشدوخاً يرمقه حتى رُقَّ «أيوب» فبكى، فقبض قبضة من تراب فوضعها على رأسه، فسُرَّ بذلك إبليس، واغتمه من «أيوب» ﷺ.

ثم إن «أيوب» تاب واستغفر، فصعدت قرناؤه من الملائكة بتوبته فبرروا إبليس إلى الله ﷻ، فلما لم يثن «أيوب» ﷺ ما حَلَّ به من المصيبة في ماله وولده عن عبادة ربه، والجدِّ في طاعته، والصبر على ما ناله، سأل الله ﷻ إبليس أن يسلطه على جسده، فسلطه على جسده خلا لسانه وقلبه وعقله؛ فإنه لم يجعل له على ذلك منه سلطاناً. فجاءه وهو ساجد، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فصار من جملة أمره إلى أن أتنن جسده، فأخرجه أهل القرية إلى كُنَاسَة خارج القرية لا يقربُه أحد إلا زوجته^(١).

ومثل هذا الكلام عن نبي الله، الذي اختاره الله واصطفاه، ليقرب إليه العباد، ويبعدهم عن الشر والفساد، وقد أباه العديد من العلماء، وعدُّوه من

(١) تاريخ الطبري (١/٣٢٣، ٣٢٤).

الإسرائيليات، التي لا يجوز الركون إليها في كل الأوقات، لأنها تنافي العقول السليمة، وتسيء إلى مقام النبوة إساءة وخيمة، وقد ذكر الإمام القرطبي رحمته الله في تفسيره، نقلاً عن ابن العربي، وإذا لم يصح عن «أيوب» فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه - أي: من القرآن والحديث - عن الذي يوصل السامع إلى «أيوب» خبره؟ أم على أي لسان سمعه؟

والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، واصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خيالاً^(١).

وقد عَرَضَ «المراغي» في تفسيره لهذا الأمر فقال: وما روي من مقدار ما لحقه الضر في نفسه حتى وصل إلى حد النُّضرة منه، وأن الناس جميعاً تحاموه وطرده من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكُناسة، ولم يكن يتصل به إلا امرأته التي تذهب إليه بالزاد والقوت، فكل ذلك من الإسرائيليات التي يجب الاعتقاد بكذبها، لأنه ليس من سند صحيح يؤيدها، ولأن من شروط النبوة ألا يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه، ولأنه متى كان كذلك لا يستطيع الاتصال بهم وتبليغ الشرائع والأحكام.

وأقول ههنا: إن الله اصطفى أنبياءه ورسله من عباده البررة الأمناء الصادقين الأخيار، المطهرين المنزهين عن النجاسات والمنفرات والأقذار، ومن ذا الذي يرضى الجلوس إلى رجل تزكم رائحة نتنه الأنوف، والدود ظاهر على جسده والصدید يجري منه، ليتلقى عنه أحكام الدين، وشرائع رب العالمين؟

وأرى من واجب الدول الإسلامية أن تتداعى إلى تشكيل لجنة على مستوى عالٍ من العلم والمعرفة في الفقه الإسلامي لتصفية تراثنا من شوائب الإسرائيليات لئلا تختلط بعقول الأجيال القادمة من أبناء المسلمين، وتُلَبَّس عليهم ما هم في غنى عنه، لأن معرفة الإسرائيليات لا يهتدي إليها كل أحد، ولا يكشفها إلا الفهامة العلامة الخبير.

(١) انظر تفسير القرطبي (١٥/٢١٠).

وقد جاء في تفسير «الآلوسي» لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾^١ **أَيَّ مَسْنَى الشَّيْطَانُ يُنْصَبُ وَعَذَابُ** ﴿٤١﴾ [ص، الآية: ٤١] : وإسناد المس إلى الشيطان قيل: على ظاهره، وذلك أنه - عليه اللعنة - سمع ثناء الملائكة عليه عليه السلام على «أيوب» عليه السلام فحمده، وسأل الله تعالى أن يسلطه على جسده وماله ووَلَدَه ففعل الله ابتلاء له، ثم قال: وفي بعض الآثار أن الماس له شيطان يقال له: «سوط»، وأنكر الزمخشري ذلك فقال: لا يجوز أن يسلط الله تعالى الشيطان على أنبيائه عليه السلام ليقضي من إيتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يرَ صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحب، وجعل إسناد المس إليه هنا مجازاً فقال: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله تعالى به من النصب والعذاب نسبة إليه، وقد راعى عليه السلام الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله سبحانه في دعائه، مع أنه جَلَّ وعلا فاعله، ولا يقدر عليه إلا هو، وهذه الوسوسة قيل: وسوسته إليه عليه السلام أن يسأل الله تعالى البلاء، ليمتحن ويجرب صبره على ما يصيبه، كما قال شرف الدين عمر بن الفارض:

وبما شئت في هواك اختبرني فاختياري ما كان فيه رضاكا
وسؤاله البلاء دون العافية ذنب بالنسبة إليه لمقامه عليه لا حقيقة، والمقصود من ندائه بذلك الاعتراف بالذنب، وقيل: إن رجلاً استغاثه على ظالم، فوسوس إليه الشيطان بترك إغاثته فلم يغيثه، فمسّه الله تعالى بسبب ذلك بما مسّه.

وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وسوسة من الشيطان، فعاتبه الله تعالى بالبلاء، وقيل: وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله ووَلَدَه فابتلاه الله تعالى لذلك.

وكل هذه الأقوال عندي متضمنة ما لا يليق بمنصب الأنبياء عليه السلام، وذهب جمع إلى أن النصب والعذاب ليسا ما كانا له من المرض والألم، أو المرض وذهاب الأهل والمال، بل أمران عرضا له وهو مريض فاقد الأهل والمال، فقيل: هما ما كانا له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عظم البلاء، والقنوط من الرحمة، والإغراء على الجزع كان الشيطان يوسوس إليه بذلك، وهو يجاهده

في دفع ذلك حتى تعب وتألم على ما هو فيه من البلاء، فنادى به يستصرفه عنه، ويستعينه عليه ﴿أَيَّ مَسْنَى الشَّيْطَانُ يُضَيِّعُ وَعَذَابٌ﴾ [ص، الآية: ٤١] .

وقيل: كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره، فقليل: إن الشيطان تعرض لامرأته بصورة طبيب، فقالت له: إن ههنا مبتلى فهل لك أن تداويه؟ فقال: نعم بشرط أن يقول: إذا شفيتُه، أنت شفيتني، فمالت لذلك، وعرضت كلامه لأيوب عليه السلام، فعرف أنه الشيطان، وكان عليه ذلك أشد ممّا هو فيه، ﴿نَادَى رَبَّهُ أَيَّ مَسْنَى﴾ [الأنبياء، الآية: ٨٣] الخ.

وقيل: إن الشيطان طلب منها أن تذبح لغير الله تعالى إذا عالجه وبرأ، فمالت لذلك، فعظم عليه عليه السلام الأمر فنادى .

وقيل: إنه كان يعود ثلاثاً من المؤمنين فارتد أحدهم، فسأل عنه، فقليل له: ألقى إليه الشيطان أن الله تعالى لا يتلى الأنبياء والصالحين، فتألم من ذلك جداً، فقال ما قال .

وفي رواية: مرّ به نفر من بني إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب أصابه، وهذا نوع من وسوسة الشيطان، فعظم عليه ذلك، فقال ما قال، والإسناد على جميع ما ذكر باعتبار الوسوسة، وقيل: غير ذلك، والله تعالى أعلم .

وقوله سبحانه: ﴿أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص، الآية: ٤٢] . . . فقلنا له: هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك، فالمغتسل اسم مفعول على الحذف والإيصال وكذا الشراب، وعن مقاتل: أن المغتسل اسم مكان، أي: هذا مكان تغتسل فيه، وليس بشيء .

وظاهر الآية اتحاد المخبر عنه بمغتسل وشراب، وقيل: إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة، فاغتسل منها، وبرجله اليسرى فنبعت باردة فشرب منها، وقال الحسن: ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم ركض برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها، ولعله عني بالأولى عيناً حارة، وظاهر النظم عدم التعدد .

وقيل: أُمِرَ بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء بجسده.

وكان ذلك على ما روي عن قتادة، والحسن، ومقاتل: بأرض الجابية من الشام، وفي الكلام حذف أيضاً، أي: فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضُرٍّ: ﴿وَوَبَّنا لَهُ أَهْلُهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٣٩﴾ [ص، الآية: ٤٣]، بإحيائهم بعد هلاكهم على ما روي عن الحسن.

وروي الطبرسي عن أبي عبد الله ﷺ أن الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية، وأهله الذين ماتوا وهو في البلية.

وفي البحر: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من تشبَّت منهم.

وقيل: وإليه أميل، وهبه من كان حياً منهم، وعافاه من الأسقام، وأرغد لهم العيش، فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى، فكان له ضعف ما كان، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا، وزعم بعض أن هذا وعد وتكون تلك الهبة في الآخرة ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فُضِّلَتْ، الآية: ٥٠] أي: لرحمة عظيمة عليه من قبلنا، ﴿وَذِكْرَى لَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص، الآية: ٤٣] وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجأوا إلى الله تعالى فيما يصيهم كما لجأ ليفعل سبحانه ما فعل به من حسن العاقبة.

ثم قال «الآلوسي»: فكانت امرأته تسعى إليه، فقالت له يوماً: أما ترى يا أيوب! قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قروني برغيف فأطعمتك، فاذعُ الله تعالى أن يشفيك ويريحك، فقال: ويحك! كنا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاماً، فكان في البلاء سبع سنين، ودعا، فجاء «جبريل» ﷺ فأخذ بيده، ثم قال: قم فقام عن مكانه، وقال: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ﴿١٤٠﴾ [ص، الآية: ٤٢] فاغتسل وشرب فبرأ، وألبسه الله تعالى حلة من الجنة، فتنحَّى فجلس في ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله! أين المبتلى الذي كان هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا «أيوب» قد ردَّ الله تعالى عليّ جسدي، وردَّ الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم، وأمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل

يأخذ الجراد بيده، ويجعله في ثوبه، وينشر كساءه، فيجعل فيه، فأوحى الله تعالى إليه: يا أيوب! أما شبت؟ قال: يا رب! من الذي يشع من فضلك ورحمتك؟

وفي البحر، روى أنس عن النبي ﷺ: أن «أيوب» بقي في محنته ثمانى عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ولم يصبر عليه إلا امرأته.

وعَظُمُ بلائه ﷺ مما شاع وذاع، ولم يختلف فيه اثنان، لكن في بلوغ أمره إلى أن ألقى على كُنَاسَةٍ ونَحِرَ ذلك فيه خلاف:

قال «الطبرسي»: قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بضعة يستقذره الناس عليها لأن في ذلك تنفيراً، فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك.

وفي «هداية المريد» للقاني أنه يجوز على الأنبياء ﷺ كل عرض بشري ليس محرماً ولا مكروهاً، ولا مُباحاً مُزرياً، ولا مُزِئماً، ولا مما تعافه الأنفس، ولأنما يؤدي إلى النفرة، ثم قال بعد ورقتين، واختَرَزْنَا بقولنا: ولا زمناً ولا مما تعافه الأنفس عما كان كذلك كالإقعاد والبرص والجذام والعمى والجنون، وأما الإغماء فقال «النووي» لا شك في جوازه عليهم لأن مرض بخلاف الجنون فإنه نقص، وقيد «أبو حامد» الإغماء بغير الطويل، وجزم به «البلقيني».

قال «السبكي»: وليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم، لأنها معصومة من النوم الأخف.

قال: ويمتنع عليهم الجنون، وإن قلَّ لأنه نقص، ويلحق به العمى، ولم يَغْمَ نبي قط، وما ذكر عن «شعيب» من كونه كان ضريراً لم يثبت، وأما «يعقوب» فحصلت له غشاوة وزالت، أ. هـ.

وفرق بعضهم في عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة، فيجوز، وبين أن يكون قبل فلا يجوز، ولعلك تختار القول بحفظهم مما تعافه النفوس، ويؤدي إلى الاستقذار والنفرة مطلقاً، وحينئذ، فلا بد من القول بأن ما ابْتُلِيَ به «أيوب» ﷺ لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روي عن قتادة، ونقله القصاص في كتبهم.

وذكر بعضهم أن داءه كان الجدري، ولا أعتقد صحة ذلك، والله تعالى أعلم^(١).

ومما هو راسخ في النفس أن رحمة الله تعالى بعباده أوسع من أن تُحدَّ، وهو القائل جلَّ في علاه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف، الآية: ١٥٦].

وكان «أيوب» عليه السلام قد بعث امرأته «ليا» في حاجة فأبطأت عليه، وقيل: بلغت «أيوب» عليه السلام أن يقول كلمة محذورة فيبرأ، وأشارت عليه بذلك فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ كلمة واحدة، ثم استغفر ربك فيغفر لك، فظن أنها ارتكبت في ذلك محرماً فَحَلَفَ ليضربنها إن برىء مائة ضربة، فلما برىء أراد أن يبر بقمه، ورحمة من الرحمن الرحيم بـ «ليا» الصابرة المحتبة الوفية لزوجها، أوحى الله إلى نبيه «أيوب» عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضَغْطًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ﴾ [ص، الآية: ٤٤] والضَّغْطُ حزمة من الحشيش فيضربها بها.

وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أُمِرَ أخذ ضغْطاً من ثَمَام فيه مائة عود، والثَّمَام: نوع من العشب، وذلك كافٍ لبرئ بيمينه، وشرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضاً، لكن غير الحدود يعلم منها بالطريق الأولى.

وفي حديث لسهيل بن ضيف قال: حملت وليدة في بني ساعدة من زناً، فقيل لها: مِمَّنْ حَمَلُكَ؟ قالت: من فلان المُقْعَد، فسئل المُقْعَد، فقال: صدقت، فُرِفِعَ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: «خذوا عثكولاً فيه مائة شمراخ، فاضربوه به ضربة واحدة» ففعلوا.

وعن عبد بن حميد، عن محمد بن عبد الرحمن، عن ثوبان: أن رجلاً أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ وهو مريض على شفا موت، فأخبر أهله بما صنع، فأمر النبي ﷺ بِقَنُوه فيه مائة شمراخ، فَضْرَبَ به ضربة واحدة.

وأخرج الطبراني، عن سهل بن سعد: أن النبي ﷺ أُتِيَ بشيخ قد ظهرت عروقه، قد زنى بامرأة، فضربه بضغْطٍ فيه مائة شمراخ ضربة واحدة.

(١) روح المعاني (٢٣/٢٠٥ - ٢٠٨).

ولا دلالة في هذه الأخبار على عموم الحكم من يطبق الجلد المتعارف، لكن القائل ببقاء حكم الآية قائل بالعموم، لكن شرطوا في ذلك أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة، إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب.

فبجحان الواحد الأحد المعبود، الأمر بإقامة الحدود، على كل آثم شرود، غافر الذنب، وقابل التوب، لكل من تاب وأناب، ورجع إلى الصواب.
ورحم الله تعالى «ليا» وزوجها «أيوب» رحمة واسعة.

٩ - صفورا امرأة موسى ﷺ

﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ﴾ [النور، الآية: ٢٦] هذه آية من كلام الحكيم الحميد، ضَمَّهَا قرآنه المجيد، ومن أصدق من الله مِيلًا؟
بهذه الآية الكريمة أحبت أن أبدأ الحديث عن ربة الطهر والاحتشام، التي ارتضاها الله تعالى حليلة لكليله «موسى» ﷺ.

ولا بد لنا بادئ ذي بدء من التعرف إلى نشأة «موسى» ﷺ، وما الذي حدا به لمغادرة مسقط رأسه بمصر، وكيف ساقته قدماءه إلى دار حميه، وكيف زوجه ابنته، وما الصَّدَاق الذي اتفقت عليه الرجلان، في ذلك الزمان.

أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه نسب نبي الله موسى ﷺ فقال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: ثم إن «لاوي بن يعقوب» نكح «نابتة ابنة ماري بن يشخر» فولدت له «عَرَشُون بن لاوي» و«مَرْوَى بن لاوي» و«قاهث بن لاوي»، فنكح «قاهث بن لاوي»، «فاهي ابنة مسين بن بتويل بن إلياس»، فولدت له «يصهر بن قاهث»، فتزوج «يصهر»، «ثميت ابنة بتاديت بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «عمران بن يصهر»، و«قارون بن يصهر»، فنكح «عمران»، «يحيب ابنة شمويل بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «هارون بن عمران» و«موسى بن عمران».

وقال غير ابن إسحاق: كان عمر «يعقوب بن إسحاق» مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد «لاوي» له، وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة، وولد للاوي «قاهث» بعد أن مضى من عمر «لاوي» ست وأربعون سنة، ثم ولد لقاهث «يصهر»، ثم ولد ليصهر «عمرم» - وهو عمران - وكان عمر «يصهر» مائة وسبعاً سنة، وولد له «عمران» بعد أن مضى من عمره ستون سنة، ثم ولد لعمران «موسى»، وكانت أمه «يوخابد» - وقيل: كان اسمها «بَاخْتَة» - وامراته «صفورا ابنة تيرون»، وهو «شعيب» النبي ﷺ، وولد «موسى»، «جرشون» و«إيليعازر»، وخرج

إلى «مَدْيَن» خائفًا، وله إحدى وأربعون سنة، وكان يدعو إلى دين «إبراهيم» وتراءى الله بطور سيناء، وله ثمانون سنة^(١).

وأضاف ابن جرير يقول: عن ابن إسحاق، قال: وذكر لي أنه لما تقارب زمان «موسى» أتى منجمو فرعون وحُرَّاتُه - جمع حازٍ - وهو الكاهن - إليه، فقالوا: تَعْلَمُ أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك، ويبدل دينك، فلما قالوا له ذلك، أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من العلماء، وأمر بالنساء يُسْتَحْيَيْنَ، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته، فقال لهن: لا يسْقُطَنَّ على أيديكنَّ غلام من بني إسرائيل إلَّا قتلتموه، فكنَّ يفعلن ذلك، وكان يذبح مَنْ فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحَبَالَى فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن^(٢).

وتابع ابن جرير قوله، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: لقد دُكِرَ لي أنه كان يأمر بالقصب فيسْقُ حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصفُ بعضه إلى بعض، ثم يأتي بالحَبَالَى من بني إسرائيل فيوقفهن عليه، فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لَتَمْصَعُ بولدها - أي: تلقيه -، فيقع بين رجليها، فتظل تطؤه تتقي به حَزَّ القصب عن رجليها، لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس، وقطعت النسل، وإنهم حَوْلُكَ وعمالك، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً، فولد «هارون» في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد «موسى» في السنة التي فيها يقتلون، فكان «هارون» أكبر منه بسنة^(٣).

وأخرج ابن جرير، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة الهَمْداني، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه، أن ناراً أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة

(١) تاريخ الطبري (١/٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) تاريخ الطبري (١/٣٨٧).

(٣) الطبري (١/٣٨٨).

والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه - يعنون بيت المقدس - رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم. فذلك حين يقول الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القَصص، الآية: ٤] يقول: تجبر في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ [القَصص، الآية: ٤] يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة - ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القَصص، الآية: ٤] ، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا يبلغ الصغار، وفنى الكبار، فلو أنك تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة، ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد «هارون»، فترك.

فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت «أم موسى» بموسى، فلما أرادت وضعه حزنت من أجله، فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيْهِ بِآيَاتِنَا﴾ [القَصص، الآية: ٧] وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَسَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصص، الآية: ٧] ، فلما وضعت أرضعته، ثم دعت له نجاراً فجعل له تابوتاً، وجعل مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته في اليم ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيْهِ﴾ [القَصص، الآية: ١١] تعني: قصي أثره ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصص، الآية: ١١] ، إنها أخته، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة، ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري «آسية» امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى «آسية»، وظنن أن فيه مالاً، فلما نظرت إليه «آسية» وقعت عليه ورحمته وأحبته، فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه، فلم تزل «آسية» تكلمه حتى تركه لها.

قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَالْقَظْفَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

وَحَرَّمَ ﴿[الْقَصَص، الآية: ٨] ، فأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فذلك قول الله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحَةٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٢] ، فأخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون.

ولما جاءت أمه أخذ منها ثديها، فكادت أن تقول: هو ابني، فعصمها الله، فذلك قول الله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٠] ، وإنما سمي «موسى» لأنه وجدوه في ماء وشجر، والماء بالقبطية «مو» والشجر «شا» فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٣] فاتخذه فرعون ولدًا فدعي ابن فرعون، فلما تحرك الغلام أرته أمه «آسية» صبيًا، فبينما هي ترقصه وتلعب به إذ ناولته فرعون، وقالت: خذه قرة عين لي ولك، قال فرعون: هو قرة عين لي ولا لي.

قال عبد الله بن عباس: لو أنه قال: وهو لي قرة عين إذا لآمن به؛ ولكنه أبى. فلما أخذه إليه، أخذ «موسى» بلحيته ففتفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، هذا هو! قالت «آسية»: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا﴾ [الْقَصَص، الآية: ٩] ، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني؛ أنا أضع له حليًا من الياقوت، وأضع له جمرًا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذهب، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها، فوضعت له طستًا من جمر، فجاء «جبرائيل» فطرح في يده جمرة، فطرحها «موسى» في فيه، فأحرق لسانه، فهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٧٦﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٧٨﴾﴾ [طه، الآيتان: ٢٧ - ٢٨] ، فزالت عن «موسى» من أجل ذلك.

وكبر «موسى» فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يدعى «موسى بن فرعون»، ثم إن فرعون ركب مركبًا وليس عنده «موسى»، فلما

جاء «موسى» قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدركه المقييل بأرض يقال لها «مَنْف»، فدخلها نصف النهار، وقد تغلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا﴾ [القَصَص، الآية: ١٥] يقول: هذا من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القَصَص، الآية: ١٥] يقول: من القبط: ﴿فَاسْتَعَاذَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴿خَائِفًا أَنْ يُوْخَذَ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يقول: يستغيثه، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص، الآيات: ١٥ - ١٨]، ثم أقبل «موسى» لينصره، فلما نظر إلى «موسى» قد أقبل نحوه ليطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، قال الإسرائيلي - وفرق من «موسى» أن يبطش به من أجل أنه أغلظ الكلام -: يا موسى! ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القَصَص، الآية: ١٩]، فتركه وذهب القبطي، فأفشى عليه أن «موسى» هو الذي قتل الرجل، فطلبه فرعون، وقال: خذوه فإنه صاحبنا، وقال للذين يطلبونه: اطلبوه في بُنْيَات الطريق، فإن «موسى» غلام لا يهتدي إلى الطريق، وأخذ «موسى» في بُنْيَات الطريق، وجاءه الرجل وأخبره ﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٠، ٢١]. فلما أخذ «موسى» في بُنْيَات الطريق، جاءه مَلَكٌ على فرس بيد عَنَزَةٍ، فلما رآه «موسى» سجد له من الفَرَق - الخوف -، فقال: لا تسجد لي، ولكن اتبعني، فاتبعه، فهداه نحو «مَدْيَن».

وقال «موسى» وهو متوجه نحو «مَدْيَن»: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٢]، فانطلق به المَلَك حتى انتهى به إلى «مَدْيَن»^(١).

ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال:

قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] يقول كثرة من الناس يسقون، وقد حدثنا أبو عمار المروزي، قال: حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، قال: خرج «موسى» من مصر إلى «مَدْيَنَ»، وبينهما مسيرة ثمان ليال - قال: وكان يقال: نحو من الكوفة إلى البصرة - ولم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر، فخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثام، قال: حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس بنحوه.

رجع الحديث إلى حديث السدي: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] يقول: تحبان غنهما، فسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] فرحمهما «موسى» فأتى البئر، فاقتلع صخرة على البئر، كان النفر من أهل «مَدْيَنَ» يجتمعون عليها حتى يرفعوها، فسقى لهما «موسى» دلوأ فأروتا غنهما، فرجعتا سريعاً، وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض، ثم تولى «موسى» إلى ظل شجرة من السَّمُر، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٤]، قال: قال ابن عباس: لقد قال «موسى» ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع ما يسأل الله إلا أكلة.

فلما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً، سألهما فأخبرته خبر «موسى» فأرسل إحداهما فاتته ﴿تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥] وهي تستحي منه، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبَىٰ يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥] فقام معها، وقال لها: امضي، فمشت بين يديه، فضربتها الرياح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها «موسى»: امشي خلفي، ودليني على الطريق إن أخطأت، فلما أتى الشيخ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥]، وقال «الآلوسي» في تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّكَ أَبَىٰ يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاء سقيك على أن «ما» مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله لا ما سقاه إذ هو الماء

المباح، وأسندت الدعوة إلى أبيها، وعلَّتها بالجزاء لثلاث يوهم كلامها ريبة، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى، روي أنه ﷺ أجابها فقام معها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق فلإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، ففعلت.

وفي رواية: أنه قال لها: كوني ورائي فلإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً، وروي عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم أنها مشت أولاً أمامه، فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ففعلت حتى أتيا دار «شعيب» ﷺ.

وتابع «الآلوسي» رحمه الله قوله: واختلف في الداعي له ﷺ إلى الإجابة فقليل: الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن «موسى» ﷺ إنما أجاب المستدعية من غير تلثم ليتبرك بروية الشيخ، ويظهر برأيه، لا طمعاً بما صرحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر، عن أبي حازم، قال: لما دخل «موسى» على «شعيب» ﷺ إذا هو بالعشاء، فقال له «شعيب»: كل، قال «موسى»: أعوذ بالله تعالى، قال: ولم؟ ألسنت بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله! ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس «موسى» ﷺ فأكل.

وقيل: الداعي له ما به من الحاجة، وليس بمستكر منه - ﷺ - أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة^(١).

وتابع ابن جرير حديث المدي، فقال: ﴿قَالَتْ لِأَحَدَهُمَا يَتَأَتِ اسْتَفْجَرُهُ إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ اسْتَفْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْآيِينَ﴾ [القصر، الآية: ٢٦]، وهي الجارية التي دعت، قال الشيخ: هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، رأيت أمانته ما يدريك ما هي؟ قالت: إني مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، وأمرني أن أمشي خلفه، قال له الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْثَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي

ثُمَّ لَنِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا
عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [الفصص، الآيتان: ٢٧، ٢٨] ، إما ثمانية
وإما عشرة^(١) .

وروى الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ،
قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما» .

وتابع ابن جرير حديث السدي، فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾
[الفصص، الآية: ٢٩] فضل الطريق، قال عبد الله بن عباس: كان في الشتاء، ورفعت
له نار، فلما ظن أنها نار - وكانت من نور الله - ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فإن لم أجد خبراً أتيتكم منها بشهاب قيس ﴿لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ﴾ [الفصص، الآية: ٢٩] - قال: من البرد - ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ
الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفصص، الآية: ٣٠] . ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي
النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشم، الآية: ٨] فلما سمع «موسى» النداء فزع وقال: الحمد لله
رب العالمين، فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفصص، الآية: ٣٠]
﴿وَمَا تِلْكَ يَسْمِينَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ﴾
[طه، الآيتان: ١٧، ١٨]، يقول: أضرب بها الورق، فيقع للغنم من الشجر، ﴿وَلِيَّ
فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه، الآية: ١٨] يقول: حوائج أخرى، أحمل عليها المزود
والسقاء، فقال له: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةُ شَعِيرٍ﴾ [طه،
الآيتان: ١٩ - ٢٠] ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ بَعْقَبٌ﴾ [الفصص، الآية: ٣١] ،
يقول: لم ينتظر، فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الشم،
الآية: ١٠] ، ﴿أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ ﴿وَأَضْمَمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ
الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الفصص، الآيتان: ٣١، ٣٢] ، العصا واليد
آيتان، فذلك حين يدعو «موسى» ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ﴾ ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [الفصص، الآيتان: ٣٣، ٣٤] ، قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ

يَقْتُلُونَ ﴿١٤﴾ [الشُّعْرَاءُ، الآية: ١٤] - يعني بالقتيل - ﴿قَالَ سَنَنْذِرُ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [الْقَصَصُ، الآية: ٣٥] - والسلطان الحجة - ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَابِعِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [الْقَصَصُ، الآية: ٣٥] ، ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشُّعْرَاءُ، الآية: ١٦] .

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص، الآية: ٢٩] ، - خرج فيما ذكر لي ابن إسحاق، عن وهب بن منبه اليماني - فيما ذكر له - عنه، ومعه غنم له، ومعه زنده له وعصاه في يده يهش بها على غنمه نهاره، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه يتوكأ على عصاه، وكانت - كما وُصِفَ لي عن وهب بن منبه - ذات شعبتين في رأسها، ومحجن في طرفها.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عمن لا يتهم من أصحابه، أن كعب الأحبار قدم مكة، وبها «عبد الله بن عمرو بن العاص» فقال «كعب»: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم فإنه عالم، سلوه عن شيء من الجنة، وضعه الله للناس في الأرض، وسلوه ما أول ما وضع في الأرض؟ وما أول شجرة غرست في الأرض؟ فسئل «عبد الله» عنها فقال: أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود، وأما أول ما وضع في الأرض فبرهوت باليمن يرده هام الكفار، وأما أول شجرة غرسها الله في الأرض، فالعوسجة التي اقتطع منها «موسى» عصاه، فلما بلغ ذلك «كعباً» قال: صدق الرجل، عالم والله!.

قال: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتدأه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ فيها الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح ناراً لأهله ليسيئوا عليها حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد عليه زنده فلا يوري له ناراً، فقدح حتى إذا أعياه لاحت النار فرآها ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَاسَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَايِكُمْ مِنْهَا يُفْقِسُ أَوْ أَحِدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه، الآية: ١٠] . بقبس تصطلون، وهدى: عن علم الطريق الذي أضلنا بنعت من خير، فخرج نحوها، فإذا هي في شجرة من العُلُق. وبعض أهل الكتاب يقول: في عَوْسَجَة، فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد

الرجعة دنت منه، ثم كُلِّمَ من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله: يا موسى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: الآية: ١٢]، فآلقاهما، ثم قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه: الآيتان ١٧، ١٨] أي: منافع أخرى ﴿قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَى﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠]، قد صار شعبها فمها، وصار محجنها عُزْفاً لها، في ظهر تهتز، لها أنياب، فهي كما شاء الله أن تكون، فرأى امرأاً فظيعاً فولَّى مدبراً ولم يُعَقِّبْ، فناداه ربه: أن يا موسى! أقبل ولا تخف ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: الآية: ٢١]. أي: سيرتها عصاً كما كانت. قال: فلما أقبل قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: الآية: ٢١]، أدخل يدها في فمها، وعلى «موسى» جبة صوف، فَلَفَّ يده بكمه، وهو لها هائب، فنودي أن أُلْقِ كَمَكَ عن يدها، فآلقاها عنها، ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها، فإذا هي عصاه في يده، ويده بين شعبيها حيث كان يضعها، ومحجنها بموضعه الذي كان لا ينكر منها شيئاً، ثم قيل: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل، الآية: ١٢] أي: من غير برص - وكان «موسى» ﷺ رجلاً آدم، أقنى، جعداً، طَوَّالاً - فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج، ثم رَدَّهَا فِي جيبه، فخرجت كما كانت على لونه، ثم قال: ﴿فَذَرِكْ بُرْهَنَيْنِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فَرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مَنَّهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴿٢٥﴾ [القصاص، الآيات: ٣٢ - ٣٤] أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [القصاص، الآية: ٣٥].

وتابع ابن جرير حديث السدي: فأقبل «موسى» إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً، فتضيَّف على أمه، وهو لا يعرفهم، فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها «الطَفَيْشَل» - نوع من المَرَق -، فنزل في جانب الدار.

فجاء «هارون»، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه، فأخبرته أنه ضيف، فدعاه فأكل معه، فلما أن قعدا تحدثا، فسأله «هارون»: من أنت؟ قال: أنا «موسى»، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتقه، فلما أن تعارفا قال له «موسى»: يا

«هارون!» انطلق معي إلى فرعون، إن الله قد أرسلنا إليه، فقال «هارون»: سمعاً وطاعة، فقامت أمهما فصاحت، وقالت: أنشدكما الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما، فأبيا، فانطلقا إليه ليلاً، فأتيا الباب فضرباه، ففزع فرعون، وفزع البواب، وقال فرعون: مَنْ هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البواب، فكلمهما، فقال له «موسى»: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف، الآية: ٤٦]، ففزع البواب، فأتى فرعون فأخبره، فقال: إن ههنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين، قال: أدخله، فدخل، فقال: إني رسول رب العالمين، أن أرسل معي بني إسرائيل، فعرفه فرعون، فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء، الآيات: ١٨، ١٩] معنا على ديننا هذا الذي تعيب! ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَاثًا مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء، الآية: ٢٠، ٢١] - والحكم والنبوة - ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء، الآيات: ٢١، ٢٢] وربيتني قبل وليداً! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا أَلْعَلَّيْكَ﴾ [الشعراء، الآية: ٢٣]، ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُودِيٌّ﴾ [الشعراء، الآية: ٢٤] ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: الآية: ٤٩، ٥٠]، يقول: أعطى كل دابة زوجها، ثم هدى للنكاح، ثم قال له: ﴿إِنْ كُنْتَ حِثْتَ بِتَابِعٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٠٦]، وذلك بعدما قال له من الكلام ما ذكر الله تعالى، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ حِثُّكَ يَتَّى وَثِينٍ﴾ [الشعراء، الآية: ٣٠، ٣٢] . - والشعبان الذكر من الحيات - فاتحة فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دُعِرَ منها ووثب، فأحدث - ولم يكن يحدث قبل ذلك - وصاح: يا «موسى»! خذها وأنا أو من بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها «موسى» فعادت عصاً، ثم نزع يده وأخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء للناظرين، فخرج «موسى» من عنده على ذلك، وأبى فرعون أن يؤمن به، أو يرسل معه بني إسرائيل، وقال لقومه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرٍ فَأَوْفِدْ لِي بِهَمْدُنْ عَلَى الْطَّلِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص، الآية: ٣٨] .

فلما بنى له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء، فَرُدَّتْ إليه، وهي ملطخة دماً، فقال: قد قتلت إله «موسى»^(١).

ويل له من كذاب مبين! ثم ويل له حين يقف ذليلاً صاعراً بين يدي رب العالمين! ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال: ذُكِرَ أن الآيات التي ابتلى الله بها قوم فرعون كانت قبل اجتماع «موسى» والحرّة، وقال لما رجع إليهم السهم ملطخاً بالدم، قال: قد قتلنا إله «موسى»، ثم إن الله أرسل عليهم الطوفان - وهو المطر - فغرق كل شيء لهم، فقالوا: يا «موسى»! ادعُ لنا ربك يكشف عنا، ونحن نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فكشفه الله عنهم، ونبتت زروعهم، فقالوا: ما يَسْرُنَا أنا لم نمطر، فبعث الله عليهم الجراد فأكل حروثهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه ويؤمنوا به، فدعا فكشفه، وقد بقي من زروعهم بقية، فقالوا: لن نؤمن وقد بقي لنا من زروعنا بقية، فبعث الله عليهم الدّبا - وهو القمل - فَلَحَسَ الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء دَباً، حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجص والآجر، فيزلقها حتى لا يرتقي فوقها شيء من الذباب، ثم يرفع فوقها الطعام، فإذا صَعِدَ إليه ليأكله وجده ملان دَباً، فلم يصبهم بلاء كان أشد عليهم من الدّبا، وهو الرّجز الذي ذكره الله في القرآن أنه وقع عليهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه عنهم ويؤمنوا به، فلما كشف عنهم أبوا أن يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان الإسرائيلي يأتي هو والقبطي فيستقيان من ماء واحد، فيخرج ماء هذا القبطي دماً، ويخرج للإسرائيلي ماء، فلما اشتد ذلك عليهم سألوا «موسى» أن يكشفه ويؤمنوا به، فكُشِفَ ذلك عنهم، فأبوا أن يؤمنوا، فذلك حين يقول الله: ﴿فَلَمَّا كُتِفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ [الزّخرف، الآية: ٥٠]، ما أعطوا من العهود، وهو حين يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّينِ﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠] - وهو الجوع - ﴿وَنَقِصَ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠].

ثم إن الله ﷻ أوحى إلى «موسى» و«هارون» أن: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَنَلْمُكَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه، الآية: ٤٤]، فأتياه فقال له «موسى»: هل لك يا

فرعون! في أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك لا ينزع منك، ويرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة؟ تؤمن بي، فوقعت في نفسه هذه الكلمات، وهي اللبنة، فقال: كما أنت حتى يأتي «هامان»، فلما جاء «هامان»، قال له: أشعرت أن ذلك الرجل أتاني؟ قال: من هو؟ - وكان قبل ذلك، إنما يسميه الساحر، فلما كان ذلك اليوم لم يسمه الساحر - قال فرعون: «موسى»، قال: وما قال لك؟ قال: قال لي: كذا وكذا، قال «هامان»: وما رددت عليه؟ قال: قلت: حتى يأتي «هامان» فأستشير، فعجزه «هامان»، وقال: قد كان ظني بك خيراً من هذا، تصير عبداً يُعبد بعد أن كنت رباً يُعبد! فلذلك حين خرج عليهم فقال لقومه وجمعهم فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التَّارِغَات، الآية: ٢٤]، وكان بين كلمته ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفَصَص، الآية: ٣٨]، وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التَّارِغَات، الآية: ٢٤] أربعون سنة، وقال لقومه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتِيتْ فِي الدَّائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿بِأَتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشُّعْرَاء، الآيات: ٣٤ - ٣٧]، قال فرعون: ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿طه، الآيتان: ٥٧، ٥٨﴾ يقول: عدلاً، قال «موسى»: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحُي﴾ [طه، الآية: ٥٩] - وذلك يوم عيد لهم - ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه، الآية: ٦٠]، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، فحشروا عليه السحرة، وحشروا الناس ينظرون، يقول: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُتَّعِمُونَ﴾ ﴿لَمَلْنَا نَبْعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَفْغَلِينَ﴾ [الشُّعْرَاء، الآيتان: ٣٩، ٤٠] إلى قوله: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِينَ﴾ [الشُّعْرَاء، الآية: ٤١] يقول: عطية تعطينا ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعْرَاء، الآية: ٤٢] فقال لهم «موسى»: ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْرَؤُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه، الآية: ٦١]، يقول: يهلككم بعذاب، ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَاسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه، الآية: ٦٢] من دون «موسى» و«هارون»، وقالوا في نجواهم: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ [طه، الآية: ٦٣]، يقول: بأشراف قومكم، فالتقى «موسى» وأمير السحرة، فقال له «موسى»: رأيتك إن غلبتك، أتؤمن بي

خرج من الطرف الآخر، ويقول آخرون: بل كان بين الغرقى، فقد أمر الله البحر أن يلفظه إلى الشاطئ ليرى أتباعه وأعداؤه تلك النهاية المخزية لذلك الإله المزعوم الذي أكره الناس على عبادته حيث قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ۖ فَآخِذْهُ ۚ اللَّهُ تَكَاَلِ الْآخِرَ وَالْأُولَى ۝﴾ [التَّازِعَات، الآيتان: ٢٤، ٢٥] أخذ عزيز مقتدر، والحمد لله رب العالمين.

ونقل أبو جعفر الطبري، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: حدثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل، فلم يبق منهم أحد أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن يتقدم، فعرض له «جبرائيل» على فرس أنثى وديق - الفرس الوديق: التي تريد الفحل -، فقرَّبها منه، فشمها الفحل، ولما شَمَّها قَدَّمها، فتقدم معه الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون أن فرعون قد دخل دخلوا معه، وجبرائيل أمامه، فهم يتبعون فرعون، و«ميكائيل» على فرس خلف القوم يشحذهم يقول: الحقوا بصاحبكم، حتى إذا فصل «جبرائيل» من البحر ليس أمامه أحد طَبَّق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذله وخذلته نفسه، نادى: أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

وعن ابن عباس ؓ، قال: جاء «جبرائيل» إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! لقد رأيتني وأنا أَدَس من حَمَلِ البحر في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة! يقول الله: ﴿إِنَّا كُنَّا وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾ ٩١ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يُونُس، الآيتان: ٩١، ٩٢] أي: سواء لم يذهب منك شيء ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يُونُس، الآية: ٩٢] أي: عبرة وبيِّنة، فكان يقال: لو لم يخرج الله ببدنه لشك فيه بعض الناس^(١).

وهكذا طوى الله صفحة «فرعون» أحد العتاة المستكبرين، الذي أراد أن ينازع فاطر السماوات والأرضين، في ملكوته فقصمه الله فكان عبرة للمعتبرين.

وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋﻠﻴﻪ : الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما؛ قذفته في النار» (١).

ولكن، وبعد القضاء على فرعون وبطانته، هل انتهت متاعب «موسى» عليه السلام مع بني إسرائيل؟ كلا، لم تنته، فقد لقي منهم العنت والمرارة والأسى، وكانت يد الزوج الحنون «صفورا» تمسح عن جبينه كل ذلك حين يرجع إليها متعباً مكدوداً، وتهدئ له كل أسباب الراحة والهناء.

والحق أن خير الأزواج لبعولتهن، المرأة الصالحة الملتزمة بأمر الله تعالى، المطبقة لسنة رسول الله ﷺ، المعينة لزوجها على أمور دينه.

وكانت «صفورا» عليها السلام، لا تألو جهداً في إسعاد «كليم الله» عليه السلام تطيعه إذا أمرها، وتتهي عن كل ما ينهاها، وتجعل رضاه مقدماً على رضاها، ولما كان الصداق الذي اتفق عليه «موسى» عليه السلام مع أبيها «شعيب» عليه السلام أن يعمل لديه ويرعى له غنمه ثمانين حجاج أو عشراً فقد وفى له «موسى» عليه السلام بالأجل الأتم وهو عشر سنوات، ثم انطلق مع زوجه الحامل «صفورا» لما أَرَادَهُ اللهُ، ويدعو فرعون إلى الله بعد أن ودَّعَ حَمَاهُ «شعيباً» عليه السلام وكان زواجه قد أثمر ولدین، خلال الأجل المشروط، وبعد وصول أسرة «الكليم» إلى أرض الكنانة، قَلَّتْ وانقطعت أخبار «صفورا» وأولادها، وإن كان المكان الذي تنزل فيه يفيض بالشذا والعبير ﷻ، وأدخلها في رحمته، وعلى بعلها «موسى» صلاة الله وسلامه.

(١) رواه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر.

١٠ - أشياع امرأة زكريا ﷺ

كان نبي الله «زكريا بن برخيا»^(١) و«عمران بن ماثان» متزوجين من أختين، أما الأول فقد تزوج من «أشياع بنت فاقوذ»^(٢)، وأما الثاني فقد تزوج من «حنة بنت فاقوذ»، فأنجبت «أشياع» لزوجها «يحيى بن زكريا» ﷺ وأنجبت «حنة» لزوجها «مريم بنت عمران» ﷺ، وعلى هذا يكون «يحيى» ابن خالة «عيسى» ﷺ، ومات «عمران بن ماثان» وامراته «حنة» حامل بمريم، فلما وضعتها بعد رحيل أبيها، كفلها زوج خالتها «زكريا» ﷺ، وكان نجاراً.

وفي الحديث الذي رواه، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعث «عيسى ابن مريم»، «يحيى بن زكرياء» في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: فكان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ.

قال: وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه، يريد أن يتزوجها، وكانت لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها، قالت لها: إذا دخلت على الملك، فسألك حاجتك، فقولي: حاجتي أن تذبح لي «يحيى بن زكرياء»، فلما دخلت عليه سألتها حاجتها، قالت: حاجتي أن تذبح لي «يحيى بن زكرياء»، فقال: سليني غير هذا، قالت: ما أسألك إلا هذا، قال: فلما أبت عليه دعا «يحيى»، ودعا بطست، فذبحه، فَنَدَرَت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله «بختنصر» عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل، فدلته على ذلك الدم، قال: فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفاً منهم من بين واحدة، فسكن.

(١) زكريا بن برخيا عند الطبري (٥٨٥/١) وفي غرر التبيان (٢٢٥) زكريا بن أذن.

(٢) أشياع بالياء كما جاء في غرر التبيان (ص ٢٢٥ و ٣٢٨)، وفي تاريخ الطبري (٥٨٥/١) قال الأشياع بالباء، وفي تفسير (روح المعاني) إيشاع (١٣٣/٣).

وكانت «أشياء» قد حرمت من الإنجاب لعقمها، وكان زوجها «زكريا» ﷺ تواقاً إلى الولد، وقد وَخَطَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ، ومَلَأَ الْأَسَى نَفْسَهُ.

وفي ليلة اذْلَهَمَ ظلامها، واخلَوْلَكَ سوادها، رمق الشيخ السماء بمقلته، وسأل ربه المَنَّ بِحاجته، وكان صوته خفياً، فقد بلغ من الكبر عتياً، وهو لا يريد أن يُسْمَعَ أحداً، إلا الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

قال تعالى في التنزيل العزيز: ﴿كَهَيْصَ ① ذِكْرِ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ②﴾ إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِنُّ بُرْتُ مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾ [مریم، الآيات: ١-٦].

ووصل نداء العبد الفقير الضعيف، إلى سمع مولاه الغني اللطيف، وهبط المَلَكُ بالجواب، مخترقاً طبقات السحاب، ومعه خير بشرى من العزيز الوهاب: ﴿يَزَكِّرِيَّا إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑦﴾ [مریم، الآية: ٧]، فيا لها من بشرى عظيمة! جادت بها يد كريمة.

وكانت فرحة «أشياء» عارمة وسعادتها بغير حدود، لأنها ستضع لزوجها الشيخ أول مولود، ولم يرض خالق الجود والكرم، إلا بإسباغ العطايا والنعم، فسَمَّى لهما الغلام، وذلك أبلغ في الإكرام، وأصبحت «أشياء» أم يحيى، وتلك لها أغلى أمانى الدنيا.

ولم يكن ليحيى ﷺ شريك في ذلك الاسم حيث لم يسم أحد قبله به. على ما روى ابن عباس ؓ، وقتادة، والسدي، وابن أسلم، وفي هذا مزيد من التشريف والتفخيم له ﷺ، وهذا كما قال جار الله الزمخشري شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يتعملونها جديرة بالآثرة وإياها كانت العرب تنحى في التسمية لكونها أُنْبَى وَأَنْوَى وَأَنْزَى عن النَّبَرِ حتى قال القائل في مدح قوم:

شنع الأسامي مسبلي أُرُرٍ حمر تمس الأرض بالهدب
وقيل للصلت بن عطاء: كيف تقدمت عند البرامكة، وعندهم من هو أدب منك؟ فقال: كنت غريب الدار، غريب الاسم، خفيف الجرم، شحيحاً بالإشلاء،

فذكر مما قدمه كونه غريب الاسم. وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وغيرهما، عن مجاهد أن (سمياً) بمعنى شبيهاً، وروي عن عطاء، وابن جبير مثله، أي: لم نجعل له شبيهاً حيث إنه لم يعص ولم يهَمْ بمعصية، فقد أخرج أحمد، والحكيم، والترمذي في «نوادير الأصول»، والحاكم، وابن مردويه، عن ابن عباس أن النبي ﷺ، قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة، إلا يحيى بن زكريا ﷺ»، لم يهَمْ بخطيئة ولم يعملها».

وقيل: لم يكن له شبيه لذلك، ولأنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر.

وقيل: لأنه كان كما وصف الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٣٩]، فيكون هذا إجمالاً لذلك، وإنما قيل للشبه سمي لأن المتشابهين يتشاركان في الاسم^(١).

ولما سمع «زكريا» ﷺ بالبشرى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مریم، الآية: ٨]، إنه ﷺ تساءل كيف تلد امرأتي وهي عاقر لم تلد في شبابها وشبابي، وهي الآن عجوز، وقد بلغت أنا من أجل كبر السن يساً وقحولاً أو حالة لا سبيل إلى إصلاحها، وقيل: إن عمره ﷺ حين بشر بالولد كان مائة وعشرين سنة، أو تسعاً وتسعين سنة، أو اثنتين وتسعين سنة، أو خمساً وثمانين سنة، أو خمساً وسبعين سنة، أو سبعين سنة، أو ستين سنة، أما عمر امرأته «أشياع» فكان ثمانين وتسعين سنة. وجاء الجواب ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِن قَبْلُ وَلَوْ تَلَكَ شَيْئًا﴾ [مریم، الآية: ٩]. المراد من ذلك أن الأمر على الله جد يسير، فهو ﷺ كامل القدرة عليه وإذا أراد شيئاً كان، وقد (خلقتك) أي: أوجدتك بعد أن كنت معدوماً ولم يصعب عليّ ذلك، على الرغم من ثقة نبي الله «زكريا» ﷺ بصدق وعد الله، وقدرته على تحقيق ما بشره به، وتطيناً لقلبه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مریم، الآية: ١٠]، يا رب! أعطني علامة تدلني على تحقق الأمر الذي سألتك إياه ووقوعه، فأجيب أن العلامة أَلَّا تقدر على تكليم الناس بكلامهم المتداول فيما بينهم، وحال

(١) روح المعاني (١٦/٦٥، ٦٦).

محاوراتهم. وقد روي عن أبي زيد أنه لما حملت زوجته ﷺ أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقها، ودام ذلك ثلاث ليال بأيامهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾ [مریم، الآية: ١١] أي: من المصلى، روي أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا فينبأهم هم كذلك إذ خرج عليهم متغيراً لونه فانكروه، وقالوا: مالك؟ فأشار إليهم، وقال ابن عباس: كتب لهم على الأرض. وتحقق الحلم ووضعت «أم يحيى» طفلها.

قال تعالى: ﴿يَبْيِخِي خُذِ الْكِتَابَ يَقُوفُ ۖ وَءَايَتُنَا الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝﴾ [مریم، الآيات: ١٢-١٥]. لقد أمر بأخذ التوراة لأن الإنجيل لم يكن موجوداً يومها، وأن يكون أخذه بجِدٍّ واستظهار وعمل بما تضمنه.

وقد أخرج أبو نعيم، وابن مردويه، والديلمي، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال في ذلك: أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً، قال الغلتمان ليحيى بن زكريا ﷺ: اذهب بنا نلعب، فقال: أَلَلَّعِبِ خُلُقْنَا، اذهبوا نصلي فهو قوله تعالى: ﴿وَأَيَّتُنَا الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والحكم على هذا بمعنى الحكمة، وقيل: بمعنى العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسة الصادقة، وقيل: النبوة، وعليه كثير، قالوا: أوتيتها وهو ابن سبع سنين أو ابن ثلاث أو ابن سنتين، ولم ينبا أكثر الأنبياء ﷺ قبل الأربعين.

لقد أثنى الله تعالى على «يحيى» ﷺ، فقد كان تقياً متجنباً للمعاصي، وقد جاء في الحديث أنه ﷺ: «ما عمل معصية ولا همَّ بها».

وأخرج مالك، وأحمد في الزهد، وابن المبارك، وأبو نعيم، عن مجاهد، قال: كان طعام «يحيى بن زكريا» ﷺ العشب، وإنه كان ليبيكي من خشية الله تعالى، حتى لو كان القار على عينه لخرقه، وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في

وجهه، وكان شديد البرِّ بوالديه، كثير الإحسان إليهما، وكان بعيداً من الكِبَر والتجبر والتعالي عن قبول الحق والخضوع له، وهو جم التواضع لا يتناول على أحد، ولم يخالف أمراً لمولاه، ولم يعقَّ أُمَّهُ وأباه، مما جعله جديراً ببناء الله عليه، وذكر ذلك في كتاب سيتلى حتى قيام الساعة، فما أعظم هذا التكریم! وما أولى «ابن زكريا» ﷺ به!

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم، الآية: ١٥] قال الطبري: أمان من الله تعالى عليه، يوم ولد من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم، ويوم يموت من وحشة فراق الدنيا، وهو المطلع وعذاب القبر، وفيه دليل على أنه يقال للمقتول ميت بناء على أنه ﷺ قتل لبغي من بغايا بني إسرائيل، ويوم يبعث حياً من هول القيامة وعذاب النار، ومما لا ريب فيه أنه ﷺ من الشهداء، جزاهم الله خير الجزاء.

وذكر «الآلوسي» رحمه الله قول ابن عطية: الأظهر أن المراد بالسلام التحية المتعارفة والتشريف بها لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله ﷻ.

وجاء في خبر رواه أحمد في الزهد، وغيره، عن الحسن: أن «عيسى» و«يحيى» ﷺ التقيا، وهما ابنا الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادْعُ الله تعالى لي فأنت خير مني، فقال له «عيسى»: بل أنت ادْعُ لي، فأنت خير مني، سَلَّمَ الله تعالى عليك، وإنما سَلَّمْتُ على نفسي^(١).

وقد عقب الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره القيم^(٢) عند تفسير قوله تعالى بما هو آتٍ إذ قال: ﴿يَزْكُرِيَا﴾ [مريم، الآية: ٧] في الكلام حذف، أي: فاستجاب الله دعاءه، فقال: ﴿يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم، الآية: ٧] فتضمنت هذه البشري ثلاثة أشياء:

أحدها: إجابة دعائه وهي كرامة.

(١) روح المعاني (١٦/٧٤).

(٢) تفسير القرطبي (١١/٨٢).

الثاني: إعطاؤه الولد وهو قوة.

الثالث: أن تفرّد بتسميته.

وقد أخرج صاحب «الدر المنثور»، ما رواه ابن أبي حاتم، عن مجاهد، قال: لما دعا «زكريا» ربه أن يهب له غلاماً هبط «جبريل» ﷺ فبشره بيحيى، فقال «زكريا» عندها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران، الآية: ٤٠]، وأخبر بكبر سنه، وعلة زوجته، فأخذ «جبريل» عوداً يابساً، فجعله بين كفي «زكريا» فقال: أدرجه بين كفيك، ففعل، فإذا في رأسه عود بين ورقتين يقطر منهما الماء، فقال «جبريل»: إن الذي أخرج هذا الورق من هذا العود، قادر على أن يخرج من صلبك ومن امرأتك العاقر غلاماً^(١).

ومن المفيد أن نذكر أن توثيق الصلة بين العبد وربّه، والاشتغال بذكره، وكثرة التقرب إليه، أدعى إلى إجابة دعاء العبد، ولم يكن «زكريا» ﷺ قصياً عن هذا المنهاج، ولذلك نوّله الله، ما رامه وتمناه.

ولو لم يكن نهج «أشيع» أم «يحيى» ﷺ موافقاً لنهج «أبي يحيى» لكانت رغبته ورغبة زوجها بعيدة المنال، ومن رام شيئاً من ذي الجلال، فليصلح معه الحال.

وقد أخرج الحافظ «أبو نُعَيْم الأصفهاني» في «حلية الأولياء» فقال: حدثنا عثمان بن محمد العثماني: ثنا أبو الحسن محمد بن أحمد، ثنا عمر بن محمد بن يوسف، قال: سمعت أبا جعفر الصفار، يقول: سمعت الفيض بن إسحاق الرقي، يقول: سمعت الفضيل بن عياض، يقول: قال عبد الواحد بن زيد: سألت الله ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنة، فرأيت كأن قائلاً يقول لي: يا عبد الواحد! رفيقك في الجنة «ميمونة السوداء» فقلت: وأين هي؟ فقال: في آل بني فلان بالكوفة، قال: فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها، فقيل: هي مجنونة بين ظهرائنا ترعى غنيمات لنا، فقلت: أريد أن أراها، قالوا: اخرج إلى الخان، فخرجت، فإذا هي قائمة تصلي، وإذا بين يديها عكاز لها، فإذا عليها جبة من

(١) الدر المنثور (٥/٤٨١).

صوف مكتوب عليها: لا تباع ولا تشتري، وإذا الغنم مع الذئب، لا الذئب تأكل الغنم، ولا الغنم تفزع من الذئب، فلما رأته أوجزت في صلاتها، ثم قالت: ارجع يا بن زيد! ليس الموعد ههنا، إنما الموعد ثم، فقلت لها: رحمك الله! وما يعلمك أني «ابن زيد؟» فقالت: أما علمت أن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فقلت لها: عطيني، فقالت: واعجباً لواعظ يوعظ، ثم قالت: يا بن زيد! إنه بلغني: ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً، فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه، ويبدله بعد القرب البعد، وبعد الأنس الوحشة، ثم أنشأت تقول:

يا واعظاً قام لاحتساب يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقاً هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا غيبك أو تبست من قريب
كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب
تنهى عن الفحشاء والتعمادي وأنت في النهي كالمرتب
فقلت لها: إني أرى هذه الذئب مع الغنم، لا الغنم تفزع من الذئب، ولا الذئب تأكل الغنم، فأيش هذا؟ فقالت: إليك عني، فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي، فأصلح بين الذئب والغنم^(١). فهل هناك من يرغب حقاً في أن يصلح ما بينه وبين سيده؟ إذأ فليبادر وشيكاً إلى ذلك قبل فوات الأوان، وحينئذ لن ينفع الندم أي ندمان.

وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه «أبو ذر» رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيدة فجزاء سيئة مثلها، أو أغفر».

ومن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بقرب الأرض خطيئة، ثم لا يُشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة^(٢).

(١) حلية الأولياء (١٣٧/٦، ١٣٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٢١) في الأدب، باب: فضل العمل.

وجعلت بابها في وسط الحائط، وكانت لا يصعد عليها إلا بسلم مثل باب الكعبة.

وكان لا يدخل عليها أحد إلا «زكريا» ﷺ كفيلاً المكلف من قبل الله تعالى، فيرى العجب مما لديها من الرزق، فقد أخرج ابن جرير، عن الربيع، قال: إنه كان لا يدخل عليها غيره، وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

وعن ابن عباس ؓ أن ذلك من ثمار الجنة، والذي عليه الجمل أن ذلك عوض لها عن الرضاعة، فقد روي أنها لم ترضع ثدياً قط، وقيل: إن هذا كان بعد أن ترعرعت، ففي رواية ابن بشر عن ابن عباس ؓ أن «زكريا» - عليه الصلاة والسلام - استأجر لها ظئراً، فلما تم لها حولان، فطمت وتركت في المحراب وحدها، وأغلقت عليها الباب، ولم يتعهد أمرها سواه.

﴿قَالَ يَمْرَيْمُ أَنِّي لَأَكُفُّ هَذَا﴾ [آل عمران، الآية: ٣٧] أي: من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، والأبواب مغلقة دونك؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قيل: أرادت من الجنة، وقيل: مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر فلا تعجب ولا تستبعد، وقيل: تكلمت بذلك صغيرة كعيسى - عليه الصلاة والسلام -، وقد جمع من تكلم كذلك فبلغوا أحد عشر نفساً، وقد نظمهم «الجلال السيوطي» قال:

تكلّم في المهد النبي (محمد)	(ويحيى وعيسى والخليل ومريم)
ومُبرّي (جريج) ثم (شاهد يوسف)	(وطفل لدى الأخدود) يرويه مسلم
(وطفل) عليه بالأمّة التي	يقال لها تزني ولا تتكلّم
وماشطة في عهد فرعون (طفلها)	وفي زمن الهادي (المبارك) يختم

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده أن يرزقه ﴿يَغْيِرُ حِسَابَ﴾، وقد أخرج أبو يعلى عن جابر: أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى «فاطمة» فقال: يا بنية! هل عندك شيء أكله فإني جائع؟ فقالت: لا والله!

فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته

منها، فوضعت في جفنة لها، وقالت: لأُوثِّرَنَّ بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شُبَّةِ طعام، فبعثت «حسناً» و«حسيناً» إلى رسول الله ﷺ فرجع إليهما، فقالت له: بي أنت وأمي، قد أتى الله بشيء قد خبأته لك، قال: هلمي يا بنية بالجفنة! فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهتت، وعرفت أنها بركة من الله تعالى، فحمدت الله تعالى، وقدمته إلى النبي ﷺ، فلما رآه حمَّد الله تعالى، وقال: من أين لك هذا؟ يا بنية! قالت: يا أبتى! هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله سبحانه ثم قال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فسلت عنه، قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ثم جمع «علياً» و«الحسن» و«الحسين»، وجمع أهل بيته حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت «فاطمة» رضي الله عنها على جيرانها^(١).

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [الذَّارِيَات، الآية: ٢٢]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾ [الذَّارِيَات، الآية: ٥٨].

والله جلَّ في علاه، يعطي الرزق لمن يحب ولمن يكره، ولكنه لا يعطي الإيمان إلا لمن يحب، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ ﴿١﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢﴾ [الطَّلَاق، الآيتان: ٢، ٣] فهنيئاً للمتقين، ما أعد لهم رب العالمين حيث قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴿٥٥﴾ [النَّحْصَر، الآيتان: ٥٤، ٥٥] وكان «زكريا» وامراته «أشياء» وولدهما «يحيى» من المتقين، رحمهم الله تعالى.

(١) انظر روح المعاني (٣/ ١٣٩ - ١٤١).

١١ - أزواج سيد البشر ﷺ، ورضي الله عنهم

أجمع كُتَّاب السيرة النبوية المطهرة على أن رسول الله ﷺ تزوج إحدى عشرة امرأة، كلهن نُبَّيات، إلا المبرِّاة المطهرة قدوة العفيفات، «عائشة» الصُّدِّيقَة ﷺ فقد كانت البكر الوحيدة، وتلك مَنْقَبَةٌ اختصت بها من دونهن، رضي الله عنهن.

١ - السيدة خديجة بنت خويلد ﷺ

أبوها: «خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي» وأما «فاطمة بنت زائدة»، وهي: «خديجة بنت خويلد» وكانت تدعى «الطاهرة» وهو لقبها في الجاهلية، امرأة ذات حسب ونسب، وشرف ومال، وحائزة لأحسن الخصال، وكانت تبعث في مالها بعض الرجال ليتَّجروا لها لقاء أجر معلوم، وحين بلغها ما كان يتحلَّى به «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» من كريم السمائل، وحميد الفضائل، إذ كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، قررت أن تستعين به في تجارتها، فأرسلت إليه، وأخبرته بما عزمته عليه، ثم اتفقت معه على الخروج مع غلام لها إلى الشام يدعى «ميسرة» في سلَّعَتِها، ثم يعود من الشام إليها ببضاعة أخرى تريدها، وبعد قفولهما أخبرها غلامها بأمر عجب، فقال لها: لقد مررنا بصومعة أحد الرهبان، وكان ثَمَّ شجرة قريبة من الصومعة، فنزل «محمد» ﷺ يتفياً ظلالها، ولما اطلع الراهب، ورآه تحتها نادى عليَّ، فجئته، فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقلت: رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم كنا إذا سرنا في الهاجرة واشتد الحر علينا، كنت أرى ملكين يُظَلِّلَانِ من الشمس، وهو يسير على بغيره، وكانت «خديجة» تنصت بإمعان إلى حديث «ميسرة»، وبعد أن باعت ما جاءها من الشام، وجدت ربحها مضاعفاً، فَحَزَمَتْ أمرها، وقررت أن تخطبه لنفسها، لِمَا أراد الله بها من كرامتها. ثم أرسلت إلى «محمد» ﷺ، وأنباته برغبتها في الزواج منه، وهي التي رفضت خطبة العديد من

زعماء قريش ووجهائها، بعد زواجها مرتين، وحين أخبر أعمامه بما قالت «خديجة» خرج معه عمه «حمزة بن عبد المطلب»، حتى دخلا على والدها «خويلد بن أسد» فخطبها له، وتم الزواج الميمون، وكان عمرها أربعين سنة، وعمر رسول الله ﷺ خمسة وعشرين عاماً.

وكانت قبل قد تزوجت مرتين: من «عتيق بن عائذ» المخزومي، ثم خلف عليها «أبو هالة؛ مالك بن نباش»^(١).

وجاء في السيرة الحلية: قال ﷺ: «ما تزوجت شيئاً من نسائي ولا زوجت شيئاً من بناتي إلا بوحي جاءني به «جبريل» عليه الصلاة والسلام من ربي ﷺ»^(٢).

كان رسول الله ﷺ قد ولد يتيماً لأن والده «عبد الله بن عبد المطلب» قد توفي وأمه «آمنة بنت وهب» حامل به، وفي السادسة من عمره توفيت أمه «آمنة» فكفله جده «عبد المطلب»، وفي الثامنة حضرت «عبد المطلب» الوفاة، فعهد إلى ولده «أبي طالب» برعايته، ولما مات «عبد المطلب» تحول «محمد» ﷺ إلى بيت عمه «أبي طالب» ولم تأل «فاطمة بنت أسد» امرأة «أبي طالب» جهداً في تكريمه وإيثاره حتى على فلذات أكبادها لِمَا رأت هي وزوجها «أبو طالب» من بركاته.

أنجبت «خديجة» لرسول الله ﷺ ذكرين: هما «القاسم» وبه كان يكنى رسول الله ﷺ، ثم «عبد الله» وقيل: إنه كان يلقب بالطيب والطاهر، وقد مات «القاسم» و«عبد الله» صغيرين قبل البعثة.

كما أهدت «خديجة» لرسول الله ﷺ أربعاً من الإناث هن: «زينب» و«رقية» و«أم كلثوم» و«فاطمة الزهراء»، وقد أدركن البعثة جميعاً، ثم أسلمن مع أمهن، رضي الله عنهن، ثم هاجرن بدونها، لأنها توفيت قبل الهجرة، وأمضت «خديجة» ﷺ مع رسول الله ﷺ خمسة عشر عاماً حيث بلغ الأربعين من عمره، ثم جاءه الوحي برسالة الإسلام.

فقد روى ابن هشام في سيرته، عن ابن إسحاق، فلما بلغ «محمد»

(١) أزواج النبي للصالحى (٥٣ - ٥٤).

(٢) السيرة الحلية (٤١٩/٣).

رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وكان الله تبارك وتعالى، قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدّقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران، الآية: ٨١] أي: ثقل ما حَمَلَكُم من عهدي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران، الآية: ٨١]، فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له، والنصر له ممن خالفه، وأدّوا ذلك إلى من آمن بهم، وصدّقهم من أهل هذين الكتابين.

قال ابن إسحاق: فذكر الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها أنها حدثته، أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحَبَّبَ الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده^(١).

قال ابن إسحاق: وحدثني وهب بن كيسان، قال: قال عبيد: فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر - أي: رمضان - من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به، إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته؛ فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر - شهر - رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى جرّاء، كما كان يخرج لجواره، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه «جبريل» ﷺ بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: فجاءني «جبريل»، وأنا نائم، بنمط - وعاء كالسَّقَط -

من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قال: قلت: ما اقرأ، قال: فغتنني - والغت: حبس النفس - به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: قلت: ما اقرأ، قال: فغتنني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا اقرأ؟ قال: فغتنني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: فقلت: ماذا اقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق، الآيات: ١-٥]، قال: فقرأتها، ثم انتهت، فانصرف عني وهبت من نومي، فكانما كُتِبَتْ في قلبي كتاباً، قال: فخرجت حتى إذا كنتُ في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء، يقول: يا محمد! أنت رسول الله، وأنا «جبريل».

قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا «جبريل» في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد! أنت رسول الله، وأنا «جبريل»، قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتك كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثت «خديجة» رُسُلَهَا في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني.

وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت «خديجة»، فجلست إلى فخذها مضيقاً إليها - ملتصقاً - فقالت: يا أبا القاسم! أين كنت؟ فوالله! لقد بعثت رُسُلِي في طلبك حتى بلغوا مكة، ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا بن عم! وأثبت، فوالذي نفس «خديجة» بيده! إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى «ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي»، وهو ابن عمها، وكان «ورقة» قد تنصّر، وقرأ الكتب، وسمع أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال «ورقة بن نوفل»: قدوس، قدوس، والذي نفس «ورقة» بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة! لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي «موسى»، وإنه

لنبي هذه الأمة، فقولني له فَلْيُثْبِتْ، فرجعت «خديجة» إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول «ورقة بن نوفل»، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقبه «ورقة بن نوفل»، وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا بن أخي! أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له «ورقة»: والذي نفسي بيده! إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء «موسى» وَلْتَكْذِبْنَهُ وَلْتَوْدِبْنَهُ وَلْتُخْرِجْنَهُ وَلْتَقَاتِلْنَهُ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لَأَنْصُرَنَّ الله نصرأ يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فَقَبَّلَ يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله^(١).

وقد رغبت السيدة «خديجة» في أن تستوثق لرسول الله ﷺ أن الذي يأتيه مَلَكٌ لا شيطان، فطلبت من رسول الله ﷺ أن يخبرها بقدمه حين يأتيه.

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزبير: أنه حدث عن «خديجة» ﷺ، أنها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عم! أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه «جبريل» ﷺ كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: «يا خديجة! هذا «جبريل» قد جاءني»، قالت: قم ابن عم! فاجلس على فخذي اليسرى، قال: فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، قالت: فتحوّل فاجلس على فخذي اليمنى، قالت: فتحوّل رسول الله ﷺ فجلس على فخذه اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، قال: فتحسّرت وألقت خِمَارَهَا، ورسول الله ﷺ جالس في حَجْرِهَا، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا بن عم! اثبّت وأبشر، فوالله! إنه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان^(٢).

وأخذت آيات التنزيل العزيز تنزل على رسول الله ﷺ تَثْرَى، وآمنت به «خديجة بنت خويلد» وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ﷺ وصدّق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه، وتكذيب له، فيُخْزِنُه ذلك إِلَّا فَرَجَ الله عنه بها

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٧ - ٢٢٩).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٠).

إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتُهَوِّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى.

وكانت «خديجة» ﷺ ذات مناقب جمة، ومن هذه المناقب ما رواه ابن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أبشر خديجة ببیت من قَصَب لا صَحَب فيه ولا نَصَب»، قال ابن هشام: القَصَب (ههنا): اللؤلؤ المجوف^(١).

وعن أبي زرعة: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل»، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة أتتك ومعها إناء فيه طعام وشراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام ومني^(٢).

وقال ابن هشام: وحدثني من أثق به (أن «جبريل» ﷺ أتى رسول الله ﷺ فقال: أقرىء «خديجة» السلام من ربها، فقال رسول الله ﷺ: «يا خديجة! هذا «جبريل» بقرئك السلام من ربك»، فقالت «خديجة»: الله السلام، ومنه السلام، وعلى «جبريل» السلام).

وأخرج مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة، وإنني لم أدركها.

قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبه يوماً، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنني قد رزقت حبها»^(٣).

ثم فرضت على رسول الله ﷺ الصلاة، فقد روى عروة بن الزبير عن عائشة ﷺ قالت: «افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعاً، وأقرأها في

(١) السيرة (١/٢٣١).

(٢) الإصابة (٤/٢٤٨١).

(٣) صحيح مسلم (٧٥/٢٤٣٥).

السفر على فرضها الأول، ركعتين». ثم جاء جبريل ﷺ، فعلم رسول الله ﷺ كيفيتها، ثم علمها رسول الله ﷺ لخديجة ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه «جبريل»، وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ «جبريل» ﷺ ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى «جبريل» توضأ، ثم قام به «جبريل» صلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف «جبريل» ﷺ.

فجاء رسول الله ﷺ «خديجة»، فتوضأ لها ليربها كيف الطهور للصلاة كما أراه «جبريل»؛ فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به «جبريل»، فصلت بصلاته.

ثم أتى رسول الله ﷺ «جبريل» ﷺ فعين له أوقات الصلاة الخمسة، وصلى برسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح.

فقد روى ابن إسحاق، عن عتبة بن مسلم، عن نافع بن جبير بن مطعم، وكان نافع كثير الرواية عن ابن عباس، قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه «جبريل» ﷺ صلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر، حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه فصلى به الظهر من غدٍ حين كان ظله مثله، ثم به العصر حين كان ظله مثيله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسجراً غير مشرق، ثم قال: يا محمد! الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس^(١).

(١) السيرة (١/ ٢٣٢ - ٢٣٥).

قال السهيلي: وهذا الحديث لم يكن ينبغي أن يذكره في هذا الموضع، لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت في الغد من ليلة الإسراء، وذلك بعدما نبيء بخمسة أعوام، وقد قيل: إن الإسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف، وقيل: بعام، فذكره ابن إسحاق في بدء نزول الوحي، وأول أحوال الصلاة.

قال ابن إسحاق: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى: «علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم» رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين^(١).

وكان أول من أسلم من الموالي «زيد بن حارثة» رضي الله عنه. وأما من الرجال فكان «أبو بكر بن أبي قحافة» أول المسلمين، ثم توالى دخول الناس في الدين الحنيف، وفشا الإسلام وانتشر، فله الحمد والمنة.

وبدأ الإسلام سراً، واستمر على هذه الحال ثلاث سنين من المبعث، ثم أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر، الآية: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [التوبة، الآية: ٢٤]، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر، الآية: ٨٩].

لكن دعوة رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام لم تجد إلا أذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وظلوا في غيهم وضلالهم سادرين، ولما ذكر رسول الله ﷺ ألفتهم وعابها أعظموا ذلك، وأنكروه، وأجمعوا خلافه وناصبوه العداوة والبغضاء، إلا من عصمه الله بالإسلام. ثم مشوا إلى عمه «أبي طالب» يشتكونه، فمنعه منهم، وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ لأمر الله يظهره ولا يرده شيء، ثم أتى وفد من أشراف قريش وأكابرهم إلى «أبي طالب»، وذكر ابن إسحاق أنهم قالوا له: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سب ألفتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آبائنا، فلما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلف بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فكفيكه، فقال لهم «أبو طالب» قولاً رقيقاً، وردهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم شري - اشتد - الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاعفوا - تعادوا -، وأكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذا مروا فيه أي: حَضُّ بعضهم بعضاً -، وحَضُّ بعضهم بعضاً عليه، ثم إنهم مشوا إلى «أبي طالب» مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم

تنهه عنا، وإنا والله! لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتصفية أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظم على «أبي طالب» فراق قومه، وعداوتهم، ولم يَطْبُ نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

وأضاف ابن إسحاق: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا بن أخي! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فَأَبْقِي عَلَيَّ وعلى نفسك، ولا تحمِني من الأمر ما لا أطيع. قال: فَظَنَّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء - يريد: ظهر له رأي -، وأنه خاذله ومُسلِّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عم! والله! لو وضعوا الشمر في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته».

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه «أبو طالب» فقال: أقبل يا بن أخي!

قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا بن أخي! فقل ما أحببت، فوالله! لا أسلمك لشيء أبداً. وتابع ابن إسحاق:

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن «أبا طالب» قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له - فيما بلغني - يا أبا طالب! هذا «عُمارة بن الوليد»، أنهد - أشد وأقوى - فتى في قريش وأجملُه، فخذَه فلك عقله ونصره، واتخذَه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسقَّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال: والله! لبئس ما تسوموني - تكلفوني -، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه؟ هذا والله! ما لا يكون أبداً.

قال: فقال «المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي»: والله! يا

أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال «أبو طالب» للمطعم: والله! ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال، فَحَقِّبَ - اشتدَّ - الأمر، وحميت الحرب، وتنابد القوم، وبَادَى بعضهم بعضاً^(١).

وبدأت - حينئذ - قريش، حملتها الظالمة على أصحاب رسول الله ﷺ، وراحت تعذبهم وتفتن المستضعفين عن دينهم، وامتنع رسول الله ﷺ بعمه «أبي طالب».

ثم روى ابن إسحاق، عن يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحِجْر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سَفَهَ أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفَرَّقَ جماعتنا، وسَبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، فبينما هم في ذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه - طعنوا فيه - ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال: ثم مضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون؟ يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده! لقد جتكم بالذبح».

قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك لَيَرْفُؤُهُ - أي: يهدئه - بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف، يا أبا القاسم! فوالله! ما كنت جهولاً.

قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك، طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه

وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه، قال: فقام «أبو بكر» ﷺ دونه وهو يبكي، ويقول: أقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط.

قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: أن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذَّبه وأذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ﴾ [المَدَّثَر: الآيتان ٢٠، ٢١]^(١). وكان وقوف «خديجة» إلى جانبه، يشد أزره، ويقويه.

ثم آن للمسلمين أن يتنفسوا الصعداء، حين هدى الله تعالى عم رسول الله ﷺ «حمزة بن عبد المطلب» فأعلن إسلامه على ملا من قريش، متحدياً لكبير سفهائها «أبي جهل».

ولكن كيف حدث ذلك؟ وما الذي أفضى إليه؟ قال ابن إسحاق:

حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أن «أبا جهل» مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جُذعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مِزَّة، في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه.

فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبد المطلب» ﷺ أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قَنَصٍ له - صَيْدٍ -، وكان صاحب قَنَصٍ يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يَمُرَّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلَّم وتحَدَّث معهم، وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشد شكيمة - قوي القلب ينتصر من الظلم -، فلما مرَّ بالمولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا

عُمارة! لو رأيت ما لقي ابن أخيك «محمد» ﷺ آنفاً من «أبي الحكم بن هشام»، وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه «محمد» ﷺ.

فاحتمل «حمزة» الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكراً، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه، أقول ما يقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعت، فقامت رجال بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أبا جهل»، فقال «أبو جهل»: دعوا «أبا عُمارة» فإنني والله! قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتم «حمزة» ﷺ على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله.

فلما أسلم «حمزة» عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن «حمزة» سيمعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وزاد غير ابن إسحاق في إسلام «حمزة» أنه قال: لما احتملني الغضب، وقلت: أنا على قوله، أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمر عظيم، لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة، وتضرّعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق، ويذهب عني الريب، فما استتمت دعائي حتى زاح عني الباطل، وامتلا قلبي يقيناً، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي بأن يثبتني الله، وقال «حمزة» حين أسلم أبياتاً، منها:

خَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَىٰ فُؤَادِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالِدِينَ الْحَنِيفِ
لَدِينِ جَاءَ مِنْ رَبِّ عَزِيزٍ خَبِيرٍ بِالْعِبَادِ بِهِمْ لَطِيفٍ
إِذَا تَلَيْتَ رَسَائِلَهُ عَلَيْنَا تَحَدَّرَ مَعَ ذِي اللَّبِّ الْحَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ مِنْ هَدَاهَا بِآيَاتٍ مَبِينَةٍ الْحُرُوفِ^(١)
واقترح مُحَكِّمُ قَرِيشٍ عَلَى قَوْمِهِ أَنْ يَلْقَى «مُحَمَّدًا» ﷺ وَيَكْلِمَهُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: اذْهَبْ إِلَيْهِ وَكَلِّمَهُ.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أن «عتبة بن ربيعة»، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى «محمد» ﷺ فأكلمه، وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم «حمزة»، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد! قم إليه فكلمه.

فقام إليه «عتبة» حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا بن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السطة - الشرف - في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل، يا أبا الوليد! أسمع».

قال: يا بن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً - ما يترأى للإنسان من الجن - تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع - من يتبع الناس من الجن - على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ «عتبة» ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أقد فرغت؟ يا أبا الوليد!»، قال: نعم، قال: «فاستمع مني»، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَحَمْدُ ۝ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَصِلْتَ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَقْرَنَ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلَتْ، الآيات: ١ - ٥]، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد! ما سمعت، فأنت وذاك».

فقام «عتبة» إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم «أبو الوليد» بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك؟ يا أبا الوليد! قال: ورائي أني قد سمعت قولاً، والله! ما سمعت مثله قط، والله! ما هو بالشعر، ولا بالحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعْتَزِلُوهُ، فوالله! ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله! يا أبا الوليد! بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد زَوَّج ابنته «زينب» من «أبي العاص بن الربيع» التاجر الصادق الأمين، وهو ابن خالتها «هالة بنت خويلد».

كما زَوَّج ابنتيه «رقية» و«أم كلثوم» لعتبة وعتيبة ابني «أبي لهب» عم النبي ﷺ، وحين دعا رسول الله ﷺ قومه إلى عبادة الله، كان عمه «أبو لهب» وامراته حمالة الحطب، على رأس من عاداه.

وبدا لزعماء قريش أن أشد الأمور إيذاءً لمحمد ﷺ أن تُرَدَّ بناتُه عليه، ثم جاءوا «أبا العاص بن الربيع» وسألوه أن يفارق امراته «زينب» على أن يزوجه المرأة التي يختارها من قريش، وهالهم أن يرفض طلبهم حين قال لهم: ما أنا بمفارق صاحبتني لأي شيء، ولا أريد أية امرأة سواها.

أما «عتبة» و«عتيبة» فقد وافقا على فراق «رقية» و«أم كلثوم» قبل أن يدخل بهما، واكتفى «عتبة» بطلاق «رقية»، وأما أخوه «عتيبة» فلم يكتف بطلاق «أم كلثوم» بل زاد على فعل أخيه حيث ذهب إلى رسول الله ﷺ، وعدا عليه وأسمعه ما يكره فدعا الله أن يسلط عليه كلباً من كلابه، فخرج مع أبيه في تجارة إلى الشام ولما نزلت القافلة لطلب الراحة ليلاً، جاء الأسد، وراح يتشمم الرجال، حتى إذا وصل إلى «عتيبة» لوى ذنبه، ثم ضرب به رأس «عتيبة» فشدخه، وعادت «رقية» و«أم كلثوم» إلى دار والديهما معززين مكرمتين، كرامة لهما وهواناً لمن فارقاها.

(١) السيرة (١/ ٢٧٦ - ٢٧٨).

ثم جاء «عثمان بن عفان» إلى رسول الله ﷺ، خاطباً «رقية» فزوجه إياها، ولما أسرفت قريش في غيها، وتمادت في بغيتها وتكليفها بأصحاب رسول الله ﷺ أذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه «أبي طالب»، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ، وامراته أم المؤمنين السيدة «خديجة» ﷺ - في وداع المهاجرين لأن بينهم حبة القلب وثمره الفؤاد «رقية» وزوجها «عثمان»، أما حبس العبرات، فقد كان أحد المتحيلات، ولم يكن أحد - إلا الله - يعلم أن هذه آخر مرة تكحل بها «الطاهرة خديجة» عينيها بطلعة ابنتها الحبيبة «رقية»، وكذلك كان حال «رقية» التي لم يدر في خلدها أن وداعها لأُمها الغالية لا لقاء بعده.

وانطلق المهاجرون إلى حيث وجههم رسول الله ﷺ، إلى الحبشة، حيث يحكمها «النجاشي» الملك العادل الذي لا يظلم على أرضه أحد، فراراً من طغيان قريش، وخوفاً من أن تفتنهم عن دينهم.

وكان احتفاء «النجاشي» بضيوفه المهاجرين كبيراً، وإكرامه لهم عظيماً، فكانوا في أحسن جوار، مع خير جار.

بيد أن حدثاً لم يكن في الحسبان، كدّر على المهاجرين حياتهم في الحبشة، حتى أوجسوا في أنفسهم خيفة، وكان الباعث على ذلك التكدير والخوف، أن قريشاً علمت أن المهاجرين قد باتوا في أمان، وأن «النجاشي» أحسن إليهم غاية الإحسان، فسيّت وجوه كفارها، وضاقوا ذرعاً بذلك فأجمعوا أمرهم على إرسال وفد محمل بالهدايا له ولبطارقتة، وكانت «الأدم» - الجلود - أحبّ متاع مكة إليه، وأعجبه، وكلفت الوفد أن يطلب من «النجاشي» تسليمه

المهاجرين ليعود بهم إلى ديارهم، لأنهم فارقوا دين آبائهم، ودخلوا في دين ليس عليه قومهم، كما أن الدين الذي ابتدعوه غير دين الملك الذي لجأوا إليه، واختاروا جيرة، ولم تكن قريش تدري أنّ وفدها سيرتد خاسئاً مدحوراً.

ولما وصل وفد قريش إلى الحبشة، وكان يضم «عمرو بن العاص» و«عبد الله بن أبي ربيعة» وزع الهدايا على البطارقة وطلب منهم مساعدته عند الملك، وإقناعه لتسليم المهاجرين إلى الوفد للعودة بهم إلى ديارهم، ثم دخل الوفد على «النجاشي» وقدموا له الهدايا، وحين عرف سبب مقدمهم أبي «النجاشي» إجابة طلبهم حتى يسأل المهاجرين عما دعاهم إلى اللجوء إلى بلاده.

وحين مثل المهاجرون أمام الملك، تكلم خطيبهم «جعفر بن أبي طالب» ﷺ وقال: إن الجاهلية التي كنا نعيش في ظلماتها والفساد الذي كان يسود حياتنا في جميع مرافقها، والأصنام التي كنا عاكفين عليها وهي من أخشاب منجورة، وأحجار منحوتة ضُفِّ لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، وكنا مقيمين على ذلك حتى بُعث فينا نبي نعرف نسبه وصدقه وأمانته فدعانا إلى مكارم الأخلاق وعبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، وترك الرذائل، فلما اتبعنا ما جاءنا به وآمنا بربنا الذي خلقنا، ثار علينا قومنا وظلمونا وقهرونا وضيقوا علينا وعذبونا، فلم نجد سبيلاً إلا اللجوء إلى ديارك، والعيش في جوارك.

ولما سمع «النجاشي» ذلك أمر برد الهدايا إلى الوفد القرشي، وطرده شر طردة، ثم قال للمهاجرين: أنتم آمنون، ومن سبكم غرم، وما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ورجع الوفد القرشي إلى مكة خاسئاً مدحوراً، وقد حاق به مكره السيئ، بعد أن راموا إفساد العيش الهانئ للمهاجرين، فخاب سعيهم وعادوا خائبين.

ولم تكد قريش تصحو من صدمتها بإسلام «حمزة بن عبد المطلب» حتى مُنيت بصدمة أشد وأنكى، وذلك حين أسلم «عمر بن الخطاب» ﷺ.

قال عبد الله بن مسعود: «إن إسلام «عمر» كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم «عمر»، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه».

وبإسلام «عمر» خرج الإسلام من مكمنه، وانتقل من السر إلى العلانية، وأخذ الناس يسارعون إلى الدخول فيه، وقويت شوكته، وعلت رايته.

ولندع «عمر بن الخطاب» ﷺ يروي لنا حديث إسلامه كما رواه ابن سنجر، قال: حدثنا أبو المغيرة، قال: حدثنا صفوان بن عمرو، قال: حدثني شريح بن عبيد، قال: قال «عمر بن الخطاب»: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقممت خلفه، فاستفتح سورة «الحاقة» فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، قال: قلت: هذا والله! شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٤١، ٤٢]، قال: قلت: كاهن علم ما في نفسي، فقال: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة، الآية: ٤٣]، إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع، ويذكرون أن «عمر» قال حين أسلم:

الحمد لله ذي المن الذي وجبت	له علينا أباد ما لها غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا	صدق الحديث نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى	ربي عثية قالوا: قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل	بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة	والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها	فكاد تسبقني من عبدة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا	وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبي صدق أتى بالحق من ثقة	وافي الأمانة ما في عوده خور ^(١)

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث، عن بعض «آل عمر»، أو بعض أهله، قال: قال «عمر»: لما أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتبه فأخبره أنني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل - وكان عمر لحنمة بنت هشام بن المغيرة - قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إلي «أبو جهل»، فقال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله «محمد» ﷺ،

وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قَبَّحَكَ اللهُ، وَقَبَّحَ ما جئتُ به^(١).

وكانت قريش في كل يوم تبتدع لوناً جديداً، فيه إساءة للإسلام، وَعَنَتْ أَشَدَّ لِأَتْبَاعِ الدِّينِ الْحَنِيفِ، وكان آخر ما هداها إليه شِرَارُهَا كتابة صحيفة ظالمة أعقبها حصار غاشم دام ثلاث سنوات، فما الذي جاء في تلك الصحيفة؟

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أماناً وقراراً، وأن «النجاشي» قد منع من لجأ إليه منهم، وأن «عمر» قد أسلم، فكان هو و«حمزة بن عبد المطلب» مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب على ألا يُنْكِحُوا إليهم، ولا يُنْكِحُوهُمْ، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يتباعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة «منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي».

قال ابن هشام: ويقال: «النضر بن الحارث» فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّ بعض أصابعه.

قال ابن إسحاق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى «أبي طالب بن عبد المطلب»، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم «أبو لهب بن عبد العزى بن عبد المطلب» إلى قريش فظاھرهم.

ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكأنت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش، ولم يُبَلِّ فيها أحد أحسن من بلاء «هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن نصر بن جديمة بن مالك بن حنبل بن عامر بن لؤي»، وذلك أنه كان ابن أخي فضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان «هشام» لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فكان فيما بلغني يأتي

بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً قد أوقره طعاماً، حتى إذا أقبل به فَمَ الشعب، خلع خِطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بُزاً، فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى «زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم»، وكانت أمه «عاتكة بنت عبد المطلب» فقال: يا زهير! أقدر رضىت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يُبَاعُونَ ولا يُبْتَنَعُ منهم، ولا يَنْكِحُونَ ولا يُنْكَحُ إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال «أبي الحكم بن هشام» ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك، يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله! لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى أنقضها؛ قال: قد وجدت رجلاً، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى «المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف» فقال له: يا مطعم! أقدر رضىت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟ أما والله! لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً.

قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: «زهير بن أبي أمية»، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البخترى بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: «زهير بن أبي أمية»، و«المطعم بن عدي» وأنا معك، قال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمنة بن الأسود بن المطلب بن أسد» فكلمه، وذكر له قرابتهم وحققهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سَمَى له القوم. فاتعدوا حَظَمَ - مُقَدَّم - الحَجُون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.

وقال «زهير»: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا «زهير بن أبي أمية» عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على

الناس، فقال: يا أهل مكة! أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكت لا يُباعون ولا يُباع منهم، والله! لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال «أبو جهل»، وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله! لا تُشَقَّ، قال «زمعة بن الأسود»: أنت والله! أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت، قال «أبو البَحْرَي»: صدق «زمعة»، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقرُّ به.

قال «المطعم بن عدي»: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

قال «هشام بن عمرو» نحواً من ذلك، قال «أبو جهل»: هذا أمر قضي ليليل تُشَوَّرَ فيه بغير هذا المكان، قال: و«أبو طالب» جالس في ناحية المسجد، فقام «المطعم» إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم!»، وكان كاتب الصحيفة «منصور بن عكرمة»، فشَلَّت يده، فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «يا عم! إن ربي الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو الله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أرْبُك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله! ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلتم صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتھوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا؛ فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شراً، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا^(١).

وانتهى الحصار الظالم، وخرج الناس منه مهودين منهكين بسبب الجوع والقهر اللذين عانيا منهما خلاله. وكان «أبو طالب» عم رسول الله ﷺ أول من سقط بين برائن المرضى: وقد تقدمت به السُّنُّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يسمع منه كلمة التوحيد، لكن أبي «أبو طالب» أن يُقرَّ بها عين ابن أخيه.

وقال العلامة «الآلوسي» في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾ [التوبة، الآية: ١١٣] أن الآية على الصحيح نزلت في «أبي طالب»، فقد أخرج أحمد، وابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل» وآخرون، عن المسيب بن حزن، قال: لما حضرت «أبا طالب» الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده «أبو جهل»، و«عبد الله بن أبي أمية» فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله»، فقال «أبو جهل» و«عبد الله بن أمية»: يا أبا طالب! أترغب عن ملة «عبد المطلب»? فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، و«أبا جهل» و«عبد الله» يعاودانه بتلك المقالة، فقال «أبو طالب» آخر ما كلمهم: هو على ملة «عبد المطلب» وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية^(١).

ومن يأبى أن يقول: لا إله إلا الله إلا من كان من الكافرين؟

ثم قال «الآلوسي» رحمه الله تعالى: وأخرج أبو سهل السري بن سهل، من طريق عبد القدوس عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص، الآية: ٥٦] إلخ، نزلت في «أبي طالب»، ألح عليه النبي ﷺ أن يسلم فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقد روى نزولها فيه عنه أيضاً ابن مردويه^(٢).

وصحيح أن «أبا طالب» حذب على رسول الله ﷺ، وكفله بعد وفاة جده «عبد المطلب» ومنعه من إيذاء قريش بعد مبعثه، مما لا سبيل إلى إنكاره، إلا أن الإقرار بوحداية الله بالقلب واللسان أسمى من ذلك كله، وكلمة التوحيد أرجح في الميزان من كل ما عداها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء، الآية: ٤٨]، وروى الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق، سمعت ناجية بن كعب يقول:

(١) روح المعاني (١١/٣٢، ٣٣).

(٢) روح المعاني (٢٠/٩٦، ٩٧).

سمعت علياً يقول: لما توفي أبي أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن عمك قد توفي، فقال: «أذهب فَوَارِه» فقلت: إنه مات مشركاً، فقال: «أذهب فَوَارِه، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتني» ففعلت فأتيته، فأمرني أن أغتسل.

وعن أبي إسحاق، عن ناجية، عن علي: لما مات «أبو طالب» قلت: يا رسول الله! إن عمك الشيخ الضالُّ قد مات فمن يواريه؟ قال: «أذهب فَوَارِ أَبَاكَ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» فأتيته فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً «أبو طالب» متمل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه».

وفي مغازي يونس بن بكير: «يغلي منهما دماغه حتى يسيل على قدميه»، ذكره السهيلي.

وعن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «هو في ضحضاح - مكان قريب من القعر - من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل» رواه مسلم في صحيحه من طرق^(١).

ولم يكد رسول الله ﷺ يخرج من حزنه على رحيل «أبي طالب» النصير، حتى فجع بفقد أصدق وزير، إنها الزوج والأم والحيبة التي ألقت بنفسها ومالها بين يديه، وعوّضته عن عطف وحنان أبويه، ووقفت حياتها على حمل السعادة إليه، وشدت أزره، وشحذت عزيمته منذ اللحظة الأولى التي حُمِّلَ فيها أعباء الرسالة، وقالت له: أبشر، فوالله! لا يخزيك الله أبداً، ووالله! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل - أي: الضعيف -، وتُقرّي الضيف، وتعين على نوائب الدهر، فأى امرأة عظيمة كانت؟

لقد ذهبت «خديجة» مشيعة بأسخن العبرات، وأطيب الدعوات، من فخر الكائنات، ﷺ، وأطهر البنات، رضي الله عنهن، إلا أن «رقية» التي كانت

مهاجرة مع زوجها في الحبشة لم تستطع وداعها، وترك ذلك في قلب الأم والبنت جرحاً لا يندمل.

رحلت «خديجة» الطاهرة، ولكن ذكرياتها لم تَبْرَحْ خَلَدَ الوفي الأكرم، والحيب الأعظم ﷺ، وكفى دليلاً على شدة حبه لها - وهي الجديرة بهذا الحب - أنه لم يتزوج في حياتها سواها، وقد تجلّى وفاؤه لها بإكرام صديقاتها والإحسان إلى صواحبها بعد غيابها.

والحق أن فقد «أبي طالب» النصير، ورحيل «خديجة» أصدق وزير، بعده بزمان يسير، ثقل على كاهل البشير النذير، ولكن صَبْرَهُ الله تعالى فكان خير ظهير، وسمي ذلك العام عام الحزن، لقد رحلت «خديجة» ﷺ قبل حبيبها، لتكون في استقباله في بيت القصب الذي وعدها الله به، وجاء به «جبريل» ﷺ مبشراً، فما أحيلى ساعة يلتقي الصادق الأمين، بخديجة الحبيبة أم المؤمنين، في المكان الذي آثرهما به رب العالمين! وعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عن علي أنه سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران»^(١).

واختلف العلماء، في أفضل النساء، هل هي «فاطمة الزهراء» أم أمها «خديجة» أم «عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنهن؟

فقال قوم: إن «خديجة» أفضل من «عائشة» لأن «جبريل» ﷺ أقرأها السلام من ربها ومنه، أما «عائشة» فقد أقرأها «جبريل» السلام منه.

وقال آخرون: إن «عائشة» أفضل النساء قاطبة لأنها أكثرهن علماً، ولقوله ﷺ: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» ولقوله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، وبأن «عائشة» يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله ﷺ و«فاطمة» يومئذ مع زوجها «علي» كرم الله وجهه، وهذا الاستدلال ليس بنص على أفضلية «الحميراء» على «الزَّهراء» ﷺ.

وأما من قال بأفضلية «فاطمة» فلقوله ﷺ: «فإنما ابنتي بَضْعَةٌ مني، يربيني

ما رابها ويؤذيني ما آذاها»، وقد ذكر «الآلوسي» في «روح المعاني» بعد بيان حجج كل فريق، فقال: وبعد هذا كله الذي يدور في خَلْدي، أن أفضل النساء «فاطمة»، ثم أمها، ثم «عائشة» بل لو قال قائل: إن سائر بنات النبي ﷺ أفضل من «عائشة» لا أرى عليه بأساً؛ وعندني بين «مريم» و«فاطمة» توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه.

وقد سئل الإمام «السبكي» عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به أن «فاطمة بنت محمد» ﷺ أفضل، ثم أمها، ثم «عائشة» ووافقه في ذلك «البلقيني»، وقد صحح «ابن العماد» أن «خديجة» أيضاً أفضل من «عائشة» لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت: قد رزقك الله تعالى خيراً منها، فقال لها: «لا والله! ما رزقني الله تعالى خيراً منها، آمنت بي حين كذبنني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس»^(١)، وفي رواية: «ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء».

وبعد، فالله أعلم بخلقها، وأدرى بمن هو مفضل عنده، والأفضل من فضله الله تعالى، ولعل بضعة مصطفىاه، أثر عند الله! ولو طلب إليّ أن أنعت «أم المؤمنين» بكلمة واحدة لقلت: إنها «خديجة الخير»، فهي خير النساء، وخير الأزواج، وخير الأمهات، وخير أسوة للمؤمنين والمؤمنات، تغمدها الله بسحاب رحمته، وتوّلها أشهى ما في جنته.

(١) انظر روح المعاني (٣/ ١٥٥ - ١٥٦).

٢ - السيدة سودة بنت زمعة ؓ

أبوها «زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نُفَيْر بن مالك بن حِمْل بن عامر بن لؤي بن غالب»، وأمها «الشموس بنت قيس» الأنصارية، من بني عدي بن النجار، وكانت تحت «المكران بن عمرو» أخي «سهيل بن عمرو» صاحب قريش ورسولها في صلح الحديبية، وبعد وفاة زوجها، خلف عليها رسول الله ﷺ، وكانت أول أزواجه بعد «خديجة» ؓ.

وقد أخرج الحافظ ابن كثير في السيرة، عن عائشة ؓ، قالت: إن «خولة بنت حكيم» امرأة «عثمان بن مظعون» ؓ - أشارت على رسول الله ﷺ بزواجها، فقال رسول الله ﷺ: «فاذكريها علي»، فذهبت إلى «سودة» وأبيها، فقالت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ فقالت: وما ذاك؟ قالت: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك لأخطبك عليه، قالت: وددت ذلك، ولكن ادخلي على أبي، واذكري له ذلك، وكان شيخاً كبيراً قد أدركته السنُّ ممن جلس عن الموسم.

فدخلت عليه فحيت به بتحية أهل الجاهلية، فقالت: أنعم صباحك، فقال: ومن أنت؟ فقالت: «خولة»، فرحّب بها، وقال ما شاء الله له أن يقول، ثم قالت: إن «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» يذكر ابنتك، قال: هو كفء كريم، فما تقول صاحبك؟ قالت: تحب ذلك، قال: قل لي له فليات. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فملكها، فقدم «عبد الله بن زمعة» فوجد أخته قد تزوجها رسول الله ﷺ فحشا التراب على رأسه، فلما أسلم، قال: إني لسفيه يوم أحتو التراب على رأسي أن تزوج رسول الله ﷺ أختي^(١).

وذكر «ابن حَبَر العقلائي» في «الإصابة»: أن «خولة بنت حكيم» قالت: أفلا أخطب عليك؟ قال: «بلى»، قال: «فإنكن معشر النساء أرفق بذلك»،

(١) انظر السمط الثمين (١٦١، ١٦٢).

فخطبت عليه «سودة بنت زمعة» و«عائشة»، فتزوجها، فبنى بسودة بمكة، و«عائشة» يومئذ بنت ست سنين حتى بنى بها بعد ذلك حين قدم المدينة^(١).

وقد أخرج «محمد بن سعد» في «الطبقات الكبرى» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت «سودة بنت زمعة» تحت «السكران بن عمرو» أخي «سهيل بن عمرو»، فرأت في المنام كأن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطىء عنقها فأخبرت زوجها بذلك، فقال لها: ويحك، يا سودة! لئن صدقت رؤياك لأموئن وليتزوجنك رسول الله ﷺ، ثم رأت في المنام في ليلة أخرى أن قمراً انقضض عليها، وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: إن صدقت رؤياك لم ألث إلا يسيراً حتى أموت، وتتزوجين من بعدي «محمدأ» ﷺ، واشتكى «السكران» من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وتزوجها رسول الله ﷺ^(٢).

وكان الكرم إحدى شيم «سودة»، ومنقبةً من مناقبها الكثيرة، وقد أخرج «محمد بن سعد» في طبقاته عن محمد بن سيرين، قال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى «سودة بنت زمعة» بغرارة من دراهم، فقالت: ما هذا؟ قالوا: دراهم، قالت: في الغرارة مثل التمر، يا جارية! بلغيني القنع، قال: ففرقتها جميعاً^(٣).

وكانت «سودة» رضي الله عنها شديدة الاهتمام بإدخال السرور على قلب رسول الله ﷺ وإضحاكه بالشيء أحياناً، وقد روى «محمد بن سعد» في طبقاته، عن «سودة» رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! صليت خلفك البارحة، فركعت بي حتى أمسكتُ بأنفي مخافة أن يقطر الدم، قال: فضحك رسول الله ﷺ، وكانت تضحكه أحياناً بالشيء^(٤).

وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس عشرة لأزواجه، وخيرهم معاملة لهن، وكان يمازحهن في بعض الأوقات ويداريهن، وقد أخرج النسائي، عن عائشة رضي الله عنها قالت: زارتنا «سودة» يوماً، فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها، إحدى رجله في حجري، والأخرى في حجرها فعملتُ له حريرة - أو خزيرة - فقلت:

(١) الإصابة (٢٥٤٦/٤).

(٢) الطبقات الكبرى (٤٥/٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٥٦/٨) والإصابة (٢٥٤٧/٤).

(٤) الطبقات الكبرى (٥٤/٨) والإصابة (٢٥٤٧/٤).

كُلِّي، فأبت، فقلت: لتأكلين أو لأطخن وجهك، فأبت، فأخذت من القصعة شيئاً، فلطخت وجهها، فضحك رسول الله ﷺ، فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستعيد مني، وقال لها: «لَطُخِي وجهها» فأخذت من القصعة شيئاً فلطخت به وجهي، فنظرت إلى رسول الله ﷺ هل يعجبه؟ فإذا هو يضحك^(١).

ولئن دَلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على إقرار رسول الله ﷺ للمزاح البريء الذي لا يلحق ضرراً ولا يعقب ضغينة، ولئن كان رسول الله ﷺ أسوة في حسن معاملته لأزواجه، فإنهن بالتالي كن قدوة للنساء ومثلاً يحتذى للضرائر. وهذا من فضل الله عليهن، ولطفه بهن، حتى لا يصدر عنهن ما يعكر صفو حياة حبيبهن ﷺ.

لقد بعث رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، رؤوفاً بهم، مشفقاً عليهم، ولم يكن متعنتاً، يُسِّر ولا يُعَسِّر، ويعين الناس على القيام بأوامر الله تعالى بما يرضي الله، وقد استأذنت «سودة» رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة أن تدفع ليل قبل أن يشتد الزحام فأذن لها.

وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلنا المزدلفة، فاستأذنت النبي ﷺ سودة، أن تدفع قبل حَطْمَةِ الناس - أي: قبل زحمتهم - وكانت امرأة بطيئة - أي: ثقيلة بادنة - فأذن لها، فدفعت قبل حَطْمَةِ الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت «سودة» أحبُّ إليَّ من مفروح به^(٢).

وفي رواية الإمام مسلم، عن القاسم، عن عائشة؛ أنها قالت: استأذنت «سودة» رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة، تدفع قبله، وقبل حَطْمَةِ الناس، وكانت امرأة ثَبِطَةً، (يقول القاسم: والثَّبِطَةُ: الثقيلة) قال: فأذن لها، فخرجت قبل دفعه، وَحَبَسْنَا حتى أصبحنا فدفعنا بدفعه. ولأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته «سودة»، فأكون أدفع بإذنه، أحبُّ إليَّ من مفروح به^(٣).

(١) سبل الهدى والرشاد (١٨١/٧).

(٢) صحيح البخاري (١٥٩٧) ط. د. البغا.

(٣) صحيح مسلم (١٢٩٠/٢٩٣).

وكانت «سودة» رضي الله عنها شديدة الاتباع لأوامر رسول الله ﷺ، حريصة على التقيد بها، غاب أم حضر، وقد روى الإمام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: «هذه، ثم ظهور الحُصْرِ».

قال: فكن كلهن يحججن إلا «زينب بنت جحش» و«سودة بنت زمعة»، وكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من النبي ﷺ ^(١).

وعن «سودة» رضي الله عنها - قالت: حججت واعتمرت، فأنا أقر في بيتي كما أمرني الله ﷻ ^(٢).

ولم تكن البيوت على عهد رسول الله ﷺ مجهزة بالكُفِّ، فكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة، خرجوا من بيوتهم وأبعدوا من أجل ذلك.

وقد أخرج البخاري في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت «سودة» بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جيمة، لا تخفى على من يعرفها، فرأها «عمر بن الخطاب» فقال: يا سودة! أما والله! ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين.

قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عَرَق، فدخلت، فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي «عمر» كذا وكذا.

قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفِعَ عنه، وإن العَرَق في يده ما وضعه، فقال: «إنه قد أُذِنَ لكن أن تخرجن لحاجتك» ^(٣). والعَرَق: عظم عليه رقائق من اللحم.

وقد ذكر الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء أن «سودة» رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ خمسة أحاديث منها في الصحيحين حديث واحد عند البخاري ^(٤).

وهم رسول الله ﷺ بطلاق «سودة» رضي الله عنها لأنها كبرت، فسألت أن يمكها

(١) مسند الإمام أحمد رقم (٢٥٥٢٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٥٥/٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٥١٧) ط. د. البغا.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٢٦٩).

لأنها تبتغي أن تحشر في أزواجه، رضي الله عنها، فأمسكها. فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُكْرًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء، الآية: ١٢٨].

قال أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب»: وأسنت - يعني سودة - عند رسول الله ﷺ، فهم بطلاقها، فقالت: لا تطلقني وأنت في حل من شأني، وإنما أود أن أحشر في زمرة أزواجك، وإني قد وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها مع سائر من توفي عنهن من أزواجه رضي الله عنهن. وفي «سودة» نزلت: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُكْرًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ^(١) [النساء، الآية: ١٢٨].

وروى «المحب الطبري» في «السمط الثمين»: عن عائشة رضي الله عنها - قالت: لما كبرت «سودة» جعلت يومها رضي الله عنها من رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله! جعلت يومي منك لعائشة.

فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة رضي الله عنها يومين، يومها ويوم «سودة».

وفي رواية: وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعدي. أخرجاه.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ يقسم لكل امرأة يومها وليلتها، غير أن «سودة بنت زمعة» وهبت يومها وليلتها لعائشة رضي الله عنها تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ. أخرجه مسلم.

والمراد بالتزويج في هذه الرواية الدخول، كما تقدم آنفاً.

وعنها رضي الله عنها قالت: ما رأيت امرأة أحب إليّ أن أكون في مسلاخها جلدها - من «سودة بنت زمعة» من امرأة منها جدّة، فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله! جعلت يومي منك لعائشة. أخرجاه ^(٢).

(١) الاستيعاب (٤/١٨٦٧).

(٢) السمط الثمين (١٦٣، ١٦٤).

وتابع المحب الطبري قوله: قال «أبو عمر»: نزلت الآية في «سودة»، والمشهور أنها - مُطْلَقَةً - لم تخص أحداً.

عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ [النساء، الآية: ١٢٨] الآية، قالت: هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري، وأنت في حل من النفقة عليّ والقسم لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء، الآية: ١٢٨]، هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه، كبراً أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني واقسم لي ما شئت، قالت: فلا بأس إذا تراضيا. أخرجاهما ^(١).

وروى «أبو عمر» عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما من الناس أحد أحب إليّ من أن أكون في مسلاخه - جلده - من «سودة بنت زمعة»، إلا أن بها جدّة ^(٢).

وقال «ابن حجر العسقلاني» في «الإصابة»: وصّح عن عائشة، قالت: ما من الناس أحد أحب إليّ أن أكون في مسلاخه - جلده - من «سودة» إن بها إلا جدّة فيها كانت تسرع منها الفتيّة ^(٣).

وأخرج «ابن سعد» في «الطبقات الكبرى»، من حديث عائشة - من طرق في بعضها: أنه بعث إليها - يعني سودة - بطلاقها، وفي بعضها أنه قال لها: «اعْتَدِي»، والطريقان مرسلان، وفيهما: أنها قعدت له على طريقه، فناشدته أن يراجعها، وجعلت يومها وليلتها لعائشة، ففعل.

ومن طريق معمر، قال: بلغني أنها كلمته، فقالت: ما بي على الأزواج من حرص، ولكنني أحب أن يعثني الله يوم القيامة زوجاً لك ^(٤).

(١) السط الثمين (١٦٤، ١٦٥).

(٢) الاستيعاب (٤/١٨٦٧).

(٣) الإصابة (٤/٢٥٤٧).

(٤) الإصابة (٤/٢٥٤٧).

وأخرج الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، بسند حسن: أن «سودة» خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل. فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء، الآية: ١٢٨] ^(١).

وفي «جلاء الأفهام» علق «ابن القيم» رحمته الله على هبتها يومها لعائشة بقوله: «هذا من خواصها»، أنها آثرت بيومها حب النبي ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ وحُباً له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يُقسِم لنسائه ولا يُقسِم لها، وهي راضية بذلك، مؤثرة لرضا رسول الله ﷺ ^(٢).

وخرجت «سودة» رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فأطعمها رسول الله ﷺ يومئذ ثمانين وسقاً تمرأً، وعشرين وسقاً شعيراً. وروى عنها ابن عباس، وحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة.

وفي آخر خلافة «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، حضرت «سودة» الوفاة في المدينة، وهذا هو المشهور، وقيل: ماتت سنة أربع وخمسين، ورجحه الواقدي، كما ذكر ابن حجر في «الإصابة»، وكان عمرها ثمانين سنة، رحمها الله تعالى.

(١) الترمذي (٣٠٤٠).

(٢) جلاء الأفهام (١٨٢).

٣ - المبرأة المطهرة عائشة بنت أبي بكر الصدّيق عليه السلام

السلام على المبرأة المطهرة، ذات السيرة المعطرة، أسوة العفيفات، وقدوة الشريفات، الصديقة بنت الصديق، الذي كان للمصطفى أكرم رفيق، فدخل قبله إلى الغار، ليستبرئه من كل ما هو ضار، والذي فداه بنفسه وماله وولده، ووثق صلته به فزوجه فلذة كبده، يا أعظم أمهات المؤمنين! وحليلة حبيب رب العالمين!

هل تأذنين لي بالدخول إلى محراب قُدسِكَ، كي أكشف للناس غيضاً من فيض فضائل نفسك، فإنني أعجز من أن أحصيها، حتى أتحدث عنها وأبديها، ولقد سمعت أن بعضهم بلغت لديهم الأربعين، بيد أنني أقول لهم: كنتم واهمين، فهم لم يعرفوك عن كُتُب، فأخطأ من أحصى وحسب، ولا غَرْوَ في ذلك ولا عَجَب، لأنهم لو كانوا منك قريبين لعلّموا أنهم كانوا مخطئين، فيما قالوا بالظن لا باليقين.

أما الصدق، فلم يخرج غَيْرُهُ من فيك، وهل في الناس من له مثل أبيك؟ وكيف وأمك «أم رومان»، المشبهة بحور الجنان؟ لقد غرسا في نفسك أعظم الفضائل، وزرعا فيك أكرم الشمائل، حتى إذا انتقلتِ إلى بيت سيد البشر، نهلت من نبعه الصافي خير الجواهر والدرر، حتى غدوت ملاذاً للعلماء، ومرجعاً للفقهاء، كلهم يشيد بعلمك، ويقر بفضلك، ويعترف بعلوّ كَعْبِكَ.

وما أحقر من اتهمك في عفتك^١ وأراد النيل من كرامتك وسمعتك! لقد غفل عن أنه اختارك رب الأرض والسماء، لتكوني في الدنيا والآخرة حليلة لأشرف الأنبياء، ولكن كفاك أيتها الأم الرؤوم، ما قاله الحي القيوم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحَجّ، الآية: ٣٨] فما أعظمه من فضلٍ شملك به ربُّك،

لتقر عينك ويطمئن قلبك! فارقدي قريرة البال، محفوفة بعناية ذي الجلال، وكفى بالله نصيراً يوم يعز النصير، وظهيراً آن ينقطع الظهير.

إن من أهم مناقبك نشرك دين الله، وبثّ حديث مصطفاه، فجزاك الله أوفى الجزاء، وأعلى مقامك في جنته الغراء، يا أوفى الأزواج والنساء!

والآن! أستاذنك في سرد هذه السطور، عن بعض ملامح سيرتك التي ما زال يضوع شذاها، عسى أن يأتي الرجال والنساء بها وينشئوا أبناءهم على هداها، ويعطروا ديارهم بذكرها.

تلكم هي أم عبد الله؛ عائشة بنت أبي بكر الصديق، والدها «عبد الله بن أبي قحافة - واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي» وأما «أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سُبَيْع بن دُهمان بن الحارث بن عَنَم بن مالك بن كنانة»، وفي اسمها الحقيقي خلاف، ففي سيرة ابن هشام: «زينب بنت عبد دهمان» وأورد لها صاحب الإصابة اسمين هما: (زينب ودعد)، والله أعلم.

لما خلا البيت النبوي من عَبَق الطاهرة «خديجة» الفَوَّاح، ظَلَّت ذكرياتها الفياضة بالدفء والحنان قابعة في مخيلة أشرف الأنبياء، وأخلص الخلصاء، وأوفى الأوفياء، إنها أم العيال وربة البيت، وقد وَجَد - حَزَن - ﷺ حتى خُشِيَ عليه، ولم يكن ثَمَّة بُدُّ له من أحد يخرج منه عزله، ويخفف من وطأة وحشته، فقد روى «الطبراني» - برجال ثقات - عن عائشة ﷺ والإمام «أحمد» في المناقب، و«البيهقي» - بإسناد حسن - عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب - رحمهما الله تعالى - وبعضه صُرِّح فيه بالاتصال عن عائشة ﷺ، وأكثره مرسل؛ قالوا: لما هلك «خديجة» جاءت «خولة بنت حكيم» امرأة «عثمان بن مظعون» قالت: يا رسول الله! ألا تزوج؟ قال: «من؟» قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً، قال: «فمن البكر؟» قالت: ابنة أحب خلق الله ﷺ إليك، «عائشة بنت أبي بكر»، قال: «ومن الثيب؟» قالت: سودة ابنة زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: «فأذهبي، فاذهبي علي»، فدخلت بيت «أبي بكر» فقالت: يا أم رومان! ماذا أدخل الله ﷺ عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة»، قالت: انتظري «أبا بكر»

حتى يأتي، فجاء «أبو بكر»، فقالت: يا أبا بكر! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه «عائشة». قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، قال: «ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابتكك تصلح لي».

قالت أم رومان: إن «مطعم بن عدي» قد كان ذكرها على ابنه، فوالله! ما وعد موعداً قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل «أبو بكر» على «مطعم بن عدي» وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يابن أبي قحافة! لعلك مُضِبٌّ صَاحِبِنَا، مدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك؟.

قال «أبو بكر» للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟، قال: إنها تقول ذلك، فخرج من عنده وقد أذهب الله ﷻ ما كان في نفسه من عِدَّتِهِ التي وعده. فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوجه إياها، و«عائشة» يومئذ بنت ست سنين.

ثم قالت «عائشة»: فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السُّنْح.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فدخل بيتنا، واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمي وإني لفي أرجوحة بين عِدْقَتَيْنِ غصنين - ترجح بي، فأنزلتني من الأرجوحة، ولي جميمة ففرقتها، وَمَسَحَتْ وجهي بشيء من ماء، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت بي عند الباب، وإني لَأُنْهَجُ أي: يتتابع نَفْسِي - حتى سَكَنَ مِنْ نفسي، ثم دخلت بي، فإذا رسول الله ﷺ على سرير في بيتنا، وعنده رجال ونساء من الأنصار، فأجلستني في حَجْرِهِ، ثم قالت: هؤلاء أهلك، فبارك الله لك فيهم، وبارك لهم فيك.

فوثب الرجال والنساء فخرجوا، وبني بي رسول الله ﷺ في بيتنا، ما نُجِرَتْ عليَّ جَزُورٌ، ولا دُبِحَتْ عليَّ شاة، حتى أرسل إلينا «سعد بن عباد» بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله ﷺ إذا دار إلى نسائه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين^(١).

(١) المعجم الكبير (٢٣/٢٣، ٢٤) رقم ٥٧، ومسنند أحمد (٢٤٥٨٧).

وجاء في صحيح البخاري، عن عائشة ﷺ قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوَعِكَتُ، فتمزق شَعْرِي فَوَقَى جُمَيْمَةً، فَأَتَنِي أُمِّي «أم رومان»، وإني لفي أرجوحة، ومعِي صواحب لي، فصَرَخْتُ بي فَأَتَيْتُهَا، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفَتني على باب الدار، وإني لَأَنْهَجُ - يتتابع نَفْسِي - حتى سَكَنَ بعض نَفْسِي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يَرُغْنِي - أي: لم يفاجئني - إلا رسولُ الله ﷺ ضَحَى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد أَرَى «عائشة» ﷺ في المنام مرتين قبل أن يخطبها، وقد روى البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﷺ: أن النبي ﷺ قال لها: «أَرَيْتُكَ في المنام مرتين، أرى أنك في سَرَقَةٍ من حرير، ويقال: هذه امرأتك، فاكشِف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إنْ يَكُ هذا من عند الله يُعْضِيهِ»^(٢).

وقال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: كان نكاحه ﷺ «عائشة» في شوال، وابتناؤه بها في شوال، وكانت تحب أن تُدْخَلَ النساء من أهلها وأحبها في شوال على أزواجهن، وتقول: هل كان في نسائه عنده أحظى مني؟، وقد نكحني وابتنى بي في شوال، وتوفي عنها ﷺ وهي بنت ثمانٍ عشرة سنة، وكان مُكُتْمًا معه ﷺ تسع سنين، وعنها، قالت: تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت سبع سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين، وقبض عني وأنا ابنة ثمانٍ عشرة سنة^(٣).

وروى الشعبي فقال: كان «مسروق» إذا حدث عن عائشة ﷺ، قال: حدثتني الصاذقة ابنة الصديق، حبيبة حبيب الله^(٤).

(١) صحيح البخاري (٣٦٨١).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٨٢).

(٣) الاستيعاب (١٨٨٢/٤).

(٤) الإصابة (٢٥٧٤/٤) وحلية الأولياء (٤٨/٢).

وروى الترمذي وصححه - عن عمرو بن غالب: «أن رجلاً نال من عائشة ؓ عند «عمار بن ياسر» ؓ فقال: اغرب مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟»^(١).

ومن طريق أبي إسحاق، عن سفيان بن سعد، قال: زاد «عمر»، «عائشة» على أزواج النبي ﷺ ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ^(٢).

وقال «أبو عمر بن عبد البر» أيضاً: لم ينكح ﷺ بكرةً غيرها، واستأذنت رسول الله ﷺ في الكنية، فقال لها: اكنني بابنك «عبد الله بن الزبير» يعني ابن أختها، وكان «مسروق» إذا حدث عن عائشة يقول: حدثني الصادقة ابنة الصديق البريئة المبرأة بكذا وكذا، ذكره الشعبي، عن مسروق، وقال أبو الضحى، عن مسروق: رأيت مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر، يسألونها عن الفرائض.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت «عائشة» أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة.

وذكر الزبير، قال: حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الخزامي، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، قال: ما رأيت أحداً أروى من شعر من «عروة»، ف قيل له: ما أرواك؟ يا أبا عبد الله! قال: وما روايتي من رواية «عائشة»! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً.

قال الزهري: لو جمع علم «عائشة» إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم «عائشة» أفضل.

ومن حديث «أبي موسى الأشعري»، وحديث «أنس»، عن النبي ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

(١) الترمذي: في المناقب (٣٨٤٣).

(٢) الإصابة (٢٥٧٥/٤).

وروى أهل البصرة، عن أبي عثمان النهدي، عن عمرو بن العاص، سمعه يقول: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»^(١).

وذكر «المحب الطبري» في سمطه الثمين: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ ذكر «فاطمة» رضي الله عنها، قالت: فتكلمت أنا، فقال: «أما ترضين أن تكوني زوجي في الدنيا والآخرة؟» قالت: بلى، قال: «فأنت زوجي في الدنيا والآخرة». أخرجه أبو حاتم^(٢).

وأخرج البخاري في صحيحه، عن محمد بن بشار: حدثنا غندر: حدثنا شعبة، عن الحكم: سمعت «أبا وائل» قال: لما بعث «علي» و«الحسن» إلى الكوفة ليستفرهم، خطب «عمار» فقال: إني لأعلم أنها زوجته أي: عائشة رضي الله عنها - في الدنيا والآخرة -، ولكن الله ابتلاكم لتبعوه أو يياها^(٣).

وروى المحب الطبري في السمط أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! من من أزواجك في الجنة؟ قال: «أما أنكِ منهن».

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة! إنه ليهون علي الموت أني أرينك زوجتي في الجنة»، خرجه الحافظ أبو الحسن الخلعي والحافظ الدمشقي، ولفظه: «ما أبالي بالموت قد علمت أنك زوجتي في الجنة».

وعنها رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت عائشة في الجنة كأنني أنظر إلى بياض كفيها ليهون علي بذلك عند موتي». أخرجه أحمد في مسنده^(٤).

وروى الطبراني، عن ذكوان حاجب عائشة رضي الله عنها - أنه جاء «عبد الله بن عباس» يستأذن على «عائشة» رضي الله عنها، وعند رأسها ابن أخيها «عبد الله بن عبد الرحمن» فقلت: هذا «ابن عباس» يستأذن، فأكب عليها ابن أخيها «عبد الله»

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨٨٢، ١٨٨٣).

(٢) السمط الثمين (٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٦١) والسمط الثمين أيضاً.

(٤) السمط الثمين (٥٩).

فقال: هذا «عبد الله بن عباس» يستأذن، وهي تموت، فقالت: دعني من «ابن عباس»، فقال: يا أمتاه! إن «ابن عباس» من صالح بنيك ليسلم عليك ويؤدّغك، فقالت: إذن له إن شئت، قال: فادخلته، فلما جلس، قال: أبشري، فقالت: أيضاً؟^(١)، فقال: ما بينك وبين أن تلقي «محمداً» ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنت أحبّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً، وسقطت قلاتك ليلة «الأبواء» فأصبح رسول الله ﷺ حتى يصبح في المنزل، وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [النساء، الآية: ٤٣]، فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله ﷻ لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يذكر الله فيه إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار.

فقالت: دعني منك يا بن عباس! والذي نفسي بيده! لوددت أني كنت نسياً منسياً^(٢).

وقد أمرها رسول الله ﷺ من فرط حبه لها، وخوفه عليها أن تسترقي من العين، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن معبد بن خالد، عن ابن شداد، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقي من العين^(٣).

وأخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء»، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! كيف حبك لي؟ قال: «كعقدة الجبل»، فكنت أقول: كيف العقدة؟ يا رسول الله! قال: فيقول: «هي على حالها»^(٤).

وأخرج «البيهقي» في «السنن الكبرى» و«أبو نعيم» في «الحلية» عن أبي عبيدة؛ معمر بن المثنى - من تيم قريش - حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن

(١) في سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٠): «إيها».

(٢) الطبراني في الكبير (١٠/ ٣٩٠) رقم (١٠٧٨٣) والطبقات (٨/ ٧٥)، ومسنَد أبي يعلى (٣/ ١٣٢)، (١٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٥٥/ ٢١٩٥).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٤٩).

عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخفض نعله، وكنت أغزل، قالت: فنظرت إلى رسول الله ﷺ فجعل جبينه يعرق، وجعل عرقه يتوقد نوراً، قالت: فَبُهِتُ، قالت: فنظر إليّ، فقال: «مالك بُهِتٌ؟» فقلت: يا رسول الله! نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نوراً، فلو رأيك «أبو كبير الهذلي» لعلم أنك أحق بشعره، قال: «وما يقول؟ يا عائشة أبو كبير الهذلي!» فقالت: يقول:

وَمَبْرَأٌ مِنْ كُلِّ غُبْرٍ حَيْضَةٍ وفساد مرضعةٍ وداءٍ فَعَمِيلٍ
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمْرَةٍ وَجْهَهُ برقت كبرق العارض المتهلّل
قالت: فوضع رسول الله ﷺ ما كان في يده، وقام إليّ، فقبل ما بين عينيّ، وقال: «جزاك الله يا عائشة! خيراً، ما سررت مني كسروري منك»^(١).

وروى الطبراني - بإسناد حسن - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! من أحب الناس إليك؟ قال: «وَلَمْ؟» قلت: لأحب من تحب، قال: «عائشة»^(٢).

وكان حبه ﷺ لعائشة ظاهراً غير خافٍ على أحد، والناس كلهم يعرفون ذلك، ومن كان يريد أن يهدي شيئاً لرسول الله ﷺ كان يحمله إليه في يوم عائشة حين يكون رسول الله ﷺ عندها. ففي الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي كريب، حدثنا عَبْدَةُ، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة؛ أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم «عائشة»، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ^(٣).

وقد أمر ﷺ ابنته «فاطمة الزهراء» بحب «عائشة» رضي الله عنها، فقد روى أبو يعلى في مسنده، والبزار في كشف الأستار بسند حسن - عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: «ما يبكيك؟» قلت: سبّني «فاطمة»، قالت: فدعا «فاطمة» فقال: «يا فاطمة! أسببت عائشة؟» قالت: نعم، يا رسول الله! قال: «يا بنية! أليس تحبين من أحب؟» قالت: بلى، والله يا رسول الله! قال: «وَتُبْغِضِينَ مِنْ أَبْغَضَ؟» قالت: بلى، والله يا رسول الله! قال: «فإني أحب عائشة فأحبّها».

(١) السنن الكبرى (٤٢٣/٧)، والحدية (٥٠/٢).

(٢) الطبراني في الكبير (٤٤/٣٣) رقم (١١٧).

(٣) صحيح مسلم (٢٤٤١/٨٢).

قالت «فاطمة» ﷺ : لا جَرَمَ، لا أقول لعائشة شيئاً يؤذيها بعد اليوم أبداً.
قالت عائشة ﷺ : فما سمعت منها شيئاً بعد ذلك (١).

إنها البَضْعَةُ النبوية: وفِلْدَةٌ كبد الصادق المصدق، ولم تكن «الزهراء» لتضاهي أهل العقوق، فلزمت وَصَاة أبيها، وأبت بعدُ - أن تعاديها ﷺ، وقد أخرج مسلم في صحيحه، عن ابن شهاب، أخبرني محمد بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ أن «عائشة» زوج النبي ﷺ قالت: أرسل أزواج النبي ﷺ «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مِرْطِي، فأذن لها.

فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في (ابنة ابن أبي قحافة)، وأنا ساكتة.

قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: «أي بنية! ألسن تحبين ما أحب؟» فقالت: بلى، قال: «فأحبي هذه».

قالت: فقامت «فاطمة» حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهنّ بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولِي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في «ابنة ابن أبي قحافة»، فقالت «فاطمة»: والله! لا أكلمه فيها أبداً، قالت «عائشة»: فأرسل أزواج النبي ﷺ «زينب بنت جحش»، زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني - تعادلني وتضاهيني - منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من «زينب»، وأتقى الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تَصَدَّق به، وتَقَرَّب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة - عجلة - في الغضب من حَدٍّ - في بعض النسخ من حِدَّة، وهي شدة الخلق وثورانه - كانت فيها، تسرع منها الفئنة - الرجوع -.

قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع «عائشة» في

(١) مسند أبي يعلى (٤/ ٤٧٠، ٤٧١) رقم (٤٩٣٤)، وكشف الأستار (٣/ ٢٤٠) رقم (٢٦٦١).

مِرْطُهَا، على الحالة التي دخلت «فاطمة» عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أزواجك أرسلني إليك يسألك العدل في «ابنة ابن أبي قحافة»، قالت: ثم وقعت بي نالت مني - فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طَرْفَه - عينه -، هل يأذن لي فيها؟.

قالت: فلم تبرح «زينب» حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

قالت: فلما وقعت بها لم أنْشَبْهَا - لم أمهلها - حين أنحيت عليها - قصدتها -، قالت: فقال رسول الله ﷺ وتَبَسَّمَ: «إنها ابنة أبي بكر»^(١).

وكانت محبةً لضررتها «سودة» كثيراً، فقد روت أنه: كان رسول الله ﷺ يقسم لكل امرأة يومها وليلتها، غير أن «سودة بنت زمعة» وهبت يومها وليلتها لعائشة ﷺ بتبغى بذلك رضا رسول الله ﷺ.

وعنها ﷺ قالت: ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مِسْلَاخِهَا - جلدها - من سودة بنت زمعة من امرأة منها حدة، فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة قالت: يا رسول الله! قد جعلت يومي منك لعائشة. رواهما المحب الطبري في سمطه الثمين^(٢).

وجاء في صحيح البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﷺ: أن نساء رسول الله ﷺ كُنَّ حَزْبَيْنِ: فحزب فيه «عائشة» و«حفصة» و«صفية» و«سودة»، والحزب الآخر «أم سلمة» وسائر نساء رسول الله ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ «عائشة»، فإذا كانت عند أحدهم هدية، يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أَخْرَها، حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت «عائشة»، بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت «عائشة».

فكَلَّم حزب «أم سلمة»، فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية، فليهدا إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلمته «أم سلمة» بما قلن لها، فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت:

(١) صحيح مسلم (٨٣/٢٤٤٢).

(٢) السمط الثمين (١٦٣، ١٦٤).

ما قال لي شيئاً، فقلن لها: فكلميه، قالت فكلَّمَتْهُ حين دار إليها أيضاً، فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلمه حتى يكلمك، فدار إليها فكلمته، فقال لها: «لا تؤذيني في «عائشة» فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة».

قالت: فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله! ثم إنهن دعون «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك الله العدل في «بنت أبي بكر»، فكلمته، فقال: «يا بنية! ألا تحبين ما أحب؟» قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع، فأرسلن «زينب بنت جحش»، فأتته فأغلظته، وقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت «عائشة» وهي قاعدة فسببتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى «عائشة» هل تكلم؟ قال: فتكلمت «عائشة» ترد على «زينب» حتى أسكتها.

قالت: فنظر النبي ﷺ إلى «عائشة»، وقال: «إنها بنت أبي بكر»^(١).

ومن مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما ذكره «الصالحى» في كتابه «أزواج النبي ﷺ» ما رواه ابن سعد، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فضلت على نساء النبي ﷺ بعشر، قيل: وما هن يا أم المؤمنين؟ قالت: ١ - لم ينكح بكرراً قط غيري. ٢ - ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيري، ٣ - وأنزل الله ﷻ براءتي من السماء. ٤ - وجاءه «جبريل» بصورتى من السماء في حريرة، وقال: تزوجها فإنها امرأتك. ٥ - وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري. ٦ - وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري، ٧ - وكان ينزل عليه الوحي، وهو معي، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيري. ٨ - وقبض الله تعالى نفسه، وهو بين سحري ونخري. ٩ - ومات في الليلة التي كان يدور عليّ فيها. ١٠ - ودفن في بيتي^(٢).

وتابع «الصالحى» قوله: وروي أيضاً عنها قالت: أُعْطِيتُ خلافاً ما أُعْطِيتُها

(١) صحيح البخاري (٢٤٤٢).

(٢) الطبقات (٨/٦٣، ٦٤) وأزواج النبي ﷺ (١١٩).

امراً: ملكني رسول الله ﷺ وأنا بنت سبع سنين، وأتاه الملكُ بصورتني في كفه فنظر إليها، وبنى بي لتسع سنين، ورأيت «جبريل» ولم تره امرأةً غيري، وكنت أحب نسائه إليه، وأبي أحب أصحابه إليه، ومرض رسول الله ﷺ في بيتي فمرّضته، وقبض ولم يشهده غيري والملائكة^(١).

وتابع «الصالحى» قوله: وروى الوزير نظام الملك ﷺ في أماليه عنها، قالت: أُعْطِيتُ عشر خصال لم تُعْطَها ذاتُ خِمار قبلي:

١ - صُورْتُ لرسول الله ﷺ قبل أن أُصَوِّرَ في رحم أُمِّي. ٢ - وتزوجني بكَراً ولم يتزوج بكَراً غيري. ٣ - وكان ينزل عليه الوحي وهو بين سَخْرِي ونَخْرِي. ٤ - ونزلت براءتي من السماء. ٥ - وكنت أحب الناس إليه. ٦ - وخُيِّرَ وهو بين حاقنتي وذاقنتي. ٧ - وتوفي في يومي. ٨ - ودفن في بيتي. كذا في هذه الرواية (عشراً) ولم يذكر فيها إلا ثمان خصال^(٢).

وتابع الصالحى قوله: وروى أبو يعلى عنها، قالت: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة إلا «مريم بنت عمران»: ١ - لقد نزل «جبريل» بصورتني في راحته (حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني). ٢ - ولقد تزوجني بكَراً وما تزوج بكَراً غيري. ٣ - ولقد قُبِضَ ورأسه في حجري، ولقد قبرته في بيتي. ٤ - ولقد حَفَّتِ الملائكة بييتي. ٥ - وإن كان الوحي لينزل عليه وهو في أهله فيتفرقون عنه، وإن كان الوحي لينزل عليه وإني لمعه في لحافه. ٦ - وإنني لابنة خليفته وصديقه. ٧ - ولقد نزل عذري من السماء. ٨ - ولقد خلقت طَيِّبَةً وعندَ طَيِّبٍ. ٩ - ولقد وُعِدْتُ مغفرةً ورزقاً كريماً^(٣).

وتابع الصالحى يقول: وروى الطبراني برجال الصحيح، وابن أبي شيبه عنها، قالت: خِلَالُ فَيِّ سَبْعٍ - وفي لفظ: خِلَالُ فَيٍّ لم تكن في أحد من النساء إلا ما أتى الله «مريم بنت عمران»، والله! ما أقول هذا فخرًا.

(١) الطبقات (٦٥/٨) وأزواج النبي ﷺ (١١٩).

(٢) أزواج النبي ﷺ (١٢٠) والسمط الثمين (١٠٩).

(٣) أزواج النبي ﷺ (١٢٠، ١٢١) ومسنَد أبي يعلى (٣٣٦/٤، ٣٣٧).

وفي لفظ: «أنني أفتخر على أحد من صواحي قيل: وما هن؟».

وفي لفظ: فقال «عبد الله بن صفوان»: وما هن؟ يا أم المؤمنين! قالت:
 ١- نزل المَلَكُ بصورتي. ٢- وتزوجني رسول الله ﷺ لسبع سنين، وأهديت إليه
 تسع سنين. ٣- وتزوجني بكرًا، ولم يشركه فيَّ أحد من الناس. ٤- وكان
 الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد. ٥- وكنت أحبَّ الناس إليه، وبنت أحبَّ
 الناس إليه. ٦- ولقد نزل فيَّ آيات من القرآن، وقد كادت الأمة تهلك فيَّ. ٧-
 ورأيت «جبريل» ولم يره أحد من نسائه غيري. ٨- وقبض في بيتي، ولم يَلِهْ أحد
 غيري وغير المَلَك^(١).

وفي «السمط الثمين» روى المحب الطبري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إني
 لأفخر على أزواج النبي ﷺ بأربع:

- ١- ابتكرني - أي: تزوجني بكرًا - ولم يبتكر امرأة غيري.
- ٢- ولم ينزل عليه القرآن منذ دخل عليَّ إلا في بيتي.
- ٣- ونزل بعذري قرآن يتلى.
- ٤- وأتاه «جبريل» بصورتي مرتين، قبل أن يملك عقدي، - خرج «أبو
 عمرو بن السماك»^(٢).

وروى المحب الطبري في سمطه الثمين، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما
 رأيت من النبي ﷺ طيب نفس، قلت: يا رسول الله! أذع الله لي، فقال: «اللهم!
 اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرَّت وما أعلنت»، فضحكت
 عائشة حتى سقط رأسها في حَجَرها من الضحك، فقال لها رسول الله ﷺ:
 «أيسرُّك دعائي؟» فقالت: وما لي لا يسرنى دعاؤك؟.

فقال ﷺ: «إنها لدعائي لأمتي في كل صلاة». أخرجه أبو حاتم.

(١) أزواج النبي ﷺ (١٢١، ١٢٢)، قال (سبع)، وفي العدد (ثمان)، وفي سير الذهبية (تسع) والله
 أعلم.

(٢) السمط الثمين (٧٠).

وعند غيره أنها قالت: بأبي أنت وأمي! يا رسول الله! اذعُ الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر.

قالت: فرفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، وقال: «اللهم! اغفر لعائشة بنت أبي بكر، مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، ولا تكسب بعدها خطيئة ولا إثمًا»، وقال رسول الله ﷺ: «أفرحت؟ يا عائشة!» فقلت: إي والذي بعثك بالحق، فقال: «أما والذي بعثني بالحق ما خصصتك بها من بين أمتي، وإنها لصلاتي لأمتي في الليل والنهار، فيمن مضى منهم ومن بقي إلى يوم القيامة، أنا أدعو لهم والملائكة يؤمنون على دعائي»^(١).

ما أعظمك يا سيدي! وما أرافك بأمتك! صلى الله عليك وسلم في الأولين والآخرين، وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين، وحتى ألقاك على حوضك الشريف.

وكان رسول الله ﷺ يسعى إلى استرضائها إذا حصل بينهما شيء أو كان بينهما كلام، فقد أخرج «المحب الطبري» في «المط الثمين»، عن «النعمان بن بشير» قال: جاء «أبو بكر» يستأذن على رسول الله ﷺ، فسمع «عائشة» رضي الله عنها وهي رافعة صوتها على النبي ﷺ، فأذن له فدخل، فقال: يا بنت أم رومان! أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! وتناولها أبوها رضي الله عنه.

قال أي النعمان -: فحال النبي ﷺ بينه وبينها، فلما خرج سيدنا «أبو بكر» رضي الله عنه، جعل النبي ﷺ يقول لها يترضاها: «ألا ترين أنني قد حلت بين الرجل وبينك؟»، قال: ثم جاء سيدنا «أبو بكر» رضي الله عنه فاستأذن عليه، فوجده يضاحكها، قال: فأذن له فقال: يا رسول الله! أشركاني في سلمكما كما أشركتاني في حربكما. أخرجه أحمد.

وعن «عائشة» رضي الله عنها: أنها كان بينها وبين النبي ﷺ كلام: فقال لها: «من ترضين بيني وبينك؟ أترضين بعمر؟» قالت: لا أرضى «عمر» قط، «عمر» غليظ، قال: «أترضين بأبيك بيني وبينك؟» قالت: نعم، فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال:

«إن هذه من أمرها كذا، ومن أمرها كذا»، قالت: فقلت: اتق الله ولا تقل إلا حقاً، قالت: فرفع «أبو بكر» يده فَرَّثَمَ أنفها - أي: كسره حتى أدماه -، وقال: أنت لا أم لك يابنة أم رومان! تقولين الحق وأبوك، ولا يقوله رسول الله ﷺ! قالت: فابتدر منخراها كأنهما عَزَلَاوان - المفرد - عَزَل وعزلاء، وهو مصب الماء من القرية، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نَدْعُكَ لهذا».

قالت: ثم قام إلى جريدة في البيت فجعل يضربها بها، فولت هاربة منه، فلزقت بظهر النبي ﷺ، قالت: حتى قال له رسول الله ﷺ: «أَقَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا خَرَجْتَ، فَإِنَّا لَمْ نَدْعُكَ لهذا».

فلما خرج «أبو بكر» ﷺ قامت فَتَنَحَّتْ عن رسول الله ﷺ، فقال: «ادني مني»، فأبت أن تفعل، فَتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ، وقال: «لقد كنت قبلُ شديدة اللزوق بظهري!». أخرجه الحافظ الدمشقي.

وعنها ﷺ قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وخرج معه نساؤه، قالت: وكان متاعي فيه خِفْ، وكان على جملِ نَاجٍ، وكان متاع «صفية بنت حيي» فيه ثِقْلٌ، وكان على جملِ ثِقَالٍ بَطِيءٍ، فقال رسول الله ﷺ: «حَوِّلُوا متاع «عائشة» على «صفية»، وحولوا متاع «صفية» على جمل «عائشة» حتى يمضي الركب». ومعنى: جمل ناج: أي: سريع.

قالت «عائشة» ﷺ: فلما رأيت ذلك، قلت: يا لعباد الله! غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا أم عبد الله! إن متاعك كان فيه خِفْ، وكان متاع «صفية» فيه ثِقْلٌ فأبطأ بالركب، فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها». قالت: فقلت: أليس تزعم أنك رسول الله؟.

قالت: فَتَبَسَّمَ وقال: «أو في شك أنت؟ يا أم عبد الله!»

قالت: فقلت: أولَسْتَ تزعم أنك رسول الله؟ فهَلَّا عدلت! فسمعني «أبو بكر» - وكان فيه غَرْب - أي: جِدَّة - فأقبل عليّ ولطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا أبا بكر!» فقال: يا رسول الله! أولم تسمع ما قالت؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»^(١).

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: وجدت في كتابي، عن أبي أسامة: حدثنا هشام، ح حدثنا أبو كريب، محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إنني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غَضْبى»، قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا، ورب محمد!» وإذا كنت غَضْبى، قلت: لا، ورب إبراهيم!» قالت: قلت: أجل، والله! يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك^(٢).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي نعيم، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، حدثني ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة، على «عائشة» و«حفصة»، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل، سار مع «عائشة» يتحدث معها، فقالت: «حفصة» لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظري؟ قالت: بلى، فركبت «عائشة» على بعير «حفصة»، وركبت «حفصة» على بعير «عائشة»، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل «عائشة» وعليه «حفصة»، فسلم، ثم سار معها، حتى نزلوا، فافتقدته «عائشة» فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر وتقول: يا رب! سلّط عليّ عقرباً أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً^(٣).

لقد كُنَّ نساء رسول الله ﷺ يَغْرَنَ، يَبْدُ أن غيرتهن هادئة لا جلبة فيها ولا صَحْب لئلا يزعجن رسول الله ﷺ ويعكرن عليه صفو حياته، إنه خير الأزواج ﷺ، وإنهن خير النساء رضي الله عنهن.

وكانت حادثة الإفك أهم ما تعرضت له المبرأة المطهرة حبيبة حبيب رب العالمين ﷺ وقد تعددت الروايات فيها، غير أنني سأكتفي بروايتي الإمامين

(١) السمط الثمين (٧٢ - ٧٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٤٣٩/٨٠)، والسمط الثمين (٧٥).

(٣) مسلم (٢٤٤٥/٨٨).

الجليلين «أبي عبد الله؛ محمد بن إسماعيل البخاري» و«أبي الحسين؛ مسلم بن الحجاج» لما لهما - رحمهما الله تعالى - من فضل جزيل، وجهد جليل، في نقل ما تبينَّت لهما صحته من حديث سيد البشر ﷺ.

أما رواية الإمام البخاري فقد جاء فيها: حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة ؓ، زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفاك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكُلُّ حدثني طائفة من الحديث، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة، عن عائشة ؓ: أن «عائشة» ؓ زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأبتنهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت «عائشة»: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فانا أُحْمَلُ في هودجي وأنزلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذنَ ليلة بالرحيل، فقامت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْدُ لي من جَزَعٍ ظَفَارٍ قد انقطع، فالتمتُ عِقْدي وحبني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنتُ ركبْتُ، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يُثْقِلْهُنَّ اللحم، إنما تأكل العُلُقَةَ من الطعام، - أي: ما يكتفى به من العيش -، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عِقْدي بعدما استمر الجيش، فجت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأمنتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فمنت، وكان «صفوان بن المُعْطَل» المُلَمي، ثم الذَّكْوانِي من وراء الجيش، فادلج فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَرْتُ وجهي بجلبابي، والله! ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فَوَطِئَ على يديها فركبُها، فانطلق يقود بي

الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك.

وكان الذي تولّى الإفك «عبد الله بن أبي ابن سلول»، فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمتُ شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرّيبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين اشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكُم؟»، ثم ينصرف، فذاك الذي يرّيبني ولا أشعر، حتى خرجت بعدما نقهتُ، فخرجتُ معي «أُمّ منطح» قِبَلَ المَنَاصِع، وهو متبرّزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الكُفَّ قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمرُ العرب الأول في التبرّز قِبَلَ الغائط، فكنّا نتأذى بالكُفَّ أن نَتَّخِذَها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا و«أُمّ منطح» وهي ابنة «أبي زُهَم بن عبد مناف»، وأمها «بنت صخر بن عامر» خالة «أبي بكر الصديق»، وابنها «مِسطح بن أثانة».

فأقبلتُ أنا و«أُمّ منطح» قِبَلَ بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت «أُمّ منطح» في مِرْطَها - ثوبها -، فقالت: تَعَسَّ «مِسطح» فقلت لها: بش ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرأ، قالت: أي هَتَّاء! أولم تسمعي ما قال؟

قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ - تعني - سلم، ثم قال: «كيف تيكُم؟»، فقلت: أأُذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حيثُ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهِمَا، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجنّتُ أبوي، فقلت لأمي: يا أُمَّتاه! ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية! هَوْنِي عليك، فوالله! لقلما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كَثُرْنَ عليها.

قالت: فقلتُ: سبحان الله! ولقد تحدّث الناس بهذا؟

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» و«أسامة بن زيد» ﷺ حين استلبث الوحي - أي: أبطأ -، يستأمرهما - أي: يشاورهما - في فراق أهله، قالت: فأما «أسامة بن زيد» فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من

براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله! أهلك وما نعلم إلا خيراً.

وأما «علي بن أبي طالب» فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ «بَريرة» فقال: «أَيُّ بَريرة! هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بَريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيتُ عليها أمراً أغمضه عليها أي: أعيبه - أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من «عبد الله بن أبي ابن سلول» أي: طلب من الناس أن يَغذروه إن هو عاقبه -.

فقالت: فقال رسول الله ﷺ، وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يَغْذِرُنِي من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام «سعد بن معاذ» الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أنا أعْذِرُك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام «سعد بن عباد»، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام «أسيد بن حضير»، وهو ابن عم «سعد»، فقال لسعد بن عباد: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتَلَنَّهُ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فتناور الحيّان الأوس والخزرج حتى هَمُّوا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنّان أن البكاء فائق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من

الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ، فسَلَّم، ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قِيلَ ما قِيلَ قَبْلَها، وقد لبث شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني، قالت: فتشَّهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد! يا عائشة! فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيِّرْكِ الله، وإن كنتِ أَلَمَمْتِ بذنب فاستغفري الله وتوبيي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال.

قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن -: إني والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لَتُصَدِّقُنِي، والله! ما أجد لكم مثلاً إلا قول «أبي يوسف»، قال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا نَصِفُونَ» [يُوسُف، الآية: ١٨].

قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن والله! ما كنت أظن أن الله مُنْزِلٌ في شأني وحيًا يُتلى، ولَشَأْنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمر يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله! ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنْزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرَّحاء، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجُمان من العرق، - أي: مثل اللؤلؤ -، وهو في يوم شات، من يُقَلِّ القول الذي ينزل عليه.

قالت: فلَمَّا سُرِّي عن رسول الله ﷺ سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة! أمَّا الله ﷻ فقد برَّأك».

فقلت أمي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله! لا أقوم إليه، ولا أحمَدُ إلا الله ﷻ، وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلِفِكَ غَضَبٌ يَنْكَرُ لَا تُحْسَبُهُ﴾ [الثور، الآية: ١١]، العشر الآيات كُلُّهَا، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال «أبو بكر الصديق» ﷺ، وكان ينفق على «مِنْطَحِ بْنِ أُنَاثَةَ» لقربته منه وفقره: والله! لا أنفقُ على «مِنْطَحِ» شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلَا الْفَضْلِ يَنْكَرُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الثور، الآية: ٢٢].

قال «أبو بكر»: بلى والله! إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى «مِنْطَحِ» النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت «عائشة»: وكان رسول الله ﷺ يسأل «زينب ابنة جحش» عن أمري، فقال: «يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً.

قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها «حمنة» تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإلفك^(١).

وروى البخاري: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سليمان، عن حصين، عن أبي وائل، عن مسروق، عن أم رومان؛ أم عائشة أنها قالت: لما رميت «عائشة» حُرَّتْ مغشياً عليها^(٢).

وأما رواية الإمام مسلم فقد جاء فيها: حدثنا جَبَّانُ بْنُ مُوسَى، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يونس بن يزيد الأيلي، ح وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ، ومحمد بن رافع، وعبد بن حميد، (قال ابن رافع: حدثنا، وقال الآخرون: أخبرنا) عبد الرزاق، أخبرنا معمر، والسياق حديث معمر من رواية عبد وابن رافع.

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٣).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٧٤).

قال يونس ومعمّر، جميعاً عن الزهري: أخبرنا سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة، زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض، وأثبت اقتصاصاً - أي أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث -، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يُصدّق بعضاً.

ذكروا أن «عائشة» زوج النبي ﷺ، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سقراً، أفرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت «عائشة»: فأفرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، مسيرتنا.

حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمّت حين آذنوا بالرحيل فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلتُ إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفّار^(١) قد انقطع، فرجعت فالتمسْتُ عقدي فجبني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن أي: يشغلن باللحم والشحم -، ولم يغشهنّ اللحم، إنما يأكل العُلقة - البلغة: القليل - من الطعام، فلم يستكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بها دأع ولا مجيب، فتيمنتُ منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فتمت.

(١) قال محمد فؤاد عبد الباقي - رحمه الله تعالى - في تحقيقه لصحيح مسلم: ظفّار: مبنية على الكسر، تقول: هذه ظفّار، ودخلتُ ظفّار، وإلى ظفّار، بكسر الراء بدون تنوين في الأحوال كلها، وهي قرية باليمن.

وكان «صفوان بن المُعَظَّل» السُّلَمِيُّ، ثم الذكواني قد عَرَّس - أي: نزل آخر الليل - من وراء الجيش، فادَّلَج - سار آخر الليل - فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وقد كان يراني قبل أن يُضْرَبَ الحجاب عليّ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله! ما يكلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبُها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة - أي نازلين وقت القائلة وشدة الحر -، فهلك من هلك في شأني.

وكان الذي تولَّى كِبْرَهُ - معظمه -، أي الإفك - «عبد الله بن أبي ابن سلول» فقدمنا المدينة، فاشتكتُ حين قدمنا المدينة شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَرِيبُنِي في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين اشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيلَمْ، ثم يقول: «كيف تيكُم؟» - هي إشارة للمؤنث، كذلك، في المذكر -، فذاك يريبُنِي، ولا أشعر بالشر، حتى خرجتُ بعدما نَقَّهْتُ، - أي: برئت من المرض -.

وخرجت معي «أُمُّ مِسْطَح» قِبَلَ المناصع - هي مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها -، وهو متبرِّزُنَا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الكُنْفَ - المراحيض - قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمرُ العرب الأول في التنزُّه - أي: طلب الزهادة بالخروج إلى الصحراء -، وكنا نتأذى بالكنف أن نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بيوتنا.

فانطلقت أنا و«أُمُّ مِسْطَح» وهي بنتُ «أبي رُهم بن المُطَّلِب بن عبد مناف» وأمها ابنة «صخر بن عامر» خالة «أبي بكر الصديق» وابنها «مِسْطَح بن أُنَافَةَ بن عباد بن المُطَّلِب»، فأقبلتُ أنا وبنْتُ «أبي رُهم» قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا.

فَعَثَرْتُ «أُمُّ مِسْطَح» في مِرْطَها - ثوب من صوف - فقالت: تَعِيسَ «مِسْطَح»، فقلتُ لها: بش ما قلتِ، أتبين رجلاً قد شهد بدرًا؟ قالت: أي هَتَّاءُ! ^(١) أولم

(١) قال ابن الأثير في النهاية: وتقم الهاء وتسكن، والمعنى: يا هذه، وقيل: يا امرأة! والمقصود أنها قليلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.

تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت، فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلم، ثم قال: «كيف تيكُم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبليهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي، فقلت لأمي:

يا أمتاه! ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية! هوني عليك، فوالله! لقلّما كانت امرأة قط وضيئة - جميلة حسنة - عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها - أي: عيبتها وتنقضن منها -.

قالت: قلت: سبحان الله! وقد تحدّث الناس بهذا؟

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ - لا ينقطع - لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ «علي بن أبي طالب» و«أسامة بن زيد» حين استلبث - أبطأ ولم ينزل - يستشيرهما في فراق أهله.

قالت: فأما «أسامة بن زيد» فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلّم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً. وأما «علي بن أبي طالب» فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدّقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ «بريرة» فقال: «أي بريرة!، هل رأيت من شيء يريبك من «عائشة»؟»، قالت له «بريرة»: والذي بعثك بالحق! إن رأيتُ عليها أمراً قط أغمضه عليها، - أي: أعيبتها به - أكثر من أنها جارية حديثة السنّ، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن - الشاة - فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر - طلب من ينصره - من «عبد الله بن أبي ابن سلول».

قالت: فقال رسول الله ﷺ، وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله! ما علمتُ على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي».

فقام «سعد بن معاذ» الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه^(١)، يا رسول الله!

إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام «سعد بن عباد»، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتَهَلَتْهُ - أي: استخفَّته وأغضبه وحملته على الجهل - الحَمِيَّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لَعَمْرُ الله! لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام «أسيد بن حضير» وهو ابن عم «سعد بن معاذ» فقال لسعد بن عباد: كذبت، لَعَمْرُ الله! لنقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان الأوس والخزرج، حتى هَمُّوا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر.

فدلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك، دخل علينا

(١) (أنا أعذرك منه) إقَالَ القاضي عياض: هذا مشكل لم يتكلم فيه أحد، وهو قولها: فقام «سعد بن معاذ»، فقال: أنا أعذرك منه، وكانت هذه القصة في غزوة «المريسيع»، وهي غزوة «بني المصطلق» سنة ست، فيما ذكره ابن إسحاق، ومعلوم أن «سعد بن معاذ» مات إثر غزوة «الخندي» من الرمية التي أصابته، وذلك سنة أربع بإجماع أهل السير، إلا شيئاً قاله الواقدي وحده. قال القاضي: قال بعض شيوخنا: ذكر «سعد بن معاذ» في هذا وَهْم، والأشبه أنه غيره، ولهذا لم يذكره ابن إسحاق في السير، وإنما قال: إن المتكلم أولاً وآخرأ «أسيد بن حضير»، قال القاضي: وقد ذكر «موسى بن عقبة» أن غزوة «المريسيع» كانت سنة أربع، وهي سنة الخندق. وقد ذكر البخاري اختلاف «ابن إسحاق» و«ابن عقبة»، قال القاضي: فيحتمل أن غزوة «المريسيع» وحديث الإفك كانا في سنة أربع قبل قصة الخندق.

قال القاضي: وقد ذكر «الطبري» عن «الواقدي» أن «المريسيع» كانت سنة خمس، قال: وكانت الخندق وقرية بعدها، وذكر القاضي «إسماعيل» الخلاف في ذلك، وقال: الأولى أن يكون «المريسيع» قبل الخندق.

قال القاضي: وهذا لذكر «سعد» في قصة الإفك، وكانت في «المريسيع»، فعلى هذا يستقيم فيه ذكر «سعد بن معاذ» وهو الذي في الصحيحين، وقول غير ابن إسحاق، في غير وقت «المريسيع»، أصح. هذا كلام القاضي، وهو صحيح.

وجدت هذه الحاشية في نسخة صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

رسول الله ﷺ، فسَلَّم، ثم جلس.

قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة! فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أَلَمَمْتَ بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب، تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، فقال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت، وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله! لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم، وصدقتم به، فإن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدقوني، وإني والله! ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال «أبو يوسف»: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف، الآية: ١٨].

قالت: ثم تحوَّلتُ، فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا، والله! حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئني ببراءتي، ولكن، والله! ما كنت أظن أن يُنزل في شأني وحْيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله ﷻ فيَّ بأمر يُتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله! ما رام - أي: ما فارق - رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء - الشدة - عند الوحي، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجمان - اللؤلؤ - من العرق، في اليوم الشَّاتِ، من ثِقَلِ القول الذي أنزل عليه.

قالت: فلما سُرِّي - كُشِفَ - عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري، يا عائشة! أما الله فقد برَّأك»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله! لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

قالت: فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور، الآية: ١١] عَشْرَ آيَاتٍ، فأنزل الله ﷻ هؤلاء الآيات براءتي.

قالت: فقال «أبو بكر»، وكان ينفق على «مِنْطَح» لقربته منه وفقره: والله! لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ [النور، الآية: ٢٢] إلى قوله: ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور، الآية: ٢٢].

قال جَبَّان بن موسى: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله، فقال «أبو بكر»: والله! إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى «مِنْطَح» النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزِعُها منه أبداً.

قالت «عائشة»: وكان رسول الله ﷺ سأل «زينب بنت جحش»، زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمت؟ أو ما رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله! ما علمتُ إلا خيراً.

قالت «عائشة»: وهي التي كانت تساميني - تفاخرني وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ -، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها «حَمْنَةُ بنت جحش» تُحَارِبُ لها، فهلكت فيمن هلك.

قال الزهري: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط، وقال في حديث يونس: احتملته الحمية - أي أغضبت - (١).

وذكر «جار الله الزمخشري» في «كشَّافه عن حادثة الإفك»، فقال: ولو فَلَّيت القرآن كله، وَفَتَّشْت عما أُوْعِدَ به العصاة، لم تر الله تعالى قد أغلظ في شيء تغليظه في إفك السيدة «عائشة» ﷺ ولا أنزل الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، وما أنزل فيه على طرق مختلفة، وأساليب مفتنة كل واحد منها كافٍ في بابه.

(١) صحيح مسلم (٥٦/٢٧٧٠).

ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة معلونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبيهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهلُه حتى يعلموا عند ذلك: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور، الآية: ٢٥] فأوجز في ذلك وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكّد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر^(١).

وقيل: إن «أبا أيوب» الأنصاري دخل على امرأته «أم أيوب» وصدره ضائق بما سمع من حديث الإفك، فقال لها، والحزن يكاد يمزقه: يا أم أيوب! ألا ترين ما يقال؟ قالت أم أيوب: بلى، ولكن أخبرني، لو كنت بدل «صفوان بن المُعَظَّل» السلمي، أكنت تَهْمُ بسوءٍ لِمَحْرَمِ رسول الله ﷺ؟ فردّ «أبو أيوب» باستنكار شديد: لا، معاذ الله أن يصل فكري إلى ذلك! وأرادت «أم أيوب» أن تفصح لزوجها عن عميق إيمانها، وشدة وفائها لمن زرع الإيمان في قلبها، فقالت: ولو كنت أنا بدل «عائشة» لما خنت رسول الله ﷺ، و«عائشة» - والله! - خير مني، و«صفوان» خير منك.

ولا غَرَوُ أن يصدر مثل هذا الكلام العابق بالحب لخاتم المرسلين، وللمطهرة المبرأة «عائشة» أم المؤمنين، عن أهل البيت الذي دخله «جبريل» الأمين، حاملاً لرسول رب العالمين ﷺ، آيات الكتاب المبين، بعد أن نزل رسول الله ﷺ ضيفاً عليهما وكانا له مكرمين.

وإذا كان «الصديق» الذي يرجح إيمانه على إيمان العالمين، و«أم رومان» التي شبهها رسول الله ﷺ بالهور العين، قد ربّياً «عائشة» لتكون أماً للمؤمنين، فكيف يخطر ببال أحد له آثارٌ من عقل، ومُنْكَةٌ من فهم، أن يتهم أسوة المؤمنين، وقذوة العفيفات، في طهرها وعفتها، واحتشامها وورعها، وهي التي تلقّت أحكام الطهارة من فم أشرف المرسلين، وغرستها في رجال ونساء وبنات المسلمين؟ ومن أخرى ممن قذفها - ظلماً وعدواناً، وزوراً وبيهتاناً - بلعنة الله وملائكته والناس أجمعين؟

(١) انظر تفسير سورة النور في الكشف.

لقد لجأت سيدة الطاهرات إلى باريها، فأرسل أمينه «جبريل» ﷺ بالآيات التي تُبْرِئُها، وإذا كان الله يدافع عن الذين آمنوا، أفتُخلى عن «أمهم» في محتها، ويعرض عن مساعدتها في شدتها؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكفى بمن لجأت إليه ناصراً وظهيراً، وأما الذي تولَّى كبره فقد أوعده الله بعذاب عظيم.

أيتها الأم الحنون! لئن رام الذي اتهمك النيل من سمعتك، والإساءة إلى مكانتك، فذنبه عظيم، وجَزَاؤه وخيم، أما إن كان قصده أن ينال من مقام الحبيب الأعظم، والمصطفى الأكرم، فجرمه أكبر، وعقابه أخطر وأوْخَم، وِفَاقاً لما كسبت يده، وتعديه على حدود الله. ولولا سمو شأنك، وعلو قدرك، ووفرة مناقبك، وانتضاء مثالبك، لما تصدَّى مدافعاً عنك الرحمن، ولما كنت زوج حبيبه في الجنان، فهنيئاً لك تلك الرعاية الربانية، والعناية السماوية.

وتحضرني الآن، بعض المناقب التي خُصَّت بها أم المؤمنين، من لدن رب العالمين، منها: ما رواه الطبراني - بإسناد حسن، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قدمنا مهاجرين، فسلطنا في ثنية صعبة، فنفر جمل كنت عليه نفوراً شديداً قوياً منكراً، فوالله! ما أنسى قول أمي: يا عويشة! فركب بي رأسه، فسمعت قائلاً يقول: ألقى خطامه، فألقيته، فقام يستدير كأنما إنسان يديره، كأنما إنسان قام تحته^(١).

ثم كان من فضل الله عليها وعلى المؤمنين أن تنزل رخصة التيمم بحبيها، ويوسع على المسلمين من أجلها، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن «عائشة» رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (أو بذات الجيش) انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى «أبي بكر»، فقالوا: ألا ترى ما صنعت «عائشة»؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء «أبو بكر»، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسَتْ رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء.

(١) الطبراني في الكبير (١٨٣/٢٣).

قالت: فعاتبني «أبو بكر»، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي.

فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيَّمُوا، فقال «أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ» (وهو أحد النقباء): ما هي بأول بركتكم يا آل «أبي بكر!»، فقالت «عائشة»: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته^(١).

وفي رواية أخرى لمسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه، حدثنا أبو أسامة، ح وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، وابن بشر، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة؛ أنها استعارت من «أسماء» قلادة، فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها، فأدركتهم الصلاة، فصلُّوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ﷺ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمم، فقال «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ»: جزاك الله خيراً، فوالله! ما نزلت أمرٌ قط، إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة^(٢).

وروى البغوي، وأبو الشيخ، عن جابر ﷺ قال: كان النبي ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت - يعني «عائشة» ﷺ - الشيء تابعها عليه^(٣).

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ سابقها مرتين، ففازت في الأولى، وخسرت في الثانية، فقد روى الإمام أحمد ﷺ والنسائي وأبو داود والحميدي وابن أبي شيبه، واللفظ لأحمد - بأسانيد صحيحة، رجالها كلها رجال الصحيح -، عن عائشة ﷺ قالت: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، ولم أبْدُن، فقال للناس: «تقدَّموا» فتقدَّموا، ثم قال لي: «تعالني حتى أسابقك» فسابقته، فسبقته، فمكت عني، حتى إذا حملت اللحم، وبَدَنْتُ، ونسيتُ، خرجتُ معه في بعض أسفاره، فقال للناس: «تقدَّموا»، فتقدَّموا، ثم قال: «تعالني حتى أسابقك» فسابقته، فسبقتني، فجعل يضحك، وهو يقول: «هذه بتلك»^(٤).

(١) صحيح مسلم (١٠٨/٣٦٧).

(٢) صحيح مسلم (١٠٩/٣٦٧).

(٣) الأنوار للبغوي (٢٤٦) وأخلاق النبي لأبي الشيخ (٣٤).

(٤) مسند أحمد (٢٤٩١٧).

ما أحسن عشرتك ومعاملتك لأزواجك يا سيدي! حقاً إنك لعلی خلق عظيم. وأتاها ما يأتي النساء، أثناء حجها مع رسول الله ﷺ، فأمرها رسول الله ﷺ بأمره، وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثني أبو بكر الحنفي: حدثنا أفلح بن حميد، سمعت القاسم بن محمد، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في أشهر الحج، وليالي الحج، وحُرْم الحج، فنزلنا بَسْرَف.

قالت: فخرج إلى أصحابه، فقال: «من لم يكن منكم معه هدي، فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه الهدى فلا».

قالت: فالأخذ بها، والتارك لها من أصحابه، قالت: فأما رسول الله ﷺ ورجال من أصحابه، فكانوا أهل قوة، وكان معهم الهدى، فلم يقدرُوا على العمرة.

قالت: فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: «ما يبكيك يا هُنْتَاة يا - هذه -»، قلت: سمعت قولك لأصحابك، فَمُنِعْتُ العمرة.

قال: «وما شأنك؟» قلت: لا أصلي، قال: «فلا يضيرك، إنما أنت امرأة من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجتك، فمسي الله أن يرزقكها».

قالت: فخرجنا في حَجَّتِهِ حتى قدمنا مِنِّي، فَطَهَرْتُ، ثم خرجت من مِنِّي، فأفضتُ بالبيت، قالت: ثم خرجت معه في النفر الآخر، حتى نزل المحصَّب، ونزلنا معه، فدعا «عبد الرحمن بن أبي بكر»، فقال: «اخرج بأختك من الحرم، فلتَهْلُ بعمرة، ثم افرُغَا، ثم اثْبِتَا ههنا، فإنني أنظرُكما حتى تأتياي».

قالت: فخرجنا، حتى إذا فرغْتُ، وفرغْتُ من الطواف، ثم جئته بسحر، فقال: «هل فرغتم؟»، فقلت: نعم، فأذن بالرحيل في أصحابه، فارتحل الناس، فَمَرَّ متوجَّهاً إلى المدينة^(١).

(١) صحيح البخاري (١٤٨٥).

وكانت لها ﷺ - ألعاب من البنات تلعب بهن مع صواحبها، فلا يمنعها رسول الله ﷺ، وكان يسمح لها بالنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب، وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﷺ؛ أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ.

قالت: وكانت تأتيني صواحي فكنَّ ينقمعن - يتغيبن حياء منه وهيبة في نواحي البيت - من رسول الله ﷺ، قالت: فكان رسول الله ﷺ يُسرُّهُنَّ إلي يرسلهن إلي^(١).

وروى مسلم أيضاً: حدثني هارون بن سعيد الأيلي، ويونس بن عبد الأعلى (واللفظ لهارون) قالا: حدثنا ابن وهب، أخبرنا عمرو؛ أن محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن عروة، عن عائشة ﷺ، قالت: دخل رسول الله ﷺ وعندي جارتان تغنيان بغناء بُعَاث، - أشعار قيلت في تلك الحرب - فاضطجع على الفراش، وحوَّل وجهه، فدخل «أبو بكر» فانتهرني، وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «دعهما» فلما غَفَلَ غمزتهما فخرجتا، وكان يومَ عيد يلعب السودان بالدَّرَق والحراب، فلما سألت رسول الله ﷺ، وإِماً قال: «تشتهين تنظرين؟» فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «دونكم يا بني أَرْفَدَةَ!» - أي: عليكم بهذا اللعب -، حتى إذا مَلَأْتُ، قال: «حَسْبُكَ؟» - أي: يكفيك؟ قلت: نعم، قال: «فأذهبي»^(٢).

وروى مسلم أيضاً: حدثني هارون بن سعيد الأيلي، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو، أن ابن شهاب حدثه عن عروة، عن عائشة ﷺ؛ أن «أبا بكر» دخل عليها، وعندها جارتان في أيام منى تغنيان وتضربان ورسول الله ﷺ مُسَجَّى بثوبه - مُعْطَى -، فانتهرهما «أبو بكر»، فكشف رسول الله ﷺ عنه، وقال: «دعهما يا أبا بكر! فإنها أيام عيد».

وقالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون، وأنا جارية، فأقْدَرُوا قَدْرَ الجارية العَرَبية الحديثة السن^(٣).

(١) صحيح مسلم (٨١/٢٤٤٠).

(٢) صحيح مسلم (١٩/٨٩٢).

(٣) مسلم (١٧/٨٩٢).

وكان ﷺ إذا دُعِيَ إلى طعام يستأذن الداعي أن يصحبها معه، فقد روى مسلم في صحيحه: وحدثني زهير بن حرب، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن جارا لرسول الله ﷺ فارسياً، كان طيب المَرَق، فصنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه، فقال: «وهذه؟» لعائشة، فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «لا»، فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «وهذه؟» قال: لا، قال رسول الله ﷺ: «لا»، ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «وهذه؟» قال: نعم، في الثالثة، فقاما يتدافعان يمشي كل منهما في إثر صاحبه -، حتى أتيا منزله^(١).

وقد سعدت السيدة «عائشة» رضي الله عنها برؤية «جبريل» عليه السلام دون سائر أزواج النبي ﷺ، فقد روى الإمام أحمد في «مسنده»، وابن الجوزي في «صفة الصفوة»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: رأيت رسول الله ﷺ واضعاً يديه على مَعْرِفَةِ فرس، وهو يكلم رجلاً، قلت: رأيتك واضعاً يديك على مَعْرِفَةِ فرس «دحية الكلبي» وأنت تكلمه، قال: «ورأيت؟» قالت: نعم، قال: «ذاك جبريل عليه السلام» وهو يقرئك السلام»، قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، جزاه الله خيراً من صاحب ودخيل، فنعم الصاحب، ونعم الدخيل - أي: الضيف -^(٢).

وروى «المحب الطبري» عنها رضي الله عنها قالت: وثب رسول الله ﷺ وثبة شديدة، فنظرتُ فإذا رجل معه واقف على بردون، وعليه عمامة بيضاء، طرفها بين كتفيه، ورسول الله ﷺ واضع يده على مَعْرِفَةِ بردون، فقلت: يا رسول الله! لقد راعني وثبتك، من هذا؟ قال: «أرأيت؟» قلت: نعم، قال: «ومن رأيت؟» قلت: «دحية»، قال: «ذاك جبريل» أخرجه صاحب الصفوة.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ قائم يصلي في بيت «عائشة» رضي الله عنها رأت رجلاً عليه كذا وكذا، لا تدري من هو.

قال: فأخبرت النبي ﷺ بذلك، فلبس ثيابه ﷺ وخرج إليه، فإذا هو

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٧/١٣٩).

(٢) مسند أحمد (٢٣٣٢٢).

«جبريل» ﷺ فقال له: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا بول ولا تماثيل، قالت: فدخل النبي ﷺ فأخذ الكلب ورمى به، ودخل عليه «جبريل» ﷺ. أخرجه ابن شاهين.

وعن عائشة رضي الله عنها -: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب، دخل المغتسل ليغتسل، فجاء «جبريل» ﷺ - فقال: لقد وضعت السلاح، ما وضعنا أسلحتنا بعد.

قالت عائشة رضي الله عنها: كآني أنظر إلى «جبريل» ﷺ من خلل الباب، قد عَقَبَ رأسه الغبار^(١).

وأخرج «المحب الطبري» في سمطه الثمين أيضاً؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي من رسول الله ﷺ تقلَّب رسول الله ﷺ فوضع نعليه عن رجله، ووضع رداءه وسط إزاره على فراشه، فلم يلبث إلا ريثما ظنَّ أنني قد رقدت، ثم انتقل رويداً وأخذ رداءه رويداً، ثم فتح الباب، وخرج أو جافه - أغلقه - رويداً، فجعلت درعي في رأسي، ثم تقنعت بإزاري، فانطلقت في إثره حتى أتى البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات، فأطال القيام، ثم انحرف فأسرع، فأسرعت، فهرول فهرولت، فأخفر فأخفرت، فسبقته، فدخلته، فليس إلا أن اضطجعت دخل، فقال: «مالك؟ يا عائشة!» قلت: لا شيء.

قال: «لتخبرني أو يخبرني اللطيف الخبير؟» قلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! فأخبرته الخبر، فقال: «أنت السواد الذي رأيت أمامي؟» قلت: نعم، قالت: فلهزني - أي: دفعني بجمع كفه في صدري - في صدري لهزة أوجعتني، ثم قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟».

قالت: فقلت: مهما يكتم الناس فقد علمه الله.

قال: «فإن «جبريل» أتاني حين رأيت، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، فناداني فأخفى منك، فأجبته فأخفيتُ منك، وظننتُ أنك قد رقدت، وكرهتُ أن أوقظك، وخشيتُ أن تستوحشي، فأمرني أن آتي أهل البقيع فاستغفر

لهم»، قلت: كيف أقول؟ يا رسول الله! قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ورحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون». أخرجه بهذا السياق أبو حاتم، ومعناه متفق عليه^(١).

وكان ﷺ يحث «عائشة» رضي الله عنها على أنواع من البر، فقد روى «المحب الطبري» عنها، قالت: دخل رسول الله ﷺ فرأى كسرة - قطعة خبز - ملقاة، فمشى، ثم قال: «يا عائشة! أحسني جوار نعم الله، فإنها قل ما تفوت عن أهل بيت، فكادت ترجع إليهم».

وعن أنس رضي الله عنه - قال: دخل رسول الله ﷺ على «عائشة» رضي الله عنها، وهي موعوكة، فقال ﷺ: «مالي أراك هكذا؟» قالت: بأبي أنت وأمي! الحمى، وسببها، فقال: «يا عائشة! لا تسيها فإنها مأمورة، وإن شئت علمت كلمات إذا قلتيهن أذهب الله عنك»، قالت: بلى، يا رسول الله! قال: «قولي: اللهم! ارحم جلدي الرقيق، وعظمي الدقيق، من شدة الحريق، يا أمّ مِلْدَم! - كنية الحمى - إن كنتِ آمنَتِ بالله العظيم فلا تُصدّعي عليّ الرأس، ولا تغيّري الضم، ولا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، وتحولّي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر»، قالت: فقلتها فذهبت عني. أخرجه السرخسي^(٢).

أما عن روايتها لحديث رسول الله ﷺ، فقد ذكر «الصالحى» رحمه الله في كتابه «أزواج النبي ﷺ»: روي لها عن رسول الله ﷺ ألفا حديث، ومائتا حديث، وعشرة أحاديث (٢٢١٠)، اتفق البخاري ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، ومسلم بثمانية وستين، وروى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين -^(٣).

وشملت سعة علمها الفرائض، والحلال والحرام، والفقه، وحديث العرب، والشعر، والخطابة والفصاحة، وفوق ذلك، فقد عَجِبَ ابن أختها «عروة بن الزبير» من علمها بالطب، فقد روى الإمام أحمد عن عروة أنه كان يقول لعائشة:

(١) السمت الثمين (٩٣).

(٢) السمت الثمين (٩١، ٩٢).

(٣) الصالحى (١٢٥) وتهذيب النووي (٣٥١/٢) وسير الذهبى (١٣٩/٢).

يا أمتاه! لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ وابنة «أبي بكر»، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول ابنة «أبي بكر» وكان أعلم - أو من أعلم - الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو؟ وأين هو؟ قال: فضربت على منكبه: أي عُرْيَّة! إن رسول الله ﷺ كان يَسْقَم - وفي لفظ: كثرت أسقامه عند آخر عمره - فكانت تقدم عليه وفود العرب في كل وجه، فتنتعت له الأنعات - وفي لفظ: فكانت أطباء العرب والعجم ينعته - وكنت أعالجها فَمِنْ ثَمَّ (١).

وأما الفصاحة، فقد روى الطبراني برجال الصحيح عن موسى بن طلحة، قال: ما رأيت أحداً كان أفصح من عائشة (٢).

وأما الخطابة، فقد روى الطبراني عن معاوية، قال: والله! ما رأيت خطيباً قط أبلغ ولا أفصح ولا أفطن من «عائشة» (٣).

وروى الإمام أحمد في الزهد والحاكم في المستدرک، عن الأحنف بن قيس، قال: سمعت خطبة «أبي بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» والخلفاء هلمجرأ إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم، ولا أحسن منه من في «عائشة» (٤).

وقد استقلت ﷺ بالفتوى زمن «أبي بكر» و«عمر» و«عثمان» وهلمجرأ.

وروى ابن أبي خيثمة، عن سفيان بن عيينة، قال: قال «معاوية بن أبي سفيان»: يا زياد! أي الناس أعلم؟ قال: أنت، يا أمير المؤمنين! قال: أغرم عليك، قال: أما إذا عَزَمْتُ عليّ، فعائشة (٥).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن جريج، قال: سمعت عطاء يخبر، قال: أخبرني «عروة بن الزبير»، قال: كنتُ أنا وابنُ عمر مستدين إلى

(١) مسند أحمد (٦٧/٦) والطبراني في الكبير (١٨٢/٢٣) والصالحي (١٢٤).

(٢) الطبراني في الكبير (١٨٢/٢٣).

(٣) المعجم الكبير (١٨٣/٢٣) وليس فيه: ولا أفصح، ولكنها عند الهيثمي في المجمع (٢٤٣/٩).

(٤) المستدرک (١١/٤) والصالحي (١٢٤).

(٥) المستدرک (١٤/٤) والصالحي (١٢٥).

حجرة «عائشة» ﷺ، وإنا لنسمع ضربها بالسواك تَسْتَنُّ - أي: تستاك -، قال: فقلت: يا أبا عبد الرحمن! أعتمر النبي ﷺ في رجب؟ قال: نعم، فقلت لعائشة: أي أمته! ألا تسمعين ما يقول «أبو عبد الرحمن؟» قالت: وما يقول؟ قلت: يقول: أعتمر النبي ﷺ في رجب، فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمرى! ما أعتمر في رجب، وما أعتمر من عمرة إلا وإنه لمعه.

قال: وابن عمر يسمع، فما قال: لا، ولا نعم، سكت^(١).

وأما الحياء، فكانت السيدة «عائشة» ﷺ شديدة الحياء، ولم يقتصر حياؤها على الأحياء، بل شَمِلَ الأموات أيضاً، فقد أخرج «المحب الطبري» في «سمطه الثمين»؛ عن عائشة ﷺ قالت: كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي ﷺ واضعة ثوبي، وأقول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن «عمر» ﷺ، والله! ما دخلته إلا مشدودة عليّ ثيابي حياء من «عمر» ﷺ، أخرجته يحيى بن معين^(٢).

الله الله يا أم المؤمنين! ما أعظم حياءك! وما أشد طهرك ونقاءك! أتشددين عليك ثيابك حياء من «عمر»، المغيب عنك تحت التراب والحجر؟ ألم يستح المرجفون الذين قذفوك يوم الإفك العظيم؟ ألم يخجل الأفاكون الذين خاضوا في سمعتك، فخلّفوك في كرب أليم؟ ألم يعلموا أنك الدرة المكنونة التي أرادها الله تعالى زوجاً لحبيه في دار النعيم؟

تبّاً لهم من مجرمين آثمين، وويل لهم يوم العرض على رب العالمين!، وذلك ممّا اجتروحوا بحق أطهر الطاهرات، وأحصن المحصنات، عليها أسبغ الرحمات.

وأما الكرم، فهي السخية الأولى بين النساء، من غير جدل ولا مراء، وقد روى «المحب الطبري» في «السمط الثمين» وابن الجوزي في «صفة الصفوة» عن محمد بن المنكدر، عن أم ذرة، وكانت تغشى عائشة ﷺ قالت: بعث إليها «ابن

(١) صحيح مسلم (١٢٥٥/٢١٩) والصالحي (١٢٦).

(٢) السمط الثمين (١١٧).

الزبير» بمال في غرارتين، قالت: أراه ثمانية ومائة ألف، فدعت بطبق، وهي يومئذ صائمة، فجلست تقسمه بين الناس، فأمت وما عندها من ذلك درهم، فلما أمت قالت: هلمي يا جارية فطوري! فجاءت بخبز وزيت، فقالت لها «أم ذرة»: أما استطعت بما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت لها: لا تعفيني، لو كنت ذكرتني لفعلت^(١). أخرجه في صفة الصفوة، وأخرجه «أبو معاوية» وقال: بلغ ثمانين ومائة ألف على القطع^(١).

وأخبارها في هذا الباب كثيرة تعزُّ على الحصار والاستقصاء، وقد ضاق ابن أختها أسماء «عبد الله بن الزبير» بتصرفاتها، وكثرة إنفاقها، فأقسم ليحجرن عليها إن لم تنته عن هذا السلوك، فأبلغت بمقالته، فنذرت لهجرته، وشقَّ هجرها على ابن أختها، فاستشفع إليها، وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب الهجرة، وقول النبي ﷺ: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، فقال: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: حدثني عوف بن مالك بن الطفيل، هو ابن الحارث، وهو ابن أخي «عائشة» زوج النبي ﷺ لأمها أن «عائشة» ﷺ حَدَّثَتْ: أن «عبد الله بن الزبير» قال في بيع أو عطاء أعطته «عائشة»: والله! لتنتهين «عائشة» أو لأخجرنَّ عليها، فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله عليّ نذر، ألا أكلم «ابن الزبير» أبداً، فاستشفع «ابن الزبير» إليها، حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله! لا أشفع فيه أبداً، ولا أتحنَّث إلى نذري - أي: لا أخالف نذري -.

فلما طال ذلك على «ابن الزبير»، كلم «المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ» و«عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث»، وهما من بني زُهْرَةَ، وقال لهما: أنشدُكُمَا باللَّهِ لَمَّا أدخلتُماني على «عائشة»، فإنها لا يحل لها أن تنذِرَ قطيعتي، فأقبل به «المِسور» و«عبد الرحمن» مشتملين بأرديتهما، حتى استأذنا على «عائشة»، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت «عائشة»: ادخلوا، قالوا: كُلُّنَا؟ قالت: نعم، ادخلوا كُلُّكُم، ولا تعلم أن معهما «ابن الزبير»، فلما دخلوا دخل «ابن

(١) السمت الثمين (١١٣) والصالحى (١٢٧) وصفة الصفوة (٢/٢٩، ٣٠) والطبقات (٨/٦٧) وحلية الأولياء (٢/٤٧).

الزبير» الحجاب، فاعتنق «عائشة» وطفق - أخذ وشرع وجعل - يناشدها ويبكي، وطفق «المسور» و«عبد الرحمن» يناشدونها إلا ما كلمته، وقبلت منه، ويقولان: إن النبي ﷺ نهى عما قد علمت من الهجرة، فإنه «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال».

فلما أكثروا على «عائشة» من التذكرة والتحريج، طفقت تذكرهما، وتبكي وتقول: إني نذرت والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت «ابن الزبير»، وأعتقت في نذرهما ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرهما بعد ذلك، فتبكي حتى تبلى دموعها خمارها^(١).

وكان مما يشهد على فضلها واحترام الأمراء لمكانتها ما أخرجه «المحب الطبري» في «سمطه الثمين» والإمام البخاري في صحيحه، عن يوسف بن ماهك، قال: كان «مروان» على الحجاز، استعمله «معاوية»، فخطب، فجعل يذكر «يزيد بن معاوية» لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له «عبد الرحمن بن أبي بكر» شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت «عائشة» فلم يقدروا، فقال «مروان»: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي﴾ [الأحقاف، الآية: ١٧]، فقالت «عائشة» من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري^(٢).

وقيل: لما أراد «معاوية بن أبي سفيان» أخذ البيعة لابنه «يزيد» أباهما عليه «عبد الرحمن» وقال: «أهرقلي؟ كلما مات قيصر قام قيصر مقامه؟ لا نفعل هذا والله! أبداً»، فبعث إليه «معاوية» بمائة ألف درهم، فردّها ﷺ وقال: «لا أبيع ديني بدنياي».

إن «عبد الرحمن» و«عائشة» من آل أبي بكر، وأمهما «أم رومان»، فهل في الناس لهما من نظير؟.

وخرجت ﷺ مع رسول الله ﷺ والمسلمين إلى أحد لتسقي الجرحى

(١) صحيح البخاري (٥٧٢٥).

(٢) البخاري (٤٥٥٠).

وتضمند جراحهم، ولم تأل جهداً.

وكان أجل مصاب دُهِيتَ به أم المؤمنين «عائشة» ﷺ يوم رحل عنها النبي ﷺ والتحق بالرفيق الأعلى، وكان عمرها - يومئذ ﷺ ثمانية عشر عاماً.

وقبل أن يسلم الروح الطاهر، خالط ريقه ريقها، فقد روى البخاري، عن الزهري، قال: أخبرني «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن معبود»: أن «عائشة» ﷺ زوج النبي ﷺ، قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذن له^(١).

وروى البخاري، عن نافع: سمعت «ابن أبي مليكة»، قال: قالت عائشة ﷺ: توفي النبي ﷺ في بيتي، وفي نوبتي، وبين سحري ونحري، وجمع الله بين ريقَي وريقه.

قالت: دخل «عبد الرحمن» - أي: أخوها - بسواك، فضعف النبي ﷺ عنهن، فأخذته، فمضغته، ثم سنننه به - أي سوكت النبي ﷺ به -^(٢).

وفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين - على الصحيح عند الأكثرين - لبّت نداء ربها، لتلحق بحبها سيد البشر ﷺ، ودفنت في البقيع بوصاة منها، وصلى عليها «أبو هريرة» رحمها الله تعالى رحمة واسعة، وجزاها عن أمة «محمد» ﷺ الجزاء الأوفى.

(١) البخاري (٢٩٣٢).

(٢) البخاري (٢٩٣٣).

٤ - السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

كانت «حَفْصَةُ بنت عمر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَّاح بن عديّ بن كعب بن لؤي»، وأما تدعى «زَيْنَب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح»، وهي أخت «عبد الله بن عمر» لأبويه رضي الله عنهما، وأكبر منه سنًا. وقد تزوجت «خُنَيْس بن حذافة» السهمي.

وهاجرت «حَفْصَةُ» مع زوجها إلى المدينة، وقد شهد «خُنَيْس» بدمًا وأصابته جراحة يومئذ لم يلبث أن توفي منها، وقيل: بل بأحد، والأول أشهر، وهو خطأ كما قال الحلبي في سيرته ^(١).

وقال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: فلما تأيَّمت ذكرها «عمر» لأبي بكر، وعرضها عليه، فلم يُرجع إليه «أبو بكر» كلمة، فغضب من ذلك «عمر»، ثم عرضها على «عثمان» حين ماتت «رقية» بنت رسول الله ﷺ، فقال «عثمان»: ما أريد أن أتزوج اليوم.

فانطلق «عمر» إلى رسول الله ﷺ، فشكا إليه «عثمان» وأخبره بعرض «حفصة» عليه، فقال رسول الله ﷺ: «يتزوج «حفصة» من هو خير من «عثمان»، ويتزوج «عثمان» من هي خير من «حفصة»»، ثم خطبها إلى «عمر» فتزوجها رسول الله ﷺ، فلَقِيَ «أبو بكر»، «عمر بن الخطاب»، فقال له: لا تَجِدْ عليَّ في نفسك، فإن رسول الله ﷺ كان ذكر «حَفْصَةَ»؛ فلم أكن لأُقْشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوّجُها.

وتزوجها رسول الله ﷺ، عند أكثرهم في سنة ثلاث من الهجرة، وقال أبو عبيدة: تزوجها سنة اثنتين من التاريخ ^(٢).

(١) السيرة الحلبي (٤٠٢/٣).

(٢) الاستيعاب (١٨١١/٤) والإصابة (٢٤٦٩/٤).

أما رواية «المحب الطبري» في «المط الثمين» فقد جاء فيها: عن عمر: تأيمت «حفصة بنت عمر» رضي الله عنه من «خُنيس بن حذافة» الهمي وكان أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا، فتوفي بالمدينة.

قال عمر: فلقيت «عثمان بن عفان» رضي الله عنه فعرضت عليه «حفصة» فقلت: إن شئت أنكحتك «حفصة»، فقال: سأنظر في ذلك، فلبث ليالي، فلقيني، فقال: ما أريد أن أتزوج يومي هذا.

قال عمر رضي الله عنه، فلقيت «أبا بكر الصديق» فقلت: إن شئت أنكحك «حفصة»، فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت أوجد عليه مني على «عثمان»، فلبث ليالي، فخطبها رسول الله ﷺ، فأنكحها إياه، فلقيني «أبو بكر»، فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي «حفصة» فلم أرجع إليك شيئاً!

قال: قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك شيئاً حين عرضتها علي، إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لنكحتها^(١).

وعن سعيد بن المسيب، قال: أم «عثمان» رضي الله عنه من «رقية» بنت رسول الله ﷺ، وأمّت «حفصة بنت عمر بن الخطاب» رضي الله عنه من زوجها، فمر «عمر» بـ«عثمان» رضي الله عنه فقال: هل لك في «حفصة»، وكان «عثمان» رضي الله عنه قد سمع النبي ﷺ يذكرها فلم يجبه، فذكر ذلك «عمر» رضي الله عنه للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هل لك في خير من ذلك؟ أتزوج أنا «حفصة» ويتزوج «عثمان» خيراً منها: «أم كلثوم». أخرجه أبو عمر وقال: حديث صحيح^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد أسرّ إلى «حفصة» رضي الله عنها بسرّاً، واستكتمها إياه، إلا أنها أخبرت به صاحبته «عائشة» رضي الله عنها وكانتا متصادقتين، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ١١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٢ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ

(١) المط الثمين (١٢٥، ١٢٦).

أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِثْلَ مُؤْمِنَتٍ قَبِلَتْ نَيْبَتِ عِدَّتِ سَحَابٍ نِيَبَتِ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾ [التخريم، الآيات: ١-٥] .

وأخرج العلامة «الآلوسي» في تفسيره القيم «روح المعاني» لهذه الآيات: روى البخاري، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند «زينب بنت جحش» ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا و«حفصة» إن آتينا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير؟ فدخل على إحداهما، فقالت ذلك له، فقال: «لا بل شربت عسلاً عند «زينب بنت جحش» ولن أعود» .

وفي رواية: «وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التخريم، الآية: ١] الخ .

وفي رواية: قالت «سودة»: أكلت مغاير؟ قال: «لا»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني «حَفْصَةُ» شربة عسل»، فقالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطُ، فحرَّم العسل، فنزلت .

وفي حديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها: شرب العسل في بيت «حَفْصَةَ»، والقائلة «سودة» و«صفية» .

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، قال الحافظ السيوطي، بسند صحيح عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ شرب من شراب عند «سودة» من العسل، فدخل على «عائشة» فقالت: إني أجد منك ريحاً فدخل على «حَفْصَةَ»، فقالت: إني أجد منك ريحاً، فقال: «أراه من شراب شربته عند «سودة» والله! لا أشربه» فنزلت .

وأخرجه النسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه، عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به «عائشة» و«حَفْصَةُ» حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التخريم، الآية: ١] .

ويوافقه ما أخرجه البزار، والطبراني بسند حسن صحيح، عن ابن عباس، قال: نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التَّحْرِيم، الآية: ١] الآية في سُرِّيَّتِهِ.

والمشهور أنها «مارية» وأنه عليه الصلاة والسلام وطنها في بيت «حفصة» في يومها، فوجدته وعاتبته فقال ﷺ: «ألا ترضين أن أُحَرِّمَهَا فلا أقربها؟»، قالت: بلى، فحَرَّمَهَا.

وفي رواية: أن ذلك كان في بيت «حَفْصَة» في يوم «عائشة».

وفي «الكشاف» روي أن رسول الله ﷺ خلا بمارية يوم «عائشة» وعلمت بذلك «حَفْصَة»، فقال لها: «اكتمي عليّ وقد حرَّمت «مارية» على نفسي، وأبشرك أن «أبا بكر» و«عمر» يملكان بعدي أمر أمتي»، فأخبرت «عائشة» وكانتا متصادقتين.

وبالجملة الأخبار متعارضة، وقد سمعت ما قيل فيها، لكن قال «الخفاجي»: قال «النوي» في شرح «مسلم»: الصحيح أن الآية في قصة العسل، لا في قصة «مارية» المروية في غير الصحيحين، ولم تأت قصة «مارية» في طريق صحيح، ثم قال «الخفاجي»، نقلاً عنه أيضاً: الصواب أن شرب العسل كان عند «زينب» ؓ.

وقال «الطبي» فيما نقلناه عن «الكشاف» ما وجدته في الكتب المشهورة، والله أعلم.

والمَغَافِير: بفتح الميم والغين المعجمة وبياء بعد الفاء - على ما صَوَّبَهُ القاضي عياض - جمع مُغْفُور بضم الميم: شيء له رائحة كريهة ينضحه العُرْفُطُ، وهو شجر أو نبات له ورق عريض، وعند المطلع أن العُرْفُطُ هو الصمغ، والمُغْفُور شوك له نُور يأكل منه النحل يظهر العُرْفُطُ عليه، وكان ﷺ يحب الطبيب جيداً، ويكره الرائحة الكريهة للطافة نفسه الشريفة، ولأن المَلَكَ يأتيه، وهو يكرهها فَشَقَّ عليه ﷺ ما قيل فجرى ما جرى.

وفي ندائه ﷺ يا أيها النبي - في مفتتح العتاب من حسن التلطف به، والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمَ﴾ [التوبة، الآية: ٤٣] ، والمراد بالتحريم الامتناع، وبما أحل الله العسل على ما صححه «النووي» رحمته الله أو وُظِّعَ سُرِّيَّتُهُ على ما في بعض الروايات، ووجه التعبير - بما - على هذين التفسيرين ظاهر^(١).

ثم نقل «الآلوسي» عن ابن مردويه، عن ابن عباس، وابن أبي حاتم، عن مجاهد أن النبي ﷺ أَسَرَ إلى «حَفْصَةَ» تحريم «مارية» وأن «أبا بكر» و«عمر» يلبان الناس بعده، فَأَسَرَّتْ ذلك إلى «عائشة» فَعَرَفَ بعضه وهو أمر «مارية» وأعرض عن بعض، وهو أن «أبا بكر» و«عمر» يلبان بعده مخافة أن يفشو، وقيل: بالعكس، وقد جاء إسرار أمر الخلافة في عدة أخبار، فقد أخرج ابن عدي، وأبو نعيم في فضائل «الصدِّيق» وابن مردويه من طرق، عن «علي» كرم الله وجهه، وابن عباس قالاً: إن إمارة «أبي بكر» و«عمر» لفي كتاب الله ﷻ وَإِذْ أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا [التخريم، الآية: ٣] قال لِحَفْصَةَ: «أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي، فإياك أن تخبري أحداً»^(٢).

ثم قال «الآلوسي»: وقصارى ما يمكن أن يقال: يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد شرب عملاً عند «زينب» كما هو عادته، وجاء إلى «حَفْصَةَ» فقالت له ما قالت فحرم العسل، واتفق له عليه الصلاة والسلام - قبيل ذلك أو بعينه - أن وطئ جاريته «مارية» في بيتها، في يومها، على فراشها، فوجدت فحرم ﷺ «مارية» وقال لِحَفْصَةَ ما قال تطبيقاً لخاطرها، واستكتمها ذلك فكان ما كان، ونزلت الآية بعد القستين فاقصر بعض الرواة على إحداهما والبعض الآخر على نقل الأخرى، وقال كل: فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ﴾ [التخريم، الآية: ١] إلخ، وهو كلام صادق، إذ ليس فيه دعوى كل حصر علة النزول فيما نقله، فإن صح هذا هان أمر الاختلاف، وإلا فاطلب لك غيره، والله تعالى أعلم^(٣).

وبناء على ما صنعه «حَفْصَةُ» وأخواتها من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - قرر رسول الله ﷺ اعتزال أزواجه جميعاً. ومكث ﷺ بعيداً عنهن تسعة

(١) روح المعاني (٢٨/١٤٦، ١٤٧).

(٢) و(٣) روح المعاني (٢٨/١٥١).

وعشرين يوماً، لا يجرؤ أحد من أصحابه على محادثته بشأنهن، وسرى همس بين المسلمين مفاده أن النبي ﷺ طلق أزواجه، فاكتأب المسلمون لذلك وغشيهم الأسى الشديد مواساة لرسول الله ﷺ في حزنه.

يَبْدُ أن «عمر» ؓ لا يستطيع أن يلتزم الصمت في مثل هذه الظروف، ولا بد له أن يستجلي حقيقة ما جرى من فم الصادق المصدوق دون سواه، فتوجّه ليسأله عن مدى صحة ما يقال عن طلاقه لنسائه أو أن الأمر على خلاف ذلك.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، قال: دخل «أبو بكر» يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، فدخل، ثم أقبل «عمر» فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً - اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام -.

قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحكُ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت «بنت خارجه»! سألتني النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هن حولي كما ترى» يسألني النفقة.

فقام «أبو بكر» إلى «عائشة» يَجَأُ عنقها، فقام «عمر» إلى «حفصة» يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تَسْأَلُنْ رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ وَلَئِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩]، قال: فبدأ بعائشة، فقال: «يا عائشة! إني أريد أن أعرض عليك امرأة أحب ألا نمجلي فيه حتى تستشيرني أبويك» قالت: وما هو؟ يا رسول الله! فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله! أَسْتَشِيرُ أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنئاً ولا متعنئاً - المعنئ: المشدد على الناس، والمتعنئ: الذي يطلب زلتهم -، ولكن بعثني معلماً ميسراً»^(١).

وروى مسلم أيضاً عن زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك؛ أبي زُمَيْل، حدثني عبد الله بن عباس، حدثني «عمر بن الخطاب»، قال: لما اعتزل نبيُّ الله ﷺ نساءه، قال: دخلتُ المسجد، فإذا الناس يَنكُتون بالحصى - يضربون به الأرض -، ويقولون: طَلَّقَ رسولُ الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب.

فقال «عمر»: فقلت: لأَعْلَمَنَّ ذلك اليوم، قال: فدخلتُ على «عائشة»، فقلتُ: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسولَ الله ﷺ؟ فقالت: مالي ومالك؟ يابن الخطاب! عليك بعيتك - تعني ابنته «حَفْصَة» رضي الله عنها.

قال: فدخلتُ على «حَفْصَة» بنتِ عمرَ فقلتُ لها: يا حَفْصَة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسولَ الله ﷺ، والله! لقد علمتُ أن رسولَ الله ﷺ لا يحبكِ، ولولا أنا لطلقك رسولُ الله ﷺ، فبكت أشد البكاء، فقلتُ لها: أين رسولُ الله ﷺ؟ قالت: هو في خِزانته - مخزنه - في المَشْرُبَة - الغرفة -، فدخلتُ، فإذا أنا برِباحٍ غلامِ رسولِ الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَة المَشْرُبَة عتبة الباب السفلى - مُدَلِّ رجله على نَقِيرٍ - خشبٍ نقر وسطه ليكون كالدرجة - من خشب، وهو جذعٌ يرقى عليه رسولُ الله ﷺ وينحدر، فناديتُ: يا رباح! استأذن لي عندك على رسولِ الله ﷺ، فنظر «رباح» إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئاً.

ثم قلتُ: يا رباح! استأذن لي عندك على رسولِ الله ﷺ، فنظر «رباح» إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئاً، ثم رفعت صوتي، فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسولِ الله ﷺ، فإني أظن أن رسولَ الله ﷺ ظن أنني جئت من أجل «حَفْصَة»، والله! لئن أمرني رسولُ الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعتُ صوتي، فأوماً إليّ أن ارفقه.

فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلستُ، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسولِ الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعيرٍ نحو الصاع، ومثلها قَرظاً - ورق السَلَمِ يُدْبَغُ به - في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ - جلد لم يدبغ - معلق.

قال: فابتدرت عيناى - سألت دموعي -، قال: «ما يبكيك؟ يابن الخطاب!»

قلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصر قد أثر في جنبك، وهذه خزانة لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك «قيصر» و«كسرى» في الشمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانة.

فقال: «يا بن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت: بلى.

قال: ودخلت عليه حين دخلت، وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته و«جبريل» و«ميكائيل»، وأنا و«أبو بكر» والمؤمنون معك، وقلما تكلمت، وأحمد الله، بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قلبي الذي أقول.

ونزلت هذه الآية، آية التخيير^(١): ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ﴾ [التخريم، الآية: ٥] ، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التخريم، الآية: ٤] .

وكانت «عائشة بنت أبي بكر» و«حفصة» تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أطلقتهن؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد، والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: «نعم، إن شئت»، فلم أزل أحدثه حتى تحسّر الغضب عن وجهه، وحتى كثر - أبدى أسنانه تبسماً - فضحك، وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبّث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمهّ بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «إن الشهر يكون تسعاً وعشرين» فقامت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء، الآية: ٨٣] ، فكنت أنا

(١) آية التخيير ليست هذه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ﴾ الواردة في سورة التخريم، ولكنها الآية ٢٨ من سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزْنُوا﴾ كما هو مبين في الحديث (١٤٧٥/٢٢)، لذا اقتضى التنويه، وسأذكر الحديث بعد صفحة واحدة.

استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله ﷻ آية التخيير^(١).

وأخرج مسلم آية التخيير في الحديث التالي الذي رواه عن ابن شهاب، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف؛ أن «عائشة» رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «إني ذاكرك لأمرأ، فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك».

قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله ﷻ قال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِذْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبْتَهُمَا فَعَلَّيْنِ أَمْتَعَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِذْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩) [الأحزاب، الآيات: ٢٨، ٢٩].

قالت: فقلت: في أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت^(٢).

وكانت «حفصة» رضي الله عنها قلبها عامر بالإيمان، مشغوف بالجهاد، وقد شهد غزوة بدر من أهلها: أبوها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وعمها «زيد بن الخطاب» رضي الله عنه وزوجها «خنيس بن حذافة» رضي الله عنه، وأخوالها «عثمان» و«عبد الله» و«قدامة» بنو مظعون، و«السائب بن عثمان بن مظعون» ابن خالها رضي الله عنه، ذكره «المحب الطبري» في «السمط الثمين» وعزاه للدارقطني^(٣).

وقد تعلمت «حفصة» رضي الله عنها القراءة والكتابة، وكانت «الشفاء بنت عبد الله» العدوية تزورها، وحين رآها رسول الله ﷺ عندها قال لها: «علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة»، وكانت السيدة «عائشة» والسيدة «أم سلمة» تقرأ القرآن، لكنهما لا تعرفان الكتابة، وقد أکبت «حفصة» على تعلم القرآن والسنة حتى أصبحت مرجعاً فقهياً هاماً، وكان والدها «عمر» رضي الله عنه يرجع إليها في المسائل التي تتعلق بفقه المسلمات، ولم يكن علم «عمر» بقليل، ويدل ذلك على سعة

(١) صحيح مسلم (١٤٧٩/٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٥/٢٢).

(٣) السمط الثمين (١٢٩).

اطلاعها، وحسن فهمها لأحكام الدين القويم، وقد تركت لنا العديد من الخطب والأقوال الدالة على فصاحتها وبلاغتها.

ولما جئش «أبو بكر الصديق» الجيوش لقتال المرتدين، قتل كثير من القراء وحفظه القرآن في تلك المعارك، فجاءه «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، وعرض عليه جمع القرآن من الرُّقْم والجلود والسَّعَف والعظام التي كتبت آياته عليها، فراقت الفكرة لأبي بكر، واستدعى كاتب الوحي «زيد بن ثابت» رضي الله عنه، وأسند إليه تلك المهمة الجليلة.

ولم يأل «زيد» جهداً في جمع كل الأشياء التي كان القرآن يكتب عليها، ثم نسخها في صحيفة واحدة، وأودعها «أبا بكر» رضي الله عنه، وحين حضرته الوفاة عهد بها إلى «عمر» رضي الله عنه، فأعطاهَا ابنته «حفصة» لتكون الحارسة الأمانة عليها رضي الله عنها.

وفي عهد «عثمان بن عفان» رضي الله عنه خرج «حذيفة بن اليمان»، إلى أرمينية وأذربيجان مجاهداً، فرأى اختلافاً بيناً في القراءات بين الأقطار التي دخلها، ولما عاد عرض الأمر على الخليفة، فاستدعى «عثمان» رضي الله عنه أربعة من أهل الفصاحة والعلم والثقة، وهم: «زيد بن ثابت» و«عبد الله بن الزبير» و«سعيد بن العاص» و«عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» ثم أرسل إلى أم المؤمنين «حَفْصَة بنت عمر» لتعيّره الصحيفة التي لديها، على أن يعيدها بعد أن تنجز اللجنة عملها إليها، ثم أوصى اللجنة بكتابة القرآن في نسخ موحدة، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء فليكتبوه، بلسان قريش لأن القرآن نزل بلسانها، فلما أتمت اللجنة عملها، احتفظ «عثمان» رضي الله عنه بنسخة، ثم أمر ببقية النسخ لتُوزَّع على الأمصار، وأمر برد صحيفة «حَفْصَة» إليها، فجزى الله كل من أسهم في ذلك العمل الجليل عن المسلمين كل خير.

وكانت «حَفْصَة» رضي الله عنها ممن يروي الحديث ويروى عنها، لأنها واحدة من أمهات المؤمنين اللواتي كن يتلقين الحديث الشريف غصاً طرياً من الحبيب الأعظم ﷺ بحكم قربه منهن، ووجوده بينهن.

وقد ذكر الإمام النووي في تهذيبه أن «حَفْصَة» رضي الله عنها روت ستين حديثاً، عن النبي ﷺ، روى لها البخاري منها ثلاثة أحاديث، وقيل: أربعة، كما روى لها

مسلم ستة منها^(١)، وكان أخوها «عبد الله بن عمر» رضي الله عنه كثير التردد عليها ليسألها عن هدي رسول الله ﷺ أو ليروي عنها. وكان «حمزة» ابن أخيها «عبد الله» و«حارثة بن وهب» و«المسيب بن رافع» و«عبد الله بن صفوان بن أمية» و«أم مبشر» و«صفية بنت أبي عبيد» امرأة «عبد الله بن عمر» ممن رويوا عنها.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه حديث الرؤيا التي رآها «عبد الله بن عمر» وقصها على أخته «حَفْصَة»، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، قال: رأيت في المنام كأن في يدي قطعة إستبرق - ما غلظ من الديباج -، وليس مكان أريد من الجنة إلا طارت إليه، قال: فقصصته على «حَفْصَة»، فقصته «حَفْصَة» على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أرى عبد الله رجلاً صالحاً»^(٢).

وروى مسلم عن معمر، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، قال: كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا، قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي ﷺ، قال: وكنت غلاماً شاباً عزياً، وكنت أنام في المجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم، كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال: فلقيهما ملك فقال لي: لَمْ تُرْعَ - أي: لا روع عليك ولا ضرر - فقصصتها على «حَفْصَة»، فقصتها «حَفْصَة» على رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «نعم الرجل «عبد الله!» لو كان يصلي من الليل».

قال «سالم»: فكان «عبد الله» بعد ذلك، لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

وكانت «حَفْصَة» رضي الله عنها برسول الله ﷺ، وبأبيها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، في الإعراض عن زخرف الحياة الدنيا ومتاعها، وقبست عنهما ضرورة العمل للدار الباقية، لا للدار الفانية، ومشت على خطى أبيها الذي سلك سبيل صاحبيه في الدنيا لأنوه لو حاد عن سبيلهما لما كان له في لقائهما في الآخرة نصيب، وحرصت على ذلك حتى فارقت الحياة.

(١) التهذيب للنووي (١/٣٣٩).

(٢) صحيح مسلم (١٣٩/٢٤٧٨).

(٣) صحيح مسلم (١٤٠/٢٤٧٩).

وكانت «حَفْصَة» رضي الله عنها من العابدات القانتات، نهارها صيام، وليلها قيام، وهذا دأبها في تقطيع الأيام، وقد أسدى لها والدها «عمر» رضي الله عنه نصيحة غالية، موجزها ألا تحاول مزاحمة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها على قلب رسول الله ﷺ، وألا تُساميها عنده، وكان يقول لها: أين أنت من «عائشة»؟ وأين أبوك من أبيها؟ فجعلت «حَفْصَة» تلك الوصاة العمرية نُضَبَ عينيها، ثم هداها فكرها إلى اتخاذ «عائشة» رضي الله عنها صديقة لها خير من منافستها، وهكذا صفا بينهما الود، واستحكم الصفاء.

وذات يوم، كان «عمر» في حديث مع امرأته، فإذا هي تعارضه، وترفع صوتها عليه، خلافاً لعهد به، ولما هَمَّ بتأديبها بادرته بقولها: إنك لا تسمح لأحد بمراجعتك، وهناك من هي أفضل مني، وتراجع من هو أفضل منك، عبارة لم يعتد «عمر» سماعها من قبل، فأمسك عما هَمَّ به، لأنه يريد أن يعرف من المقصود بمقاتلتها تلك، فقال لها: من المقصود بقولك؟ وإلى مَنْ تُشيرين؟ فقالت: إن ابنتك «حَفْصَة» لتراجع رسول الله ﷺ حتى إنه ليبقى مغضباً سائر يومه.

وصعق «عمر» رضي الله عنه لِمَا سمع، ولم يكن يدور في خلدته أن تصنع ابنته مثل ذلك مع رسول الله ﷺ، ولم يلبث أن وضع عليه ثيابه، ثم انطلق إلى بيت «حفصة» ليتبَّث من قول امرأته ويستوثق.

حتى إذا وگدَّت له «حَفْصَة» حدوث هذا في بعض الأحيان أخذته الدهشة، وعجب من ابنته ومن صواحبتها الأخريات، كيف يفعلن ما يفعلن، ولا يخشين من غضب الله عليهن انتصاراً لرسول الله ﷺ؟

ثم قال لحفصة رضي الله عنها: يا بنية! لا يَغُرُّكَ هذه - يقصد عائشة - التي قد أعجبها حسننها، وحب رسول الله ﷺ لها، ثم أردف يقول: لا تراجعني رسول الله ﷺ أو تسأليه، وسليني أنا كل ما بدا لك.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس، قال: لم أزل حريصاً أن أسأل «عمر» عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَوَّيْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ﴾

﴿قُلُوبُكُمْ﴾ [التخريم، الآية: ٤] ، حتى حَجَّ «عمر» وحجبتُ معه، فلما كُنَّا ببعض الطريق، عدل «عمر» وعدلتُ معه، بالإداوة، فتبرَّز، ثم أتاني فكبْتُ على يديه، فتوضَّأ، فقلت: يا أمير المؤمنين! من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله ﷻ لهما: ﴿إِنْ نُبَاَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التخريم، الآية: ٤] .

قال «عمر»: واعجباً لك يابن عباس! (قال الزهري: كره والله! ما سألته عنه ولم يكتبه).

قال: هي «حَفْصَة» و«عائشة»، ثم أخذ يسوق الحديث.

قال: كنا معشر قريش، قوماً نغلب النساء، لما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.

قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيد، بالعوالي - موضع قرب المدينة -، فتغضبتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فانطلقتُ فدخلتُ على «حَفْصَة»، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ فقالت: نعم، فقلت: أتتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلتُ: قد خاب مَنْ فَعَلَ ذلك منكَن وخمر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يَغُرَّنْكَ أَنْ كانت جارتك ضرتك - هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك (يريد عائشة).

قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك.

وكنا نتحدث أن «غسان» تَنْعِلُ الخيلَ - يجعلون لها نعلاً - لَتَغْرُونَا، فنزل صاحبي، ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجتُ إليه، فقال: حدث امرٌ عظيمٌ، قلت: ماذا؟ أجاءت «غسان»؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق النبي ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت «حَفْصَة» وخمرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليتُ الصبحَ، شددتُ عليَّ ثيابي، ثم نزلتُ، فدخلتُ على «حَفْصَة» وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا

معتزلاً في هذه المَشْرُبة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر، فدخل، ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرْتُكَ له فصَمَتَ.

فانطلقتُ حتى انتهيتُ إلى المنبر، فجلستُ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلستُ قليلاً، ثم غلبني ما أجد، ثم أتيتُ الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فدخل، ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرْتُكَ له فصَمَتَ، فولَّيتُ مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: أدخل، فقد أذن لك، فدخلتُ، فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رَمْلٍ حصير - أي: حصير منسوج - قد أثر في جنبه، فقلت: أطلَّقتُ يا رسول الله! نساءك؟ فرفع رأسه إليّ، وقال: «لا» فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا، يا رسول الله! وكنا معشر قريش، قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبتُ على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب مَنْ فَعَلَ ذلكَ منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ.

فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على «حفصة» فقلت: لا يُعزِّركَ أن كانت جارتك هي أوسمُ منك وأحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسَّم أخرى، فقلت: أستاذسُ؟ يا رسول الله! قال: «نعم»، فجلستُ، فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله! ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلَّا أهباً ثلاثة، فقلت: ادعُ الله يا رسول الله! أن يوسِّعَ على أمتك، فقد وسَّعَ على فارسَ والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، ثم قال: «أفي شك أنت؟ يا ابن الخطاب! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي، يا رسول الله! وكان أقسم ألا يدخلَ عليهن شهراً، من شدة مَوْجِدَتِهِ - أي: غضبه - عليهن، حتى عاتبه الله ﷻ. ^(١)

وأخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء» عن عقبة بن عامر، قيل: لما طَلَّق رسول الله ﷺ «حفصة بنت عمر»، فبلغ ذلك «عمر»، فوضع التراب على

رأسه، وجعل يقول: ما يعبأ الله بعمر بعد هذا، قال: فنزل «جبريل» ﷺ من الغد على رسول الله ﷺ، فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تراجع «حَفْصَةَ» رحمة لعمر^(١).

وروى «أبو نعيم» في حليته أيضاً، عن عاصم، عن زر، عن عمار بن ياسر، قال: أراد رسول الله ﷺ أن يطلق «حَفْصَةَ» فجاء «جبريل» فقال: لا تطلقها، فإنها صوامة قوامه، وإنها زوجتك في الجنة^(٢).

وروى «أبو نعيم» في حليته أيضاً، عن قيس بن زيد: أن النبي ﷺ طلق «حَفْصَةَ» بنت عمر فدخل عليها خالها «قدامة» و«عثمان» ابنا مظعون، فبكت، فقالت: والله! ما طلقني عن شبع.

وجاء النبي ﷺ، فتجلببت، فقال: «قال لي «جبريل»: أرجع «حَفْصَةَ» فإنها صوامة قوامه، وإنها زوجتك في الجنة»^(٣).

وأخرج المحب الطبري في سِمْطِهِ، عن الزهري، قال: أصبحت «عائشة» و«حَفْصَةَ» ﷺ - صائمتين، وأهدي لهما طعام فأكلتا منه، فدخل عليهما النبي ﷺ. قالت «عائشة»: فبدرتني - سبقتني - «حَفْصَةَ» - وكانت ابنة أبيها -، قالت: يا رسول الله! أهدي لنا طعام فأكلنا، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: صوما يوماً مكانه^(٤).

ولما حضرت «حَفْصَةَ» الوفاة، أوصت إلى «عبد الله» أخيها بما أوصى إليها «عمر»، وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة.

وأخرج «ابن سعد» في «الطبقات الكبرى»: توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة، وحمل سريرها بعض الطريق، ثم حملة «أبو هريرة» إلى قبرها، ونزل في قبرها: «عبد الله» و«عاصم» ابنا عمر، و«سالم» و«عبد الرحمن» و«حمزة» بنو «عبد الله بن عمر»،

(١) الحلية (٥٤/٢)، والسِمْطُ الثمين (١٢٨).

(٢) الحلية (٥٤/٢).

(٣) الحلية (٥٤/٢)، والسِمْطُ الثمين (١٢٧).

(٤) السِمْطُ الثمين (١٢٩).

وقد بلغت ستين سنة^(١)، وتوفيت في حين بايع «الحسن بن علي» رضي الله عنه لمعاوية في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، كما قال «أبو عمر بن عبد البر»^(٢). رحمها الله تعالى.

(١) الطبقات (٨/٨٦).

(٢) الاستيعاب (٤/١٨١٢).

٥ - السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» في ترجمته لها: «زينب بنت خزيمة»: أم المساكين، زوج النبي ﷺ، هي: «زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة» العامرية^(١).

وزاد «الصالحى» في «أزواج النبي ﷺ» بعد: عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان الهلالية^(٢).

وأما «هند بنت عوف» الكنانية، وقيل: الحميرية، ومن قال: الحميرية، قال: «هند بنت عوف بن الحارث بن حماسة بن جرش بن حمير» قالوا: وهي العجوز التي قيل فيها: أكرم الناس أصهاراً، وقد قيل: إن «زينب بنت خزيمة» الهلالية أختهن لأم، وقد قال ذلك «أبو عمر» في «الاستيعاب»^(٣).

واختلف في زواجها قبل رسول الله ﷺ على أقوال عدة: قال الزهري: كانت قبله تحت «عبد الله بن جحش» فقتل عنها يوم أحد^(٤).

وقال قتادة بن دعام: كانت قبل رسول الله ﷺ عند «الطفيل بن الحارث»^(٥).

وأخرج الطبراني - برجال الصحيح - عن ابن إسحاق رحمته الله قال: تزوج رسول الله ﷺ «زينب بنت خزيمة» الهلالية - أم المساكين - وكانت قبل أن تتزوج عند «الحصين»، أو عند «الطفيل بن الحارث» وكان زواجه بها في المدينة، وهي

(١) الاستيعاب (٤/١٨٥٣).

(٢) الصالحى (٢٩).

(٣) الاستيعاب (٤/١٩٠٨).

(٤) الإصابة (٤/٢٥٢٠).

(٥) المحبر (٧١، ٧٢).

أول نسائه موتاً^(١).

وروى «الصالحى» في «أزواج النبي ﷺ» عن ابن الكلبي: كانت عند الطفيل بن الحارث «فطلقها، فتزوجها أخوه «عبدة»، فقتل يوم بدر شهيداً^(٢).

ونقل «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» ما قال «أبو الحسن؛ علي بن عبد العزيز الجرجاني» النسابة: كانت «زينب بنت خزيمة» عند «الطفيل بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف»، ثم خلف عليها أخوه «عبدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف»، قال: وكانت «زينب بنت خزيمة» أخت «ميمونة» لأمها، ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم^(٣).

وقد حازت «زينب بنت خزيمة» عليها السلام أكرام لقبين: وهما: أم المساكين في الجاهلية، وأم المؤمنين في الإسلام، فقد روى الطبراني برجال ثقات، عن الزهري رحمته الله، قال: تزوج رسول الله ﷺ «زينب بنت خزيمة» الهلالية، وهي أم المساكين، سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين، وتوفيت ورسول الله ﷺ حي، لم تلبث معه إلا يسيراً^(٤).

وذكر «الصالحى» في «أزواج النبي ﷺ»: ثم خلف رسول الله ﷺ في رمضان على رأس أحد وثلاثين شهراً بعد «حفصة»، قبل أن يتزوج أختها لأمها «ميمونة»^(٥). وقد توفيت «زينب» قبل أن يتزوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» لأنه ﷺ أسكن «أم سلمة» في بيتها.

وقد ذكر «ابن سعد» في «الطبقات» من طريق الواقدي: أن «أم سلمة» قالت: فتزوجني رسول الله ﷺ، فانتقلني، فأدخلني بيت «زينب بنت خزيمة» أم المساكين بعد أن ماتت^(٦).

واختلف في مدة مكثها عند رسول الله ﷺ على أقوال:

(١) المعجم الكبير للطبراني (٥٨/٢٤).

(٢) الصالحى (١٩٤). مرشد المختار (٢٦١).

(٣) الاستيعاب (١٨٥٣/٤).

(٤) الطبراني في الكبير (٥٧/٢٤)، ومجمع الزوائد (٢٤٨/٩).

(٥) الصالحى (١٩٤).

(٦) الطبقات الكبرى (٩٢/٨).

قيل: مكثت عند رسول الله ﷺ ثمانية أشهر، وقيل: شهرين، وقيل: ثلاثة، والصحيح أنها كانت في ربيع الأول وقبل الآخر سنة أربع: ذكره «الصالحى» في «أزواج النبي ﷺ» عن «ابن طولون» في مرشد المختار^(١).

ونقل «المحب الطبري» في «السمط الثمين»: وقيل: مكثت عنده - أي النبي ﷺ - ثمانية أشهر، (ذكره الفضائلي)^(٢).

وقال «ابن حجر العسقلاني» في «الإصابة»: (وأخرج «ابن سعد» في ترجمتها، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن عبد العزيز بن محمد، عن شريك بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن الهلالية التي كانت عند النبي ﷺ: أنها كانت لها خادم سوداء، فقالت: يا رسول الله! أردت أن أعتق هذه، فقال لها: «ألا تفدين بها بين أخيك، أو بين أختك من رعاية الغنم؟».

قلت: وهذا خطأ فإن صاحبة هذه القصة هي «ميمونة بنت الحارث»، وهي هلالية، وفي الصحيح نحو هذا من حديثها، وقد ذكر «ابن سعد» نحوه في ترجمة «ميمونة» من وجه آخر^(٣).

وذكر الصالحى: (وأورد ابن منده في ترجمتها حديث: «أولكن لحاقاً بي أطولكن يداً» وتعقبوه بأن المراد بذلك «زينب بنت جحش»، لأن المراد بلحوقهن به: موتهن بعده، وهذه ماتت في حياته)^(٤).

والذي تعقب هو «ابن الأثير» في «أسد الغابة»^(٥) فذكر أن الحديث المذكور أليق بزينب بنت جحش، وهو تعقب قوي، كما قال صاحب الإصابة^(٦).

وفي (جوامع السيرة لابن حزم): أنها توفيت بعد شهرين من انضمامها إلى النبي ﷺ قولاً واحداً^(٧)، رحمها الله تعالى.

(١) مرشد المختار (٢٦٢) والصالحى (١٩٥).

(٢) السمط الثمين (١٨٥).

(٣) الإصابة (٢٥٢٠/٤).

(٤) الصالحى (١٩٦).

(٥) أسد الغابة (٢٩٧/٥).

(٦) الإصابة (٢٥٢٠/٤).

(٧) جوامع السيرة (٣٣).

٦ - أم سلمة رضي الله عنها

قيل: اسمها «هند» وقيل: «رملة» والأول أصح، وأبوها «أبو أمية» وهو سهيل بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يَظْظَةَ بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب» واشتهر بـ«زاد الركب» لأنه كان إذا سافر لم يحمل معه أحد من رفقته زاداً، بل كان يكفيهم، وقد جاء في «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للآلوسي:

(قال ابن بكار في أنساب قريش: كان أزواد الركب من قريش ثلاثة:

«مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس»، الثاني «زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى»، الثالث: «أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم»، وإنما قيل لهم: أزواد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد، ولم يُسَمَّ بذلك غير هؤلاء الثلاثة^(١).

وأما «عاتكة بنت جذل الطعان» عند «الآلوسي»^(٢) وخالفه «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» و«ابن حجر» في «الإصابة» و«ابن سعد» في «الطبقات» و«الصالح» في «أزواج النبي ﷺ» فقالوا: «عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن خزيمة بن علقمة بن فراس»، وقال «الصالح»: ومن قال: «عاتكة بنت عبد المطلب» فجعلها بنت عمّة رسول الله ﷺ فقد أخطأ، وإنما هي بنت زوجها^(٣).

وزوجها يدعى «أبا سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم». وأنجبت لأبي سلمة أربعة أولاد: «سلمة» و«عمر» و«درة» و«زينب».

(١) بلوغ الأرب (٩٢/١) ط. دار الشرق العربي.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الصالح (١٤٧).

أسلمت «أم سلمة» وزوجها مبكرين، وحين شددت قريش وطأتها على أصحاب رسول الله ﷺ، أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فراراً بدينهم، ليعبدوا الله في أمان عند ملك لا يظلم على أرضه أحد.

قال ابن أبي خيثمة: حدثنا نصر بن المغيرة، قال: قال سفيان: أول مهاجرة من النساء «أم سلمة»^(١).

ونقل النووي في تهذيبه، عن ابن الأثير، وهما - يعني هي وزوجها - أول من هاجر إلى الحبشة^(٢).

وقال «ابن سعد» في طبقاته: هاجرت هي وزوجها إلى الحبشة الهجرتين^(٣).

وكانت الهجرة الأولى في سنة خمس من المبعث، ولما بلغ المهاجرين إسلام قريش عادوا وقبل وصولهم لمكة المكرمة - حرسها الله تعالى -، تبين عدم صحة ما بلغهم، فعادوا من حيث أتوا، فتمت لهما هجرتان.

و«أبو سلمة» ﷺ، أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أرضعتها «ثوبية» مولاة لأبي لهب، وكذلك أرضعت «حمزة بن عبد المطلب» فكان الثلاثة إخوة من الرضاع، و«أبو سلمة» ابن عمه رسول الله ﷺ «برة بنت عبد المطلب» وهي لم تشهد البعثة كما ذكر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء^(٤).

لكن قريشاً لم يعجبها الأمان الذي لقيه المهاجرون في الحبشة، والحفاوة التي ظفروا بها لدى ملكها «النجاشي»، فأجمعت أمرها على إرسال وفد محمل بالهدايا التي يستظرفها صاحب الحبشة من متاع مكة ويعجب بها، ولم يكن يرغب في شيء أكثر من الأدم - الجلود -.

وضم وفد قريش رجلين هما: «عمرو بن العاص» و«عبد الله بن أبي ربيعة»

(١) الصالحى (١٤٨).

(٢) التهذيب للنووي (٣٦٢/٢).

(٣) الطبقات (٢٠٣/١ - ٢٠٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٧٣/٢، ٢٧٤).

وقد أُمِرَ الوفد بقاء البطارقة قبل المَلِك، وإعطائهم هداياهم، والطلب إليهم ليكلموا المَلِك ويقنعوه بتسليم المهاجرين إلى الوفد ليعود بهم إلى قومهم لأنهم خرجوا دون إذن أهاليهم وفارقوا دينهم، ودخلوا في دين مبتدع لا يعرفه آبائهم ولا يدين به الملك الذين نزلوا في أرضه.

ولما علم المهاجرون بوصول الوفد القرشي، لإعادتهم إلى ديارهم أوجسوا في أنفسهم خيفة من أن يجيب الملك مطلب الوفد قبل أن يسأل المهاجرين عن سبب لجوئهم إلى بلاده، لكن مخاوف المهاجرين سرعان ما تبددت حين دعاهم «النجاشي» لسماع وجهة نظرهم وسبب اختيارهم له دون غيره، وإيثار بلاده على ما سواها من البلدان.

وأما الوفد القرشي فقد اهتزت ثقته بنجاح المهمة التي جاء بصددتها، لأنه لم يكن يحبذ حدوث أي لقاء بين «النجاشي» والمهاجرين.

واتفقت كلمة المهاجرين على أن يكون «جعفر بن أبي طالب» نائباً عنهم في محاورته للملك، وناطقاً باسمهم جميعاً.

وها هي ذي «أم سلمة» تروي لنا حديث الهجرة إلى الحبشة، وما انتهت إليه مهمة وفد قريش كما ورد في سيرة ابن هشام.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن «أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة»، زوج رسول الله ﷺ، قالت:

لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار «النجاشي»، أمناً على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريش ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى «النجاشي» فينا رجلين منهم جَلْدَيْن، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم - أي الجلود - فجمعوا له أدماً كثيرة، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك «عبد الله بن أبي ربيعة» و«عمرو بن العاص» وأمروا بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا «النجاشي» فيهم، ثم قدما إلى «النجاشي» هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجنا حتى قدما على «النجاشي»، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا «النجاشي»، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى - أي: لجأ - إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا - أي أبصر بهم - وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدما هداياهما إلى «النجاشي» فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى «عبد الله بن أبي ربيعة» و«عمرو بن العاص» من أن يسمع كلامهم «النجاشي».

قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدق أيها الملك! قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب «النجاشي»، ثم قال: لاها الله إذا، لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادني، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا معاً، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله! ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا وقد دعا «النجاشي» أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

قالت: فكان الذي كلمه «جعفر بن أبي طالب» ﷺ فقال له: أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فغلبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجعنا إليك، ورجونا ألاّ نظلم عندك أيها الملك!

قالت: فقال له «النجاشي»: هل معك مما جاء به من الله من شيء؟

قالت: فقال له «جعفر» ﷺ: نعم، فقال له «النجاشي»: فاقرأه عليّ.

قالت: فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿كَهَيَّصَ ① ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاهُ خَفِيَّانِ ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرَبُّنِي وَيَرْبِّ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبُ ⑥ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيْلٍ سَوِيًّا ⑪ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ

سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٣﴾ يَبْخَبِئَ خُذِ الصِّبْ يَقُورُ ۖ وَآتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٤﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٥﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٦﴾
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٧﴾ [مريم، الآيات: ١-١٥] .

قالت: فبكى والله! «النجاشي» حتى اخضلت لحيته، وبكت أسافته حتى اخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم «النجاشي»: إن هذا والذي جاء به «عيسى» ﷺ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله! لا أسلمهم إليكما أبداً، ولا والله! لا يكادون عندي.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال «عمرو بن العاص»: والله! لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم - أي: شجرتهم التي تفرعوا منها - .

قالت: فقال له «عبد الله بن أبي ربيعة» وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله! لأخبرنه أنهم يزعمون أن «عيسى ابن مريم» عبد.

قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: بلغني أيها الملك! أنهم يقولون في «عيسى ابن مريم» قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في «عيسى ابن مريم» إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله! ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في «عيسى ابن مريم»؟.

قالت: فقال «جعفر بن أبي طالب»: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، وهو يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى «مريم العذراء البتول».

قالت: فضرب «النجاشي» بيده على الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله! ما عدا «عيسى ابن مريم» ما قلت هذا العود.

قالت: فتناخرت - أي: تكلمت مع غضب ونفور - بطارفته حوله، حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُوم بأرضي - أي: آمنون -، من سبكم غريم، ثم قال: من سبكم غريم، ثم قال: من سبكم غريم، ما أحب أن لى

دَبْرًا - جبلاً - من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله! ما أخذ الله مني الرشوة حين رَدَّ عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

قالت: فوالله! إنا لعلی ذلك، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت: فوالله! ما علمتا حَزَنًا حُزْنًا قط كان أشد علينا من حزن حَزَنَاهُ عند ذلك، تَخَوُّفًا أن يظهر ذلك على «النجاشي»، فيأتي رجل لا يَعْرِف من حقنا ما كان «النجاشي» يعرف منه.

قالت: وسار إليه «النجاشي» وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وقية القوم، ثم يأتينا بالخبر؟

قالت: فقال «الزبير بن العوام»: أنا، قالوا: فأنت؟ وكان من أحدث القوم سنًا.

قالت: فجاؤا بقربة فنفخوها له، فجعلها في صدره، ثم سبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتصكين له في بلاده، قالت: فوالله! إنا لعلی ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع «الزبير» وهو يسعى، فلمع بثوبه، وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر «النجاشي»، وأهلك الله عدوه، ومكَّن الله له في بلاده.

قالت: فوالله! ما علمتُنا فرحًا فرحاً قط مثلها، قالت: ورجع «النجاشي»، وقد أهلك الله عدوه، ومكَّن له في بلاده، واستوسق - اجتمع - عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة^(١).

ولما عاد المهاجرون من الحبشة، مكث «أبو سلمة» بمكة في جوار خاله

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٧٢ - ٣٧٦).

«أبي طالب بن عبد المطلب» حتى إذا أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، تجهز «أبو سلمة» ﷺ للخروج بامرأته «أم سلمة» وولدهما «سلمة»، ولكن حيل بينهم وبين هجرتهم كما كانوا يشتهون، وقد أخرج «المحب الطبري» في «السمط الثمين» حديث هجرتهم إلى المدينة كما روته «أم سلمة» ﷺ:

عن «أم سلمة» ﷺ قالت: لما أجمع «أبو سلمة» على الخروج إلى المدينة رَحَّل لي بعيره، وحملني عليه، وحمل معي ابني «سلمة» في حَجْرِي، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ فتزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد - رهط «أبي سلمة» - فقالوا:

والله! لا نترك ابنتنا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق «أبو سلمة» إلى المدينة.

قالت: فَفُرِّقَ بيني وبين ابني وزوجي، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبْطَح - إحدى ضواحي مكة -، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة، أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما في وجهي، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المكيبة، فَرَّقْتُم بين ولدها وزوجها وبنيتها؟.

قالت: فقالوا لي: الحقِّي بزوجك إن شئت.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ ابني.

قالت: فارتحلت بعييري، وأخذت ابني، فوضعت في حَجْرِي، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.

قالت: قلت: أتبلِّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم، لقيت «عثمان بن طلحة» - أخا بني عبد الدار -، فقال لي: إلى أين؟ يا بنت أبي أمية! فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: وما معك أحد؟ قلت: لا، والله! إلا الله، وابني هذا.

قال: والله! مالك من مثرك!.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق يهوي بي - ينحط، وتلك مشية القوي من الرجال -، فوالله! ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أكرم منه.

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت، استأخر بعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع، فإذا أردنا الرواح، قام إلى بعيري، فقدمه، فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل، فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمني المدينة.

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف، قال: زوجك في هذه القرية - وكان «أبو سلمة» نازلاً بها - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

قال: كانت تقول: والله! ما أعلم أهل بيت في الإسلام، أصابهم ما أصاب «آل أبي سلمة»، وما رأيت صاحباً كان قط أكرم من «عثمان بن طلحة». أخرجه ابن إسحاق^(١).

واجتمع شمل «أبي سلمة» بامراته وولده بعد سنة من الفراق المرير، والألم الكبير، والحزن الكثير، وباتوا في أسعد حال، وأنعم بال، ينهلون كؤوس العيش الزلال.

وكان «أبو سلمة» محباً للجهاد، تواقاً لإرواء سيفه من دماء المشركين، وحين خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، خرج «أبو سلمة» معه، وأبلى أحسن البلاء، وكان رأس الكفر، وأشقى قریش «أبو جهل بن هشام» يعني قومه بالقضاء على الدين الحنيف، واستئصال شأفة المسلمين، وقد أخرج أبو جعفر الطبراني في تاريخه عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعير العذري، حليف بني زهرة، قال: لما التقى الناس، ودنا بعضهم

(١) السمط الثمين (١٣٤ - ١٣٦).

من بعض، قال «أبو جهل»: اللهم! أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعَرَف، فأحنه الغداة - أي: فأهْلِكْهُ - فكان هو المستفتح على نفسه^(١).

لقد حكم الخبيث على نفسه بهذا الدعاء، واستجاب الله تعالى له، فقتل شر قتلة، عندما لقيه «معاذ بن عمرو بن الجموح» فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم أتاه «مُعَوِّذ بن عفراء» فضربه حتى أثبتته وبه رمق، ثم جاءه «عبد الله بن مسعود» فوضع رجله على عنقه، ثم احتز رأسه وحمله إلى رسول الله ﷺ، ثم ألقاه بين يديه، وقال: يا رسول الله! هذا رأس عدو الله «أبي جهل»، فحمد الله تعالى، وكذلك جزاء الظالمين.

ولما سكت صليل السيوف، وسكن غبار القتال، صدَّق الله تعالى قول رسوله ﷺ قبل القتال حين قال لأصحابه: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله! لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، فإذا على الأرض كبار زعماء قريش وهم صرعى وقد غرقوا في دمائهم، وفيهم غير «أبي جهل» ابنا ربيعة، «عتبة» وأخوه «شيبة»، و«الوليد بن عتبة» و«أمية بن خلف» وغيرهم من أعداء الله والدين.

ثم أمر بهم رسول الله ﷺ أن يلقوا في قليب بدر، ووقف عليهم، وقال: «يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له أصحابه: يا رسول الله! أتكلم قوماً موتى؟

قال: «لقد علموا أن ما وعدتهم حق»، قالت عائشة: والناس يقولون: لقد «سمعوا ما قلت لهم» وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا»^(٢).

لقد وعد الله تعالى رسوله ﷺ بالنصر فأنجز وعده، وبعث إليه جنده، وفرح المؤمنون بنصر الله المبين، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرؤم، الآية: ٤٧] والحمد لله رب العالمين.

وعاد «أبو سلمة» إلى أهله وعياله، ليروي لهم قصة أعظم انتصار منحه الله

(١) تاريخ الطبري (٤٤٩/٢).

(٢) تاريخ الطبري (٤٥٦/٢).

للمسلمين، وأقصى هزيمة واندحار نَزَلَا بالمشركين، فكانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وعَمَّت الأفراح بيوت المؤمنين في المدينة - حرسها الله تعالى -، غير أن «عثمان» كانت عيناه تذرفان الدمع السخي حَزَنًا على امرأته «رقية» التي غادرت الحياة.

وراحت قریش تؤلب القبائل وتحالف الأحابيش، وتحشد العدة والعتاد، يَنْتَازِر لقتلاها وتنتقم، وكانت قد اتصلت ببني كِنانة وأهل يَهامة والأحابيش حتى تهيأ لها إعداد ثلاثة آلاف منهم مائتا فارس أميرهم «خالد بن الوليد»، ثم خرجت بالظُّعُن - النساء - لثلا يفر الرجال، وليشجعنهم على القتال، وانطلقت جموعهم إلى أحد.

وبعد مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، خرج معه ألف مقاتل، ولم يَسِرْ بِهِمْ إِلَّا قليلاً، حتى أبدى رأس المنافقين «عبد الله بن أبي ابن سلول» غدره، وانحَب بثلاثمائة مقاتل من أهل الريب والنفاق، وعاد بهم إلى المدينة.

ولما وصل المسلمون إلى أحد، أَمَرَ رسول الله ﷺ «عبد الله بن جبير» على خمسين من الرماة، وحدَّد لهم مواقعهم على الجبل، وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا»، وكانت المعركة في بدايتها لمصلحة المسلمين، وأخذ المشركون يتركون أسلحتهم ويلتمسون السلامة في الفرار لِمَا رَأَوْا من كثرة قتلاهم.

وحين رأى الرماة على الجبل امتلاء الساحة بالأسلاب التي خلفها القتلى والفرار من المشركين، تنادوا إليها مسرعين لثلا يسبقوا إليها، وذكَّروهم أميرهم «ابن جبير» بعهدهم لرسول الله ﷺ فسمع له قوم، وأبى آخرون، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آلِ عِمْرَانَ، الآية: ١٥٢] الذين أرادوا الغنيمة، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ، الآية: ١٥٢] الذين قالوا: نطيع رسول الله ﷺ ونثبت مكاننا، فكان «ابن مسعود» رضي الله عنه يقول: ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يومئذ، ونظر قائد فرسان المشركين «خالد بن الوليد» إلى الجبل فرآه يكاد يخلو من الرماة إذ لم يبق عليه إلا قلة منهم، فانقضَّ بفرسانه عليهم من ورائهم، وأبادوهم مع أميرهم «ابن

جبير»، وتحول النصر عن المسلمين إلى عدوهم، بعد أن نكثوا عهد قائدهم ونيبهم ﷺ، ومن يعص الله ورسوله ﷺ لن يكون جديراً بالنصر، وما دام النصر من عند الله، فهل يعطيه لمن عصاه؟ واتخذ الله من المسلمين شهداء، كان من أبرزهم «حمزة بن عبد المطلب» أسد الله وأسد رسوله ﷺ، و«عبد الله بن جحش» ابن أخته، فدفنا في قبر واحد، و«حنظلة بن أبي عامر» غسيل الملائكة، الذي لبي نداء الجهاد في ليلة عرسه فخرج وهو جنب، فنزلت الملائكة لتغسله، و«سعد بن الربيع» و«أنس بن النضر» و«عبد الله بن عمرو بن حرام» وصهره «عمرو بن الجموح» فدفنا في قبر واحد أيضاً، و«مصعب بن عمير» حامل لواء المسلمين، ونقل ابن جرير الطبري، عن السدي، قال: أتى «ابن قميئة الحارثي» أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فرمى رسول الله ﷺ بحجر، فكسر أنفه ورباعيته، وشجّه في وجهه، فأثقله، وتفرّق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إلّٰيَّ عباد الله! إلّٰيَّ عباد الله!» فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً، فجعلوا يسرون بين يديه، فلم يقف أحد إلا «طلحة» و«سهل بن حنيف» فحماه «طلحة»، فرمي بسهم في يده، فبيست يده^(١).

وكان رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين، فلما جرح ذهب لينهض فلم يستطع، فجلس تحته «طلحة بن عبيد الله» فنهض به، ثم جعله على صخرة من الجبل، فاستوى عليها، فقال الزبير: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: أوجب «طلحة» حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع، أي: وجبت له الجنة، وخسر المسلمون الجولة بعصيان بعضهم أوامر القائد الأعظم ﷺ. وأصيب «أبو سلمة» بسهم في عضده، فمكث شهراً يداويه حتى برأ الجرح.

ولما أهل هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مهاجرة بعث رسول الله ﷺ إلى قُظَن - وهو جبل لبني أسد في نجد - ، في مائة وخمسين رجلاً، فغاب تسعاً وعشرين ليلة، ثم عاد إلى المدينة، فانتقض جرحه، فمات منه ﷺ. وأمّت «أم سلمة» وأخلدت إلى عدّتها، وراحت تستذكر أيامها الخوالي

(١) تاريخ الطبري (٢/٥١٩، ٥٢٠).

مع زوجها الراحل «أبي سلمة» وتستعيد شريط ذكرياتها الطيبة معه، وحسن معاملته لها ولبنيتها.

وقد روى «المحب الطبري» عن عمر بن أبي سلمة في سمطه الثمين: أن «أبا سلمة» جاء إلى «أم سلمة» رضي الله عنها فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحب إليّ من كذا وكذا، لا أدري ما أعدل به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصيب أحد مصيبة فيسترجع عن ذلك ويقول: اللهم! عندك أحسب مصيبي هذه، إلا أخلفه الله خيراً منها».

قالت «أم سلمة»: ولم تطب نفسي أن تقول: اللهم! أخلفني فيها بخير منها.

ثم قالت: من خير من «أبي سلمة؟» أليس!!! أليس!!! - تعدد مآثره فلا ترى في الصحابة رضي الله عنهم من يفضلُه ..

ثم قالت ذلك، فلما انقضت عدتها أرسل إليها «أبو بكر» رضي الله عنه فخطبها، فأبت، ثم أرسل إليها «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه فأبت، ثم أرسل إليها رسول الله ﷺ، فقالت: مرحباً برسول الله ﷺ، إن فيّ خلافاً ثلاثاً: أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مُصِيبَة - أي: عندي أولاد صبية -، وأنا امرأة ليس لي ههنا أحد من أوليائي فيزوجني.

فغضب سيدنا «عمر» رضي الله عنه لرسول الله ﷺ أشد غضباً لنفسه حين ردته، فأتاها سيدنا «عمر» رضي الله عنه فقال: أنت تردين رسول الله ﷺ بما تريدينه، قالت: يابن الخطاب! وإن بي كذا وكذا.

فأتاها رسول الله ﷺ، فقال: «أما ما ذكرت من غيرتك، فإني أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك - ليس منهم أحد شاهد - فليس من أوليائك أحد شاهد أو غائب يكرهني».

ف قالت لابنها: زوج رسول الله ﷺ، فزوجه، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنني لم أنقصك مما أعطيت فلانة».

قال ثابت: قلت لابن أم سلمة رضي الله عنها: ما أعطى فلانة؟

قال: أعطاهما جرتين تضع فيهما حاجتهما، ورخي، ووسادة من آدم حشوها ليف. ثم انصرف رسول الله ﷺ. ثم أقبل رسول الله ﷺ يأتيها، فلما رآته وضعت «زينب» أصغر ولدها - في حَجْرِها، فلما رآها انصرف.

وأقبل رسول الله ﷺ يأتيها، فوضعتها في حَجْرِها، وأقبل «عمار» مسرعاً بين يدي رسول الله ﷺ فانتزعها من حَجْرِها، وقال: هاتِ هذه المقبوحة التي قد منعت رسول الله ﷺ حاجته.

فجاء رسول الله ﷺ فلم يرها في حَجْرِها، قال: «أين زُنَاب؟» قالت: أخذها «عمار»، فدخل رسول الله ﷺ على أهله.

قال: وكانت في النساء كأنها ليست فيهن، لا تجد ما يجدن من الغيرة.

أخرجه بهذا السياق «هدبة بن خالد» القيمي والمُلا في سيرته، وصاحب الصفوة، وأخرج أحمد والنسائي طرفاً فيه، ومعناه في الصحيح، وفيه دلالة على أن الابن يلي العقد على أمه، وعندنا أنه إنما زوّجها بالعصوبة لأنه ابن عمها، لأن «أبا سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله» و«أم سلمة رضي الله عنها بنت سهل بن المغيرة بن عبد الله»، ولم يكن من عصبتها أحدٌ حاضراً غيره.

وذكر المُلا في سيرته: «أن ابنها حال تزوجها كان غلاماً لم يبلغ»، ولا أراه يصح.

وذكر هو وغيره في طريق آخر: أن «أم سلمة رضي الله عنها» قالت:

لما انقضت عِدَّتِي استأذن عليّ رسول الله ﷺ، وأنا أدبغُ إهاباً، فسَلَّلت يدي منه، وأذنت لرسول الله ﷺ، ووضعت له وسادة من آدم حشوها ليف، فقعد إليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله! إني امرأة في غير شديدة، وإني أخاف أن ترى مني شيئاً تكرهه يعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن ذات عيال.

قال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل ما أصابك، وأما عيالك فإنهم عيالي».

قالت: فقلت: قد سلمت أمري إلى رسول الله ﷺ، فتزوجني.

ثم ذكر دخول النبي ﷺ عليها، ووضع ابنتها «زينب» في حجرها، وأخذ «عمار» لها، وذكر أن «عماراً» كان أخاها من الرضاع.

زاد بعد قوله حين لم ير ابنتها في حجرها: «ما فعلت زُنَابُ؟» يعني زينب -، فقلت: جاء «عمار» فأخذها، فقال النبي ﷺ: «إني آتيكم الليلة».

قالت: فقمت وأخرجت حبات من شعر كانت عندي في جَرٍّ، وأخرجت شحماً فعصده، قالت: ثم جاء رسول الله ﷺ فبات عندي إلى الصبح.

وفي رواية: فأقام عندي ثلاثة أيام، ثم قال: «إِنْ شِئْتَ زِدْتُكَ وَسَبَّعْتُ» الحديث المشهور.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أن النبي ﷺ تزوج «أم سلمة»، وكانت من أجمل النساء، أخرجه أبو الجهم العلا الباهلي^(١).

وعن «أم سلمة» رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجِرْني في مصيبي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها».

قالت: فلما مات «أبو سلمة» قلت: أي المسلمين خير من «أبي سلمة؟» أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.

قالت: فأرسل إلي رسول الله ﷺ «حاطب بن أبي بلتعة» يخطبني له، قلت: إن لي بنتاً وأنا غيور، فقال: أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة.

وفي رواية: فلما توفي «أبو سلمة» قلت: من خير من «أبي سلمة» صاحب رسول الله ﷺ؟ ثم عزم الله لي فقلتُها، فتزوجتُ رسول الله ﷺ^(٢).

وعن «أم سلمة» رضي الله عنها: أن النبي ﷺ لما تزوجها أقام عندها ثلاثة، وقال:

(١) السمط الثمين (١٣٧، ١٣٩).

(٢) السمط الثمين (١٣٦).

«إنه ليس بك هوان على أهلك، فإن شئت سبعتُ لك، وإن سبعتُ لك، سبعتُ لنسائي»، أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

وأخرجه الدارقطني ولفظه: أن النبي ﷺ قال لها حين دخل بها: «ليس بك هوان على أهلك، إن شئت أقمْتُ عندك ثلاثاً خالصة لك، وإن شئت سبعتُ لك ولنسائي»، قالت: يقيم معي ثلاثاً خالصة^(١).

وأخرج «محمد بن سعد» في «الطبقات الكبرى» عنها، قالت: قلت لأبي سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة، وهي من أهل الجنة، ثم لم تزوج بعده إلا جمع الله تعالى بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها، فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدي، ولا أتزوج بعدك، قال: أعطيني؟ قالت: ما استأمرتك - أي: شاورتك - إلا وأنا أريد أن أعطيك، قال: فإذا أنا مت فتزوجي، ثم قال: اللهم! ارزق «أم سلمة» بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها.

قالت: فلما مات، قلت: من هذا الذي هو خير من «أبي سلمة؟»، فلبثت ما لبثت، فجاء رسول الله ﷺ، فقام على الباب، فذكر الخطبة إلى ابن أخيها أو إلى ابنها، أو إلى وليها، فقالت «أم سلمة» ﷺ: أريدُ على رسول الله ﷺ، أو أتقدم عليه بعيالي؟.

قالت: ثم جاء الغد، فذكر الخطبة، فقلتُ مثل ذلك، ثم قالت لوليها: إن عاد رسول الله ﷺ فزوج، فعاد رسول الله ﷺ، فتزوجها^(٢).

وكان رسول الله ﷺ يخصصها بشيء دون غيرها في بعض الأحيان، فقد أخرج «المحب الطبري» في «السمط الثمين»، عن موسى بن عقبة، عن أمه، عن أم كلثوم - أي بنت عقبة بن أبي معيط -، قالت: لما تزوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» ﷺ قال لها: «يا أم سلمة! إنني قد أهديت إلى «النجاشي» حلة وأواقِي مسك، وإنني لا أراه إلا قد مات، وما أرى الهدية التي أهديتُ إليه إلا ستردُّ لي، فإن رُدَّت عليَّ فهي لك».

(١) السمط الثمين (١٤٠).

(٢) الطبقات الكبرى (٨٨/٨).

قالت: فكان كما قال رسول الله ﷺ، مات «النجاشي»، ورُدَّت عليه الهدية، فأعطى كل امرأة من نسائه أوقية أوقية، وأعطى «أم سلمة» رضي الله عنها بقية المسك والحلة. أخرجه أحمد والمخلص الذهبي^(١).

وكان رسول الله ﷺ إذا طاف على نسائه بدأ بها لأنها أكبرهن سناً - رضي الله عنهن -، فقد أخرج «المحب الطبري» عن عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأم سلمة رضي الله عنها لأنها أكبرهن، وكان يختم بي. أخرجه المصنف^(٢).

وأدخلها النبي ﷺ في أهل البيت فقد روى «المحب الطبري» عن «أم سلمة» رضي الله عنها قالت: أغدَف رسول الله ﷺ على «علي» و«فاطمة» و«الحسن» و«الحسين» رضي الله عنهم خميسة سوداء، ثم قال: «اللهم! إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي».

قالت: قلت: وأنا يا رسول الله! قال: «وأنت»، أخرجه أحمد والدولابي.

وعن عمرو بن شعيب؛ أنه دخل على «زينب بنت أبي سلمة» فحدثته: أن رسول الله ﷺ كان عند «أم سلمة» رضي الله عنها فجعل «حسناً» في شِقِّ، و«حسيناً» في شِقِّ، و«فاطمة» في حَجْرِهِ رضي الله عنهم وقال: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد».

وأنا و«أم سلمة» رضي الله عنها جالستان، فبكت «أم سلمة» رضي الله عنها فنظر إليها رسول الله ﷺ، وقال: «ما يبكيك؟»، قالت: يا رسول الله! خصصتهم وتركنتني وابنتي، قال: «إنك وابنتك من أهل البيت»، أخرجه أبو الحسن الخلعي^(٣).

وكان ﷺ يقبل نساءه وهو صائم، فقد جاء في الحديث، عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم. أخرجاه.

(١) الطبقات (٩٥/٨)، ومسنَد أحمد (٢٦٠١٦)، والطبراني في الكبير (٨١/٢) والسمط الثمين (١٤٤).

(٢) السمط الثمين (١٤٣).

(٣) السمط الثمين (١٤١، ١٤٢).

وعن عمر بن أبي سلمة: أنه سأل النبي ﷺ: أتقبل الصائم؟ فقال له: «سل هذه» لأم سلمة رضي الله عنها، فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقال: يا رسول الله! إنه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أما والله! إنني لأتقاكم الله وأخشاكم له»، أخرجه مسلم^(١).

وكانت «أم سلمة» ذات فصاحة وبيان، وكان جزلة الرأي، وشهد لها بذلك ما حدث يوم الحديبية، فقد أخرج «المحب الطبري» في سمطه الثمين، عن «المسور بن مخرمة» و«مروان بن الحكم»؛ أن النبي ﷺ لما صالح أهل مكة، وكتب كتاب الصلح بينه وبينهم، فلما فرغ من قضية الكتاب، قال ﷺ لأصحابه: «قوموا، فأنحروا، ثم احلقوا».

قال: فوالله! ما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على «أم سلمة» رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت «أم سلمة» رضي الله عنها: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ أخرج ولا تكلم أحداً حتى تنحر بذنك، وتدعو حالك فيحلق لك، ففعل ذلك.

فلما رأوا ذلك، قاموا ونحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. أخرجاه وأحمد من حديث طويل^(٢). وفي هذا دليل على وفور عقلها، وصواب رأيها.

وروى «أبو عمر» في «الاستيعاب» عن عبد الله بن بريرة، عن أبيه، قال: شهدت «أم سلمة» غزوة خيبر، فقالت: سمعت وقع السيف في أسنان «مرحب»^(٣).

روت الحديث عن النبي ﷺ، وعن أبي سلمة، وعن فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وروى عنها كثيرون منهم: ابنها «عمر» و«زينب»، ومكاتبها «نهبان» ومواليها: «سفيانة» و«نافع» و«عبد الله بن رافع» و«خيرة» والدة الحسن البصري، وغيرها.

(١) السمط الثمين (١٤٢، ١٤٣).

(٢) السمط الثمين (١٤٦).

(٣) الاستيعاب (١٩٣٩/٤).

واختلف في سنة وفاتها، قال أبو نعيم: سنة اثنتين وستين وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً، وقيل: ستين، وتسع وخمسين عن أربعة وثمانين عاماً وصلى عليها «أبو هريرة» ودفنت في البقيع. رحمها الله تعالى.

٧ - زينب بنت جحش ﷺ

لئن كانت السماء قد تصدّدت للدفاع عن أم المؤمنين السيدة «عائشة بنت أبي بكر»، ونزل القرآن بتبرئتها مما افتري عليها في حادثة الإفك، فقد تدخّلت السماء هذه المرة في تزويج «زينب بنت جحش» من رسول الله ﷺ وهي ابنة عمته «أميمة بنت عبد المطلب» وخُلد القرآن هذا الزواج المشهور، بآية ستتم تلاوتها على مرّ العصور، وحتى يوم البعث والنشور.

كان اسمها «بَرَّة» فغيره الرسول ﷺ إلى «زينب» وأبوها يدعى «جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن عَنَم بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر».

وإخوة «زينب» ثلاثة هم: «عبد الله» هاجر إلى الحبشة مع أخيه «عبيد الله» وهناك تحوّل «عبيد الله» إلى النصرانية وأكبَّ على الخمر فمات كافراً، أما «عبد الله» فكانت له هجرة ثانية إلى المدينة المنورة حرسها الله تعالى -، ورزقه الله الشهادة يوم أحد.

والأخ الثالث «أبو أحمد بن جحش» الشاعر الضريع، ولهم أختان «أم حبيبة» و«حمنة» التي خاضت في حديث الإفك، وكان الإخوة والأخوات من السابقين الأولين للإيمان، وبعد هجرتهم إلى المدينة، وثب «أبو سفيان» صخر بن حرب» على ديارهم الخاوية في مكة، فضمها إليه، ولما شكى «عبد الله» ذلك إلى رسول الله ﷺ، وعده بدار خير منها في الجنة، فرضي «عبد الله»، وقرَّ بذلك عينا، وما وعد أحداً المصطفى، إلّا أنجزه ووفى، وما كان الله ليخذه وكفى. وكانت «زينب» تكنى «أم الحكم».

نشأت «زينب» في أسرة رفيعة النسب، زاكية الحسب، ولها شرف وسيادة وجاه عريض، وكان الكرم والسخاء خلقاً راسخاً في تلك الأسرة الطيبة، ولم

تحل هذه الصفات بين أفرادها وبين أخذ نصيهم من الأذى والمعاناة التي فرضتها قريش على أتباع الدين الحنيف، مما حدا بهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة لأن فيها ملكاً لا يظلم على أرضه أحد.

وكان «زيد بن حارثة» أول موالي رسول الله ﷺ إسلاماً، ولما جاء «أبوه» وعمه في فدائه، خيرَه رسول الله ﷺ بين أهله وبينه، فأثر صحبة رسول الله ﷺ على العودة إلى أبويه، فكافاه رسول الله ﷺ بتبنيه، وصار يدعى «زيد بن محمد»، ولما حرم الإسلام التبني، ونزل قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الاحزاب، الآية: ٥] خرج «زيد» إلى الناس، وقال بملء فيه: أنا «زيد بن حارثة» وقد أعتقه رسول الله ﷺ، وأخذت مواهبه تظهر، حتى صار يطلق عليه «حِبُّ» رسول الله ﷺ أو «زيد الحِبُّ»، وأخذ ينمو ويتزعرع، وامتلاً جسده حيوية وشباباً، وعقله حكمة وعلماً، وأصبح أهلاً للزواج، ولكن «زيداً» لم يختار لنفسه المرأة التي يود الزواج منها، وإنما ترك ذلك لأحب الناس إليه، وأحرص الناس على إسعاده وأكرم الناس عليه، ذلكم هو رسول الله ﷺ، ووقع اختيار رسول الله ﷺ على ذات الحسب والنسب والحصن والجاه، ابنة عمته «زينب بنت جحش» فأى صدى خلفه ذلك الاختيار لدى العروس الشابة؟ إنه الرفض وقد وقف إلى جانبها مؤيداً لها أخوها «عبد الله»، ذلك أنهما لا يعرفان مواهب «زيد» ومؤهلاته التي رشحه رسول الله ﷺ على أساسها زوجاً لزينب، وإنما نظرنا إلى بشرته السوداء، وأنفه الأفطس، ورقه قبل عتقه، مما ينفي عنه - حسب رأيهما - أن يكون كفواً لسيدة أبناء عبد شمس، ولما علم رسول الله ﷺ برفضها، قال: «قد رضىته لك» فردّت بدون تروٍّ ولكني لا أرضاه لنفسي.

كان إسلام «زينب» ما يزال غضاً طرياً، ولم يكن له ذلك الرسوخ الذي يعلمها أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، ولو علمت بذلك لما خطر لها الرفض على بال. فما العمل؟ الرسول أمر، والمأمور أبى، والإشكال لا بد له من أن يُحلَّ، فبعث الله سفيره «جبريل» ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الاحزاب، الآية: ٣٦]، فإذا أرادت «زينب» أن تصر على رأيها فذلك يعني أنها اختارت معصية الله ورسوله ﷺ، وهذا الاختيار يصمها

بالضلال الممين، وما إخالها ترضى بتلك الوصمة لأن مصدرها السماء.

ولم تجد أمامها مخرجاً من ذلك المأزق إلا أن ترسل إلى رسول الله ﷺ، وتؤذنه بموافقتها على الزواج من «زيد».

وقد ذكر العلامة الآلوسي في تفسير الآية ما روي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد، وغيرهم، نزلت في «زينب بنت جحش» من عمته ﷺ «أميمة بنت عبد المطلب» وأخيها «عبد الله»، خطبها رسول الله ﷺ لمولاه «زيد بن حارثة» وقال: «إني أريد أزوجه» «زيد بن حارثة» فإني قد رضيت لك» فأبت وقالت: يا رسول الله! لكنني لا أرضاه لنفسي، وأنا أئيم قومي، وبنت عمتك، فلم أكن لأفعل.

وفي رواية أنها قالت: أنا خير منه حسباً، ووافقها أخوها «عبد الله» على ذلك، فلما نزلت الآية رضا وسلماً فأنكحها رسول الله ﷺ «زيداً» بعد أن جعلت أمرها بيده، وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً مهراً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مuddاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر^(١).

وكان على «زينب» أن تعي أن أعظم مؤهل لزيد أنه حبُّ الحبيب الأعظم، وكفى. ولم تسع الفرحة «زيداً» لأنه أصبح بوسعه أن يعيش مع «زينب» تحت سقف واحد، ولقد خفي على «زيد» أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، وظن أن الدفء والحنان، والسعادة والحب التي ينشدها ستملاً أرجاء بيته، ولم يطل الوقت حتى علم أن ظنه لم يكن إلا سراباً بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ذلك أن موافقة «زينب» على الزواج منه كانت هشة ومن طرف اللسان، ولم تصدر عن الجنان، وعواطفها وأحاسيسها ومشاعرها لا تستطيع أن تحب «زيداً» لأن عقلها لا يراه مكافئاً لها، ومن الساعة الأولى أظهرت عدم الاكتراث لزيد، وأبدت البرودة والفتور، والجفوة والنفور، فإذا مد يده ليلمسها حسبتها ثعباناً يريد أن يلسعها، وإذا حاول الدنو منها لجأت في البعاد، وإذا خاطبها برقة، لقي الغلظة في رد الجواب.

(١) تفسير الآلوسي (٢٢/٢٣).

إن «زيداً» ليس بالرجل الساذج، وقد أيقن أن الحياة بهذا النمط أبعد ما تكون عن أن تمنحه الاستقرار والاستمرار، فانطلق إلى الحبيب الأعظم ﷺ شاكياً، فأمره بالصبر، وصدع «زيد» بالأمر، وعاد إلى بيته، فرأى أن «زينب» تأبى أن تغير سلوكها تجاهه، أو أن تحيد عن الإساءة إليه قيد أنملة.

ورجع «زيد» إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «يا زيد! هل رابك منها شيء؟» قال: معاذ الله، ولكنها تتعاضم عليّ، وتؤذيني بلسانها، فقال له ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وعاد «زيد» القهقري، ليرى «زينب»، وقد زادت إعراضاً عنه، ونفوراً منه، وأحس أنها لا تطيق مجرد النظر إليه، فحزم أمره، وارتد إلى رسول الله ﷺ ليخبره أنه يريد أن يرتاح وأنه لن يجد الراحة إلا بفراق «زينب» فأذن له، فطلقها. وجلست «زينب» في عِدَّتِها، ولكن الرحمن الرحيم لم يتخل عنها، ف قضى بزواجها من رسول الله ﷺ، فبعث «جبريل» ﷺ بهذه الآيات: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الاحزاب، الآية: ٣٧] - يعني: بالإسلام - ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الاحزاب، الآية: ٣٧] - يعني بالعتق فاعتقته - ﴿أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب، الآية: ٣٧] - هو أن يقولوا: تزوج «محمد» امرأة ابنه - ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ لَكَ يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزِلِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِيكَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ [الاحزاب، الآيات: ٣٧، ٣٨، ٣٩].

فلما بلغ رسول الله ﷺ أمر السماء، بعث «زيداً» إلى «زينب» ليخطبها عليه، وقال: «اذهب، فاذكرها علي».

وأخرج «ابن حَجَر العسقلاني» في «الإصابة»: وفي خبر تزويجها عند ابن سعد من طريق الواقدي بسند مرسل: فبينما رسول الله ﷺ يتحدث عند «عائشة» إذ أخذته غشية، فسُرِّي عنه، وهو يتبسم، ويقول: «من يذهب إلى زينب يبشرها؟»

وتسلا: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب، الآية: ٣٧]، الآية، قالت «عائشة» فأخذني ما قرب وبعد، لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم وأشرف ما صنع لها، زَوْجُهَا اللهُ مِنَ السَّمَاءِ. وقلت: هي تفخر علينا بهذا.

وروى «أبو نعيم» عنها في «الحلية»: فلما انقضت عدتي لم أعلم إلا رسول الله ﷺ قد دخل عليّ بيتي وأنا مكشوفة الشعر، فعلمت أنه أمر من السماء، فقلت: يا رسول الله! بلا خطبة ولا إشهد؟ فقال: «اللَّهُ زَوْجٌ وَجِبْرِيلُ الشَّاهِدُ»^(١).

ويسند ضعيف عن ابن عباس: لما أخبرت «زينب» بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت، ومن طريق عبد الواحد بن أبي عدن، قالت «زينب»: يا رسول الله! إني والله! ما أنا كإحدى نسائك، ليحت امرأة من نسائك إلا زَوْجُهَا أَبُوهَا أَوْ أَخُوهَا أَوْ أَهْلُهَا غَيْرِي، زوجنيك الله من السماء^(٢).

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه: عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، قال: لما انقضت عِدَّةُ «زينب»، قال رسول الله ﷺ لزيد «فاذكرها عليّ».

قال: فانطلق «زيد» حتى أتاها وهي تخمّر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، - أي: هابها واستجلّها من أجل إرادة النبي ﷺ تزويجها - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، - خطبها وظهره إليها لثلا يسبقه النظر إليها، إعظاماً لها. فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

قال: فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج

(١) حلية الأولياء (٢/٥٥، ٥٦).

(٢) الإصابة (٤/٢٥١٧).

رسول الله ﷺ، واتبعته، فجعل يتتبع حُجْر نِسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله! كيف وجدت أهلَكَ؟

قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: وَوَعِظَ القوم بما وَعِظُوا به^(١).

وأخرج مسلم في صحيحه أيضاً: وفي حديث شعبة عن عبد العزيز بن صهيب، قال: سمعت أنس بن مالك، يقول: ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على «زينب»^(٢).

وروى ابن جرير، في التفسير والبلاذري في أنساب الأشراف، عن الشعبي، قال: كانت «زينب» تقول للنبي ﷺ: إني لأدُلُّ عليك بثلاث: ما من نسائك امرأة تُدِلُّ بهن: إن جدي وجدَّكَ واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وكان «جبريل» ﷺ السفير في أمري^(٣).

وأما ما كان من أمر الطعام الذي أطعمه رسول الله ﷺ بهذه المناسبة، فقد ذكر مسلم في صحيحه عن الجعد أبي عثمان، عن أنس بن مالك، قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله.

قال: فصنعت أُمِّي «أُم سُلَيْم» خَيْساً، فجعلته في ثَوْرٍ - إناء من صُفْرٍ أو حجارة - فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أُمِّي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل، يا رسول الله!

قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أُمِّي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل، يا رسول الله! فقال: «ضعه»، ثم قال: «اذهب فادعُ لي فلاناً وفلاناً وفلاناً، ومن لقيت» وسمَّى رجلاً.

قال: فدعوت من سمَّى ومن لقيتُ، قال: قلتُ لأنس: عَدَدَ كَمْ كانوا؟

(١) صحيح مسلم (١٤٢٨/٨٩).

(٢) صحيح مسلم (١٤٥٨/٩١).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/٢١٦)، وأنساب الأشراف (١/٤٣٥).

قال: زُهَاء ثلاثمائة. وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس! هات التور»، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: «ليتخلق عشرة عشرة، ولياكل كل إنسان مما يليه».

قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: «يا أنس! ارفع»، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟ قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ فلمس على نساءه، ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب - أي: سارعوا للخروج - فخرجوا كلهم.

وجاء رسول الله ﷺ حتى أرحى السُّرَّ ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج عليّ، وأنزلت هذه الآيات، فخرج رسول الله ﷺ وقراهن على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَضِينَ لِخَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الاحزاب، الآية: ٥٣] .

قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحُجِبْنَ نساء النبي ﷺ^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: لما أهديت «زينب بنت جحش» إلى النبي ﷺ صنع طعاماً، وفي رواية عبد العزيز بن صهيب، عن أنس أنه كان الداعي إلى الطعام قال: فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون.

قال: فدعوت حتى ما أجد أحداً، وفي رواية حميد: فأشبع المسلمين خبزاً ولحماً، ووقع في رواية الجعد أبي عثمان، عن أنس عند «مسلم».

وعلقه «البخاري» قال: تزوج النبي ﷺ، فدخل بأهله، فصنعت له «أم سُلَيْم» حَيْساً، فذهبتُ به إلى النبي ﷺ، فقال: «ادع لي فلاناً وفلاناً»، وذهبتُ فدعوتهم زهاء ثلاثمائة رجل، فذكر الحديث في إشباعهم من ذلك، ورجع بينه وبين رواية حميد بأنه ﷺ أولم عليها بالخبز واللحم، وأرسلت إليه «أم سُلَيْم» الحيس^(١).

وكانت «زينب» ﷺ شديدة الورع، فقد روى البخاري في حديث الإفك عن عائشة ﷺ قالت: وكان رسول الله ﷺ يسأل «زينب بنت جحش» عن أمري، فقال: «يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع^(٢).

وأخرج ابن الجوزي في صفة الصفوة، عن عبد الله بن رافع، عن برزة بنت رافع، قالت: لما جاءنا العطاء بعث «عمر» إلى «زينب بنت جحش» بالذي لها، فلما أدخل عليها، قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى مني على قسم هذا.

قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب، وقالت: صبه، واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة، فاذهي بها إلى بني فلان وبني فلان - من أهل رحمها وأيتامها - ففرَّقته حتى بقي منه بقية تحت الثوب.

فقالت لها «برزة بنت رافع»: غفر الله لك يا أم المؤمنين! والله! لقد كان لنا في هذا حق، قالت: لكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحت خمسة وثمانين درهماً.

ثم رفعت «زينب» يديها إلى السماء، وقالت: اللهم! لا يدركني عطاء

(١) فتح الباري (٣٨٩/٨).

(٢) صحيح البخاري (٤٤٧٣). جزء من حديث الإفك.

«عمر» بعد عامي هذا، فماتت.

قال عبد الوهاب في حديثه: فكانت أول أزواج النبي ﷺ لحوقاً به^(١). وكان شديدة الاتباع للنبي ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: «هذه، ثم ظهور الحصر». قال: فكن كلهن يحجبن إلا زينب بنت جحش، وسودة بنت زمعة وكانتا تقولان: والله! لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من النبي ﷺ^(٢).

وكانت «زينب» ﷺ صَنَاعَ اليدين، فتدبغ وتخرز، وتصنع الشيء بيديها الكريمتين فإذا فرغت من ذلك تصدقت، وقد وصفت لهذا بطول اليد.

وروى ابن الجوزي في صفة الصفوة، والطبراني في معجمه الأوسط، عن «ميمونة بنت الحارث» زوج النبي ﷺ، عن أبي هريرة ﷺ قال: كان لرسول الله ﷺ تسع نساء، فقال يوماً: «خيركن أطولكن يداً»، فقامت كل واحدة تضع يدها على الجدار، فقال: «لست أعني هذا، أصمكن يدين»^(٣).

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه: عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: قَالَ رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي، أطولكن يداً»، قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يداً. قالت: فكانت أطولنا يداً «زينب»، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق^(٤).

وأخرج «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب» عن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «إن زينب بنت جحش «أَوَاهة» فقال رجل: يا رسول الله! ما الأَوَاهة؟ قال: «الخاشع المتضرع» وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَاهٌ مُنِيبٌ ﴿قُود، الآية: ٧٥﴾^(٥).

(١) صفة الصفوة (٤٨/٢) وطبقات ابن سعد (١٠٩/٨ - ١١٠) وعبد الوهاب: شيخه، والمط الثمين (١٨٠).

(٢) مسند أحمد (٢٥٥٢٦).

(٣) صفة الصفوة (٤٩/٢).

(٤) صحيح مسلم (٢٤٥٢/١).

(٥) الاستيعاب (١٨٥٢/٤).

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير، عن راشد بن سعد، قال: دخل رسول الله ﷺ منزله ومعه «عمر بن الخطاب» ﷺ - فإذا هو بزينب بنت جحش تصلي، وهي تدعو في صلاتها، فقال النبي ﷺ: «إنها لأواهة»^(١).

ولم تكثر «زينب» ﷺ من رواية حديث رسول الله ﷺ، وقد أخرج لها أصحاب السنن والصحاحين أحد عشر حديثاً، وممن روى عنها من الرجال ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وروت عنها من النساء أم المؤمنين أم حبيبة، وزينب بنت أم سلمة ﷺ -.

وأخرج صاحب الإصابة من حديث «أم سلمة» بسند موصول فيه الواقدي: أنها ذكرت «زينب»، فترحمت عليها، وذكرت ما كان يكون بينها وبين «عائشة»، قالت «أم سلمة»: وكانت لرسول الله ﷺ مُعْجَبَةً، وكان يستكثر منها، وكانت سالحة صوامع قوامه، صَنَاعَةٌ تَصَدَّقُ بِذَلِكَ كله على المساكين^(٢).

وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عائشة ﷺ؛ قالت: لقد ذهبت - تعني: زينب - حميدة مفيدة، ففرع اليتامى والأرامل^(٣). وكان ﷺ يحاسب أزواجه إذا أخطأن بحق بعضهن، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن سعد، عن عائشة ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان في سفر، فاعتل بعير لصفية، وفي إبل «زينب» فَضْلٌ، فقال رسول الله ﷺ لزينب: «إن بعيراً لصفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً من إبلك»، فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية! فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها، قالت: حتى ينسئ منه وحولت سريري، قالت: فبينما أنا يوماً بنصف النهار إذا أنا بظل رسول الله ﷺ مقبلاً فدخل رسول الله ﷺ، فأعادت سريرها^(٤).

وروى ابن سعد في الطبقات عن ابن عمر ﷺ: أن الرجال والنساء كانوا

(١) المعجم الكبير للطبراني (٣٩/٢٤).

(٢) الإصابة (٢٥١٨/٤).

(٣) الطبقات (١١٠/٨).

(٤) الإمام أحمد، مسند عائشة (١٣١/٦)، ومسند صفية (٣٣٧/٦)، وأبو داود (٤٦٠٢)، والطبقات (١٢٦/٨).

يخرجون بهم سواء، فلما ماتت «زينب بنت جحش»، أمر «عمر» منادياً فنادى: ألا لا يخرج علي «زينب» إلا ذو رحم من أهلها، فقالت «أسماء بنت عميس»: يا أمير المؤمنين! ألا أريك شيئاً رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم، فجعلت نعشاً وغشته بثوب، فلما نظر إليه قال: ما أحسن هذا! ما أستر هذا! فأمر منادياً: أن اخرجوا على أمكم^(١).

وروى «ابن حجر» في «الإصابة»: وأخرج ابن سعد بسند فيه الواقدي، عن القاسم بن محمد، قال: قالت «زينب» حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددت كفني، وإن «عمر» سيبعث إليّ بكفن، فتصدقوا بأحدهما، وإن استطعتم أن تتصدقوا بحَقْوَيَّ فافعلوا.

ومن وجه آخر، عن عمرة، قالت: بعث «عمر» بخمسة أثواب، يتخيرها ثوباً ثوباً من الحرّاني، فكفّنت منها، وتصدقت عنها أختها «حمّة» بكفنها الذي كانت أعدته.

وأخرج بسند فيه الواقدي، عن محمد بن كعب: كان عطاء «زينب بنت جحش» اثني عشر ألفاً، لم تأخذه إلا عاماً واحداً، فجعلت تقول: اللهم! لا يدركني هذا المال من قابل، فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها، وفي أهل الحاجة.

فَبَلَغَ «عمر» فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف عليها، وأرسل بالسلام، وقال: بلغني ما فرّقت، فأرسل بألف درهم تنقيها، فسلكت به ذلك الملك.

قال الواقدي: تزوجها النبي ﷺ، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، وماتت سنة عشرين، وهي بنت خمسين.

ونقل عن «عمر بن عثمان الحَجَبِي» أنها عاشت ثلاثاً وخمسين^(٢).

وروى ابن أبي خيثمة، عن القاسم بن محمد رضي الله عنه، قال: كانت «زينب بنت جحش» أول نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به^(٣).

(١) الطبقات (١١٨/٨)، وسير الذهبي (٢١٢/٢، ٢١٣).

(٢) الإصابة (٢٥١٨/٤).

(٣) الصالح (١٩١).

وروى البزار في كشف الأستار - برجال الصحيح - عن عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه: أن «عمر» رضي الله عنه كبر على «زينب بنت جحش» أربعاً، ثم أرسل إلى أزواج رسول الله ﷺ: من يدخل هذه قبرها؟ فقلن: من كان يدخل عليها في حياتها، ثم قال «عمر» كان رسول الله ﷺ يقول: «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن يداً»، فكنَّ يتناولن بأيديهن، وإنما كان ذلك لأنها كانت صناعاً، تعين بما تصنع في سبيل الله^(١).

وقال البيهقي في «السنن الكبرى»: وهي أول امرأة جعل عليها النعش^(٢).

ونقله «المحب الطبري» في «السمط الثمين»، عن المُلَّا في سيرته^(٣).

وقال الحلبي في سيرته: وهي أول من جعل على نعشها قبة، أي بعد «فاطمة» رضي الله عنها فلا يخالف ما سبق مما ظاهره أنه فعل لها ذلك^(٤).

وقام «عمر» على قبرها، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني أرسلت إلى نساء النبي ﷺ حين مرضت هذه المرأة: أن مَنْ يمرضها، ويقوم عليها؟ فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن، ثم أرسلت إليهن حين قُبِضَتْ: مَنْ يغسلها، ويحطها، ويكفنها؟ فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن، ثم أرسلت إليهن: مَنْ يدخلها في قبرها؟ فأرسلن: من كان يحلُّ له الولوج عليها في حياتها، فرأيت أن قد صدقن، فاعتزلوا أيها الناس! فنحَّاهم عن قبرها، ودفنت في البقيع، رحمها الله تعالى.

(١) كشف الأستار (٣/٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) السنن الكبرى (٧/٧٢).

(٣) السمط الثمين (١٩١).

(٤) السيرة الحلبي (٣/٤١٢).

٨ - جَوِيرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ رضي الله عنها

كانت تدعى «بَرَّةً» وغيره رسول الله ﷺ إلى «جويرية» والدها سيد بني المصطلق، ويدعى «الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جَذِيمَة - وهو المصطلق - ابن سعد بن كعب بن عمرو بن عمرو - وهو خُزَاعَة - ابن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء.

قتل زوجها كافراً، وسيت امرأته يوم المريسيع في غزوة بني المصطلق، ووقعت في سهم «ثابت بن قيس بن شماس»، فكاتبها على تسع أواق، فأدَّى رسول الله ﷺ عنها كتابتها، وتزوجها.

وروى الإمام أحمد وأبو داود، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت «جويرية» في سهم «ثابت بن قيس بن شماس» أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مُلَاحَة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي كرهتها، وقالت: يرى منها ما قد رأيت، فلما دخلت على رسول الله ﷺ، قالت: يا رسول الله! أنا «جويرية بنت الحارث» سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت نفسي، فأعني على كتابتي.

قال: «أو خير من ذلك، أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك» فقالت: نعم، ففعل، فبلغ الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوجها، فقالوا أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما كان بأيديهم من بني المصطلق، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، ما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة^(١).

(١) مسند أحمد (٦/٢٧٧)، وأبو داود (٣٩٣١).

وفي طبقات «ابن سعد»: جاء أبو جويرية إلى النبي ﷺ فقال: إن ابنتي لا يسبى مثلها، فحلّ سبيلها، فقال: بل أخيرها. قال: قد أحسنت، فأتاها أبوها، فقال: إن هذا الرجل قد خيّرك فلا تفضحيننا، قالت: فلإني أختار الله ورسوله ﷺ ^(١).

وجاء في دلائل النبوة للبيهقي رحمته الله عن جويرية رضي الله عنها قالت: رأيت قبل قدم النبي ﷺ بثلاث ليالٍ كأن قمراً يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ، فلما سبينا رجوت الرؤيا، فأعتقني وتزوجني ^(٢).

ثم أسلم أبوها وابنتان له بعد ذلك، أما زوجها ففي اسمه خلاف، فعند ابن سعد والمهيلي والحاكم اسمه (مسافع بن صفوان)، وفي سيرة ابن هشام (عبد الله) وفي تاريخ الطبري (مالك بن صفوان)، وفي رواية أخرى عند «ابن سعد» (صفوان بن مالك)، وفي «التسمية» لأبي عبيدة (صفوان بن ذي الشفر الخزاعي) والله أعلم.

وروى الطبراني مرسلًا برجال الصحيح، عن مجاهد، قال: قالت جويرية لرسول الله ﷺ: إن أزواجك يَفْخَرْنَ عليّ، وَيَقُلْنَ: لم يتزوجك رسول الله ﷺ، قال: «أَوَلَمْ أُعْظِمْ صَدَاقَكَ؟ أَوَلَمْ أُعْثِقْ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً مِنْ قَوْمِكَ؟» ^(٣).

وأحبت «جويرية» رسول الله ﷺ، وقطعت وقتها في الصيام نهاراً، والقيام ليلاً، وكانت تمضي في محرابها الساعات الطويلة تذكر الله فيها، وتسبح بحمده، وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن كريب، عن ابن عباس، عن جويرية؛ أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهنَّ»: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه،

(١) الطبقات (١١٨/٨).

(٢) دلائل النبوة (٥٠/٤).

(٣) الطبراني في الكبير (٥٩/٢٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٧١/٧).

وزنة عرشه، ومداد كلماته^(١).

وفي رواية ثانية: عن أبي رَشْدَيْن، عن ابن عباس، عن جويرية، قالت: مرَّ بها رسول الله ﷺ حين صَلَّى صلاة الغداة، فذكر نحوه، غير أنه قال: «سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته»^(٢).

وقد نهاها رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة مفرداً، وأمرها بالإفطار، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن شعبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن «جويرية بنت الحارث» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهي صائمة، فقال: «أَصُمْتَ أمس؟» قالت: لا، قال: «تريدين أن تصومي غداً؟» قالت: لا، قال: «فأفطري».

وقال حماد بن الجعد: سمع قتادة: حدثني أبو أيوب: أن «جويرية» حدثته: فأمرها فأفطرت^(٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم، إلا أن تصوموا قبله أو بعده»^(٤).

ولما كثرت الفتوحات الإسلامية في عهد «عمر بن الخطاب» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفاض المال بين يديه، فرض لكل من أزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفاً، وستة آلاف لكل من «جويرية» و«صفية بنت حيي» فأبنا قبضها لأنها تنقص عن نصيب أخواتهما، فقال «عمر»: إنما فرضت لهن بالهجرة، فقالت: ما فرضت لهن بالهجرة ولكن فرضت لهن لمكانتهن من رسول الله ﷺ، ولنا مثل مكانتهن، وتكلمت «عائشة» فقالت: إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا، فأمعن «عمر» في الأمر، وجعل أنصبتهم سواء فرضيتا، وحيث يكون الحق والعدل فلن يفتقد «عمر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٦/٧٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٢٦/٠٠٠).

(٣) صحيح البخاري (١٨٨٥).

(٤) مسند أحمد (٧٦٨٠).

وثابرت أم المؤمنين «جويرية» على عبادتها التي كانت عليها في حياة الحبيب الأعظم ﷺ، وفي سنة خمسين للهجرة، فاضت روحها عن سبعين عاماً أو خمسة وستين عاماً^(١)، رحمها الله تعالى.

(١) الصالحى (٢١١).

٩ - أم حبيبة ﷺ

اسمها «رملة» وقيل: «هند» والصحيح الأول، وأبوها «أبو سفيان» صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس» وأما «صفية بنت أبي العاص بن أمية». وزوجها «عبيد الله بن جحش» أخو «عبد الله» و«أبي أحمد» ابني جحش بن رثاب، كانت «رملة» و«عبيد الله» من السابقين للإسلام، ثم هاجرا إلى الحبشة فراراً من أذى قريش لأتباع الدين الحنيف، وهناك ولدت ابنتها «حبيبة» فاكنت بها فطغت كنيتهما على اسمها.

وفي غمرة سعادتها بالحياة الآمنة على أرض الحبشة استيقظت في أحد الأيام لتسمع زوجها يحدثها عن رجوعه إلى النصرانية التي كان عليها قبل إسلامه، ثم عرض عليها أن تتابعه فأصرت على إسلامها، وفارقت، فأكبَّ على الخمرة، ومات متصراً، فركنت «أم حبيبة» إلى عِدَّتْها، وقعدت على طفلتها، فلما حَلَّت طرقت بابها جارية الملك «النجاشي» وتدعى «أبرهة» لتبشرها أن رسول الله ﷺ قد أرسل إلى الملك ليزوجه، فأرسلني إليك لتوكلي من يزوجك، فقالت «أم حبيبة»: بشرك الله بخير، ثم نزعَت سوارين من فضة من يدها وخواتيم من فضة في أصابعها وأعطتها لأبرهة لقاء ما بشرتها به، وأرسلت إلى «خالد بن سعيد بن العاص» فوكلته، ثم إن «النجاشي» دعا «جعفر بن أبي طالب» خطيب المهاجرين ومن معه من المسلمين لشهود العقد، ولما كان العشي، وحضر الناس، خطب «النجاشي» فيهم، فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشر به - عيسى ابن مريم -.

أما بعد، فإن رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجه «أم حبيبة بنت أبي سفيان» فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقته أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

فتكلم «خالد بن سعيد» فقال: الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد، فقد أجبته إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته «أم حبيبة بنت أبي سفيان» فبارك الله لرسوله ﷺ.

ودفع «النجاشي» الدنانير إلى «خالد بن سعيد» فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرقوا^(١).

قال «ابن حجر» في «الإصابة»: قالت «أم حبيبة»: فلما وصل إليّ المال أعطيت «أبرهة» منه خمسين ديناراً، قالت: فردّتها عليّ، وقالت: إن الملك عزم عليّ بذلك، وردّت عليّ ما كنت أعطيتها أولاً.

ثم جاءني من الغد بعود ووزن وعنبر وزبادٍ كثير - أنواع من الطيوب - فقدمت به معي على رسول الله ﷺ^(٢).

وروى «ابن سعد» في «الطبقات الكبرى» عن إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأموي، قال: قالت «أم حبيبة»: رأيت في المنام كان زوجي «عبيد الله بن جحش» بأسوا صورة، فأصبحت فإذا به قد تنصّر، فأخبرته بالمنام فلم يحفل به، وأكبّ على الخمر حتى مات.

فأتاني آت في النوم فقال: يا أم المؤمنين! ففزعت، فما هو إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول «النجاشي» يستأذن، فذكر لأم حبيبة خطبة رسول الله ﷺ إياها من «النجاشي»^(٣).

وكان الذي حمل «أم حبيبة» إلى رسول الله ﷺ مع جهازها الذي قدمه «النجاشي» إليها «شرحيل بن حسنة».

(١) انظر الاستيعاب (٤/ ١٩٣٠)، والسمط الثمين (١٥١، ١٥٣).

(٢) الإصابة (٤/ ٢٥٠٨).

(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ٩٧، ٩٨).

وحين وصلت «أم حبيبة» ﷺ أمر رسول الله ﷺ «بلالاً»، فأخذ بخطام بعيرها، وأنزلها المنزل الذي أمره النبي ﷺ أن ينزلها به، فلما دخل عليها رسول الله ﷺ، ووجد الطيب عليها وعندها لم ينكره، وقال: «إنهن قرشيات بطاحيات قرويات، لسن بأعرابيات ولا بدويات»، وكان بناؤه ﷺ بها في السنة السابعة بعد صلح الحديبية.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الزواج المبارك، وروى «ابن سعد» في طبقاته، عن ابن عباس ﷺ أن قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المُحَنَّة، الآية: ٧] نزل حين تزوج النبي ﷺ «أم حبيبة بنت أبي سفيان»^(١).

وكانت «أبرهة» جارية «النجاشي» قد حَمَلت «أم حبيبة» أمانة قيِّمة، فحين جاءت «أبرهة» لتودعها، سألتها «أم حبيبة»: هل لك من حاجة؟ قالت: حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله ﷺ مني السلام، وتعلميه باتباعي لدينه.

فلما وصلت «أم حبيبة» حدثت رسول الله ﷺ بما صنعه «النجاشي» في خطبتها، وما فعلته «أبرهة»، ثم أقرأت رسول الله ﷺ سلامها، فقال ﷺ: «وعليها السلام ورحمة الله وبركاته».

ولما بلغ «أم حبيبة» و«أم سلمة» نبأ وفاة «النجاشي» حزنتا عليه لأنهما لم تنسيا حسن جواره للمهاجرين في الحبشة، وصلى رسول الله ﷺ مع أصحابه عليه صلاة الغائب، ودعوا له ﷺ.

وكانت «أم حبيبة» مخلصة في إيمانها، صادقة مع ربها، فكانت مجابة الدعوة، فقد روى «حميد بن هلال» قال: (لَمَّا حَوَّصَ «عثمان بن عفان» ﷺ أُمَّهُ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ «أم حبيبة» فجاء رجل فاطلع في خدرها، فجعل ينعتها للناس، فقالت: ماله، قطع الله يده، وأبدى عورته؟

قال: فدَخَلَ عليه داخل، فضربه بالسيف، فألقى يمينه فقطعها، وانطلق هارباً أخذاً إزاره بفيه أو بشماله بادياً عورته).

(١) الطبقات الكبرى (٩٩/٨)، والسمط الثمين (١٥٧).

وكان تمسك «أم حبيبة» الشديد بدينها مدعاة لالتزامها بأوامر رسول الله ﷺ فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، قال: حدثني عنبسة بن أبي سفيان في مرضه الذي مات فيه بحديث يَتَسَارًا إليه، قال: سمعت «أم حبيبة» تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بني له بهن بيت في الجنة».

قالت «أم حبيبة»: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

وقال «عنبسة بن أبي سفيان»: فما تركتهن منذ سمعتهن من «أم حبيبة».

وقال «عمرو بن أوس» رضي الله عنه: ما تركتهن منذ سمعتهن من «عنبسة».

وقال «النعمان بن سالم» رضي الله عنه: ما تركتهن منذ سمعتهن من «عمرو بن أوس»^(١).

والمقصود بالركعات الاثنتي عشرة هي: أربع قبل الظهر واثنان بعدها، واثنان بعد المغرب، واثنان بعد العشاء، واثنان إذا طلع الفجر، فهؤلاء اثنتا عشر ركعة.

ولما قدم أبوها «أبو سفيان» المدينة ليزيد في الهدنة - قبل إسلامه - دخل على ابنته «أم حبيبة»، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية! أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: لقد أصابك بعدي شر، فهل يفعل هذا بأبيه إلا من كان تقياً محباً لله ولرسوله ﷺ والدين الحنيف؟

وروت عن رسول الله ﷺ خمسة وستين حديثاً، وروى عنها أخوها «معاوية» و«عنبسة» و«عروة بن الزبير» ومولياها «سالم» و«أبو الجراح» و«زينب بنت أبي سلمة» و«صفية بنت شيبة». وأخرج «ابن سعد»؛ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: دعني «أم حبيبة» عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر،

فتحلليني من ذلك، فحللتها، واستغفرت لها، فقالت لي: سررتني سر ك الله، وأرسلت إلى «أم سلمة» بمثل ذلك، وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين، جزم بذلك ابن سعد وأبو عبيد^(١). رحمها الله تعالى.

(١) الطبقات (١٠٠/٨)، والإصابة (٢٥٠٩/٤، ٢٥١٠)، والطبقات (١٠٠/٨)، والصحاح الثمين (١٥٨).

١٠ - صفية بنت حيي ﷺ

قال «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»: «صفية بنت حيي بن أخطب بن شعبة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن تحوم» من بني إسرائيل، من سبط «هارون بن عمران»، وأمها «برة بنت سموأل».

قال أبو عبيدة: كانت «صفية بنت حيي» عند «سلام بن مشكم» وكان شاعراً، ثم خلف عليها «كنانة بن أبي الحقيق» وهو شاعر فقتل يوم خيبر، وتزوجها النبي ﷺ في سنة سبع من الهجرة^(١).

قال «ابن زبالة» في «المنتخب»: إن اسم «صفية» ﷺ هو «حبيبة»، ولكنها سميت «صفية» لأنها كانت «صفية» ﷺ يوم خيبر. وكانت كنيته «أم يحيى».

وحين كانت «صفية» عند «كنانة» رأت في منامها رؤيا، فلما استيقظت قصتها عليه، فقد أخرج الطبراني رجال الصحيح، وابن حبان عن ابن عمر ﷺ قال: كان بعيني «صفية» خضرة، فقال رسول الله ﷺ: «ما بعينيك؟» فقالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب؟ قالت: وما كان أبغض إلي من رسول الله ﷺ، قتل أبي، ثم قتل زوجي، فما زال يعتذر إليّ، ويقول: «يا صفية! إن أباك ألب علي العرب، وفعل وفعل» حتى ذهب ذلك من نفسي.

وذكر «أبو عمر»، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس؛ أن النبي ﷺ اشترى «صفية بنت حيي» بسبعة أرؤس، وخالفه عبد العزيز بن صهيب وغيره^(٢).

وأخرج «المحب الطبري» في «السمط الثمين» عن أنس ﷺ؛ أن

(١) الاستيعاب (٤/١٨٧١)، و(ابن حبان) (١٦٩٧)، والسمط الثمين (٢٠٦).

(٢) الاستيعاب (٤/١٨٧١).

رسول الله ﷺ لما افتتح خيبر وجمع السبي، جاءه «دحية» فقال: يا رسول الله! أعطني جارية من السبي، فقال: «أذهب وخذ جارية»، فأخذ «صفية بنت حيي»، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أعطيت «دحية»، «صفية بنت حيي» سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك، فقال: «ادعوه بها، فجاء بها».

قال: فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «خذ جارية من السبي غيرها».

قال: وأعتقها وتزوجها، فقال له ثابت، أي: لأنس راوي الحديث: يا أبا حمزة! ما أصدقها؟ قال: نفسها، وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له «أم سُلَيْم»، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال: «من كان عنده شيء فليجيئ به»، قال: وبسط نطعاً؛ قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ^(١).

وفي رواية: فقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حبها.

وفي رواية قال: فانطلقنا حتى إذا رأينا جدار المدينة هشتنا إليها، فرفعنا مطايانا - أي: أسرعنا في المشي -، ورفع رسول الله ﷺ مَطيئته.

قال: و«صفية» خلفه قد أردفها. قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فضرع وضربت، قال: فليس أحد من الناس ينظر إليه وإليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها، فأتيناه، فقال: «لم نُضَرَّ».

قال: فدخلنا المدينة فخرجن جواري نسائه يتراءينها فيها، ويشمتن بصرعتها^(٢).

وروى المحب أيضاً: عن جابر: أن النبي ﷺ أتى بصفية من خيبر، وأنه قتل أباه وأخاه وزوجها، وأنه قال لبلال: خذ بيد «صفية» فأخذ بيدها، فمر بها بين المقتولين، فكره ذلك رسول الله ﷺ، حتى رثي في وجهه، ثم قام

(١) السمط الثمين (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) السمط الثمين (٢٠٣، ٢٠٤).

رسول الله ﷺ فدخل عليها، فترعت شيئاً كانت عليه جالسة، فآلقته لرسول الله ﷺ، ثم خيرها رسول الله ﷺ بين أن يعتقها، فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله ﷺ.

فلما كان عند رواحه أحقب بعيره - أي: جعل له حقيبة -، ثم خرجت تمشي حتى ثنى لها ركبته لتطأ على فخذه، فأجلت رسول الله ﷺ أن تضع قدمها على فخذه، فوضعت ركبتهما على فخذه، فركبت، ثم ركب النبي ﷺ، فآلقى عليها كساء، ثم سار، فقال المسلمون: حجبها رسول الله ﷺ، حتى إذا كان على ستة أميال من خيبر، مال يريد أن يعرس بها، فأبت «صفية» ؓ فوجد النبي ﷺ في نفسه عليها، فلما كان بالصهباء مال إلى دومة - دوحة - هنالك، فطاوعته، فقال: «ما حملك على إياك حين المنزل الأول؟»

قالت: يا رسول الله! خشيت عليك قرب اليهود! فأعرس بها رسول الله ﷺ بالصهباء، وبات «أبو أيوب» ليله يحرس رسول الله ﷺ، يدور حول خباء رسول الله ﷺ، فلما سمع رسول الله ﷺ الوطاء، قال: «من هذا؟».

قال: «أبو أيوب - خالد بن زيد»، فقال: «مالك؟»، فقال: ما نمت هذه الليلة مخافة هذه الجارية عليك، فأمره رسول الله ﷺ فرجع^(١).

وعن أنس ؓ قال: لما أخذ رسول الله ﷺ «صفية بنت حيي» ؓ قال لها: هل لك في؟ قالت: يا رسول الله! قد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟ فأعتقها رسول الله ﷺ، وتزوجها، أخرجه تمام من فرائده^(٢).

وقال «أبو عمر» في «الاستيعاب»: وكانت «صفية» حليلة عاقلة فاضلة، ورؤينا أن جارية لها أتت «عمر بن الخطاب» فقالت: إن «صفية» تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها «عمر»، فسألها، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، وأنا أصلها.

(١) السمط الثمين (٢٠٤، ٢٠٥). وصفة الصفوة (٤١٨/٢).

(٢) السمط الثمين (٢٠٥).

قال: ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي فأنت حرة^(١).

إنها نفحة من نفحات الهدى الذي قبسته عن الحبيب الأعظم ﷺ وومضته من ضيائه الذي ملأ الوجود، وفاض على الخلق بالخير العميم.

وروى «ابن حجر» في «الإصابة»: وأخرج الترمذي من طريق «كنانة» مولى «صفية» أنها حدثته، قالت: دخل عليّ النبي ﷺ، وقد بلغني عن «عائشة» و«حفصة» كلام، فذكرت له ذلك، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي «محمد»، وأبي «هارون» وعمي «موسى»؟» وكان قد بلغها أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، نحن أزواجه وبنات عمه^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما بلغ «صفية» أن «حفصة» رضي الله عنها قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي «حفصة بنت عمر»: إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟» ثم قال: «اتق الله، يا حفصة!»^(٣).

وكان ﷺ شديد الرفض بها، كثير اللطف معها، لما يعلم من فرط محبتها له، وقد روى «ابن سعد» في طبقاته، عن زيد بن أسلم، قال: اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، واجتمع إليه نساؤه، فقالت «صفية بنت حيي»: إني والله! يا نبي الله! لوددت أن الذي بك بي، فغمزنا أزواجه ببصرهن، فقال: «مضمضن» فقلن: من أي شيء؟ فقال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»^(٤). فيا لها من شهادة عظيمة من صاحب الخلق العظيم!.

وجاءت «صفية» إلى النبي ﷺ تزوره في معتكفه في العشر الأواخر من رمضان، فحدثته، ولما أرادت أن تنقلب قام معها يَقلِّبُها فمر بهما رجلان من

(١) الاستيعاب (٤/ ١٨٧٢).

(٢) الإصابة (٤/ ٢٥٥٨)، والترمذي (٣٨٩٢).

(٣) السط الثمين (٢٠٦، ٢٠٧).

(٤) الإصابة (٤/ ٢٥٥٩).

الأنصار فلما عليه، فقال لهما: إنما هي «صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! وكبر عليهما، فقال ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً». رواه البخاري والمحب الطبري في السمط الثمين^(١).

وروى «المحب الطبري» عن «صفية» ؓ قالت: حج رسول الله ﷺ بنسائه فلما كان في بعض الطريق برك بي جملي، وكنت من أحسرهن ظهوراً - أي: أن الدابة التي تحملها ضعيفة -، فبكيت، فجاء النبي ﷺ، فجعل يمسح دموعي بردائه ويبيده، وجعلت لا أزداد إلا بكاءً، وهو ينهاني، فلما كثرت عليه، زبرني^(٢). أخرجه الملاء في سيرته.

وكان حب «صفية» ؓ لرسول الله ﷺ يزيدها تعلقاً بالقرآن الكريم وشغفاً بحديثه ﷺ فراحت تنهل منهما، وتستزيد، وروت عدة أحاديث، قيل: إنها بلغت العشرة، أحدها في الصحيحين.

وروى عنها «علي بن الحسين» و«كنانة» مولاها، و«عبد الله بن الحارث» الهاشمي، وسواهم.

وأخرج «أبو نعيم» في «حلية الأولياء» قال: عن عبد الله بن عبيدة: أن نفراً اجتمعوا في حجرة «صفية بنت حيي» زوج النبي ﷺ فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم «صفية»: هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟^(٣).

ووصفها «أبو نعيم» في ترجمته لها، فقال: التقية الزاكية، ذات العين الباكية، «صفية» الصافية، زوجة النبي ﷺ.

ولم تكتف «صفية» ؓ، بتعلم القرآن، وحديث رسول الله ﷺ، بل تعدت ذلك إلى تعليمهما للناس، وزرع جهما في نفوسهم، ودعتهم إلى التدبر والخشوع، وحثهم على الحفظ ما استطاعوا، ولئن كان ذلك منها في حياة

(١) السمط الثمين (٢٠٨، ٢٠٩) والبخاري في كتاب الاعتكاف (١٩٣٠).

(٢) السمط الثمين (٢٠٧).

(٣) حلية الأولياء (٥٨/٢).

حبيبها وأسوتها رسول الله ﷺ، فإن ذلك قد زاد منها بعده لتماماً فراغها، وتشغل وقتها، وأي شيء أجدى من كتاب الله، وسنة مصطفاه؟ ولم تنسَ فضل الصدقة وما تعود به على صاحبها من الخير، فكانت تحث الناس عليها، وتكثر من البذل والإنفاق ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ولم تنسَ «عثمان» ذا النورين يوم حصره ومنع القوت والماء عنه، فقد روى «كنانة» مولاها، فقال: كنت أقود بصفية لثرداً عن «عثمان» فلقبها «الأشتر» مالك بن الحارث النخعي، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقالت: «ردوني، لا يفضحني هذا».

قال الحسن - أحد رواة السند - في حديثه: ثم وضعت خشباً بين منزلها ومنزل «عثمان» تنقل عليه الماء والطعام^(١). إنه لم تنسَ فضل «عثمان» وما بذله لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين.

وفي شهر رمضان من سنة خمسين، وقيل: اثنتين وخمسين، وافتها المنية، وكانت مقبرة البقيع مستقرها، رحمها الله تعالى.

(١) الصالحى (٢٢٧)، والطبقات (١٢٨/٨)، والإصابة (٢٥٥٩/٤).

١١ - ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

وكانت آخر أزواج النبي ﷺ «ميمونة» رضي الله عنها والدها «الحارث بن حَزَن بن بُجَيْر بن الهُزَم بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عِيلان بن مضر» هكذا نسبها «أبو عمر بن عبد البر» في «الاستيعاب»^(١). وكان اسمها «بَرَّة» فغيره النبي ﷺ إلى «ميمونة». وأما «هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير» أكرم الناس أصهاراً.

وتابع «أبو عمر» قوله، فقال: وقال أبو عبيدة: لما فرغ رسول الله ﷺ من خير توجه إلى مكة معتمراً سنة سبع. وقدم عليه «جعفر بن أبي طالب» من أرض الحبشة، فخطب عليه «ميمونة بنت الحارث» الهلالية، وكانت أختها لأمها «أسماء بنت عميس» عند «جعفر» و«سلمى بنت عميس» عند «حمزة» و«أم الفضل» عند «العباس» فأجابت «جعفر بن أبي طالب» إلى رسول الله ﷺ، وجعلت أمرها إلى «العباس» فأنكحها النبي ﷺ، فلما رجع بنى بها بِسْرَفَ حلالاً - موضع على ستة أميال من مكة، وقيل: سبعة، وتسعة، واثنى عشر - . وكانت قبله عند «أبي رُهم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي».

وقال: يقال: بل عند «سبرة بن أبي رهم»، قال: وماتت بِسْرَفَ، هذا كله قول «أبي عبيدة»^(١).

وفي حديث سُيَيْد، عن زيد بن الحباب، عن ابن أبي معشر، عن شرحبيل بن سعد، قال: لقي «العباسُ بن عبد المطلب» رسولَ الله ﷺ بالجحفة حين اعتمر «عمرة القضية»، فقال له «العباس»: يا رسول الله! تأيَّمت «ميمونة بنت الحارث بن

(١) الاستيعاب (٤/ ١٩١٥ - ١٩١٦).

حزن بن أبي رُهم بن عبد الغزى، هل لك في أن تزوجها، فتزوجها رسول الله ﷺ وهو محرم، فلما أن قدم مكة أقاما ثلاثاً، فجاءه «سهيل بن عمرو» في نفر من أصحابه من أهل مكة، فقال: يا محمد! أخرج عَنَّا، اليوم آخر شرطك، فقال: «دعوني أبتني بامرأتي، وأصنع لكم طعاماً»، فقال: لا حاجة لنا بك ولا بطعامك، أخرج عَنَّا.

فقال له سعد: يا عاض بَظُر أمه! أرضك وأرض أمك، نحن دونه، لا يخرج رسول الله ﷺ إلا أن يشاء، فقال له رسول الله ﷺ: «دعهم فإنهم زارونا لا تؤذهم»، فخرج، فبنى بها بَسْرَف^(١).

وقد اختلف الفقهاء وأهل السير في زواج رسول الله ﷺ من «ميمونة» فبعضهم قال: إنه كان حلالاً، وبعضهم قال: إنه كان مُحرماً، ومنهم من جمع بأنه عقد عليها وهو محرم، وبنى بها بعد أن أحلَّ من عمرته بالتنعيم وهو حلال في الجِل^(٢) والله أعلم.

وروى الطبراني برجال ثقات، عن الزهري، أن «ميمونة بنت الحارث» هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ^(٣).

وروى «ابن سعد» في «الطبقات الكبرى»: هي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، يعني: ممن دخل بهن^(٤).

وقد حظيت «ميمونة» ﷺ من رسول الله ﷺ بأرفع وسام، فقد روى النسائي والطبراني والحاكم وابن عساكر وابن سعد، عن عبد الله بن عباس ؓ قال: قال النبي ﷺ: «الأخوات مؤمنات»: «ميمونة» زوج النبي ﷺ، و«أم الفضل»، و«سلمى» - امرأة «حمزة» - و«أسماء بنت عميس أختهن»^(٥)، إنه وسام الإيمان،

(١) الاستيعاب (٤/١٩١٧ - ١٩١٨).

(٢) الإصابة (٤/٢٦٣٩).

(٣) الطبراني في الكبير (٢٣/٤٢١).

(٤) الطبقات الكبرى (٨/١٣٧).

(٥) النسائي (٢٨١)، والطبراني في الكبير (١١/٤١٥).

وليس أرفع منه ولا أسمى^(١).

وروى الحاكم وابن سعد بسند صحيح عن يزيد بن الأصم، - وهو ابن أخت - ميمونة - قال: تلقيت عائشة وهي مقبلة من مكة، أنا وابن «طلحة بن عبيد الله» - وهو ابن أختها - وقد كنا وقعنا في حائط من حيطان المدينة، فأصبنا منه، فبلغها ذلك، فأقبلت على ابن أختها تلومه وتعذله، ثم أقبلت عليّ فوعظتني موعظة بليغة، ثم قالت: أما علمت أن الله تبارك وتعالى ساقك حتى جعلك في بيت نبيه؟

ذهبت «ميمونة» ورُمي بحبلك على غاربك، أما إنها كانت من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم^(٢).

وبلغ من تقاها وتصكها بدينها، أن قريباً لها دخل عليها، ورائحة الشراب تفوح منه، فقالت له بغضب: والله! لئن لم تخرج إلى المسلمين، فيقام عليك الحد، لا تدخل عليّ أبداً بعد هذا اليوم، وأمرته بالخروج فخرج^(٣).

وكيف لا تفعل ذلك من تحلّت بحلية الإيمان، أجمل الحُلل وأبهاها؟

وكانت «ميمونة» رضي الله عنها من رواة الحديث النبوي الشريف، فقد بلغ عدد الأحاديث التي روتها ستة وسبعين حديثاً، منها ثلاثة عشر حديثاً في الصحيحين، اتفق الشيخان على سبعة منها، وانفرد مسلم بخمسة، والبخاري بواحد، والباقي منثورة في كتب الحديث.

واختلف في وفاتها رضي الله عنها، فقد ماتت بسرف، موضع بناء رسول الله ﷺ بها، ودفنت في موضع قبتها التي ضرب لها رسول الله ﷺ حين البناء بها، سنة إحدى وستين، قاله الواقدي، كما في الطبقات^(٤)، والبلاذري في أنساب الأشراف، وقال الحافظ الذهبي: لم تبق إلى هذا الوقت، فقد ماتت قبل «عائشة» رضي الله عنها وأورد

(١) النسائي (٢٨١) والطبراني في الكبير (٤١٥/١١).

(٢) الصالح (٢٠٥)، والإصابة (٢٦٤٠/٤).

(٣) انظر الطبقات (١٣٩/٨).

(٤) الطبقات (١٤٠/٨).

«ابن حَجَر» في «الإصابة» عدداً من الأقوال: سنة إحدى وخمسين، إحدى وستين، تسع وأربعين، ثلاث وستين، ست وستين^(١). وقال ابن إسحاق ماتت «ميمونة بنت الحارث» زوج النبي ﷺ عام الحرة سنة ثلاث وستين^(٢)، رحمها الله تعالى.

خاتمة

تم كتاب أزواج الأنبياء عليهم صلوات ربي وسلاماته ورضي الله
عنهن أجمعين، والحمد لله رب العالمين

وكتب العبد الفقير إلى عفو ربه القدير

محمد راجي حسن كِنَّاس

(١) الإصابة (٤/٢٦٤٠، ٢٦٤١).

(٢) الطبراني في الكبير (٤٢٢/٢٣) والهيتمي في المجمع (٩/٢٤٩).

المحتويات

٥	المقدمة
٧	١ - حَوَّاءُ أم البشر
٣٣	٢ - وَالْعَةِ امْرَأَةُ نُوحٍ
٥٨	٣ - سَارَةُ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ
٨٤	٤ - هَاجِرُ امْرَأَةِ «إِبْرَاهِيمَ»
١١٠	٥ - وَالْهَةِ امْرَأَةُ لُوطٍ
١٢٣	٦ - رِغْلَةُ امْرَأَةِ ذَبِيحِ اللَّهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ
١٣٢	٧ - رَاحِيلُ امْرَأَةُ يَعْقُوبَ
١٥٠	٨ - لِيَا امْرَأَةُ أَيُّوبَ
١٦١	٩ - صَفُورَا امْرَأَةُ مُوسَى
١٧٧	١٠ - أَشْيَاعُ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا

ازواج سيد البشر ﷺ ورضي الله عنهم

١٨٧	١ - السيدة خديجة بنت خويلد
٢١١	٢ - السيدة سودة بنت زمعة
٢١٨	٣ - المبرأة المطهرة عائشة بنت أبي بكر الصديق
٢٥٨	٤ - السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب
٢٧٤	٥ - السيدة زينب بنت خزيمة
٢٧٧	٦ - أم سلمة
٢٩٦	٧ - زينب بنت جحش
٣٠٨	٨ - جُوَيْرِيَةُ بنت الحارث
٣١٢	٩ - أم حبيبة
٣١٧	١٠ - صفية بنت حيي
٣٢٣	١١ - ميمونة بنت الحارث